علي الطَّنطاوي

كلماتٌ صَغيرة

جمع وترتيب حفيد المؤلف
مجاهِد مأمون ديرانيّة



دارُ المنارة

كلماتٌ صَغيرة


بسم الله الرحمن الرحيم

علي الطنطاوي

كلماتٌ صَغيرة

جمع وترتيب حفيد المؤلف
مجاهِد مأمون ديرانيّة

دارُ المنارة
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
٢٠١٦



ص ب ١٢٥٠ جدة ٢١٤٣١ المملكة العربية السعودية
هاتف ٦٦٠٣٦٥٢ فاكس ٦٦٠٣٢٣٨ المستودع ٦٦٧٥٨٦٤

مقدمة

هذا الكتاب جديدٌ قديم، فبعضٌ منه يُنشَر للمرة الأولى، وبعضٌ نُشِرَ من قبل في الجزء الثاني من كتاب «مقالات في كلمات»، وقد ورث هذا الكتابُ ذاك الكتابَ فلن يصدر بعد اليوم.

وأنا أعتذر من كل قارئ اقتنى الجزء الثاني من «المقالات» ويُضطر اليوم إلى اقتناء هذا الكتاب، فما كنت أحب أن أغرّم أحداً شراء الكتاب نفسه مرتين، لكني اضطررت إلى سلوك الطريق الذي كنت أرجو أن أجتنبه ونقضت كتاباً سبق إصداره، ولي عذر أرجو أن تقبلوه.

لقد كان ذلك الكتاب أولَ كتاب أصدرته بعد وفاة الشيخ رحمه الله، ولم تكن خطة إصدار الكتب جميعاً قد اكتملت في ذهني يومئذ، إنما كانت في صورتها الأوّلية، وقد فرزت ما وصل إلى يدي من أوراق ومقالات فرتبتها في أبواب يصلح كل منها مادةً لكتاب، ثم استخلصت من المقالات القصيرة ما يؤلف أول هذه الكتب، وكان أكثرُها من المقالات التي نشرها جدي رحمه الله بعنوان «كل يوم كلمة صغيرة» في جريدتَي «النصر» و«الأيام» من سنة ١٩٤٩ إلى سنة ١٩٥١ (على ما ستقرؤونه في مقدمة الطبعة الأولى التي تأتي بعد هذه المقدمة)، وأضفت إليها بعضاً

من المقالات القصيرة القديمة التي نشرها في أول حياته، وبعضاً آخَرَ من الأحاديث الوجيزة التي أذاعها في الإذاعة والرائي أواخرَ الستينيات.

بعد ذلك عثرتُ على مجموعة أخرى كبيرة من المقالات التي كان ينبغي أن تُضاف إلى الكتاب، وهي أقل من أن تصدر في جزء مستقل، ففكرت في أن أضمّها إلى الكتاب في طبعة لاحقة، لكني وجدت أن هذا سيربك القرّاء الذين اقتنَوه سابقاً وقد لا يعرفون الفرق بين الطبعتين. ثم أصدرت كتباً لاحقة فيها مكان أنسب لبعض المقالات القديمة والأحاديث الجديدة التي ضممتُها إلى الجزء الأول، فنقلتها إليها[1]. أخيراً لاحظت أن بعض الكُتبيّين الذين يبيعون الكتاب يصرّون على ضم الكتاب القديم إلى الجديد وبيعهما معاً وكأنهما كتاب واحد قُسِم في مجلدين، والسبب الوحيد لهذا الضمّ أنهما يجمعهما اسمٌ واحد، مع أنهما كتابان مستقلان تماماً ويفصل بين صدور أحدهما وصدور الآخر أكثرُ من أربعين سنة.

لهذه الأسباب مجتمعةً قررت أن ألغي الكتاب القديم وأصدرت محله هذا الكتاب. وإن يكن جزء منه ممّا سبق نشره

(١) نقلت المقالات القصيرة التي كتبها المؤلف في وقت مبكر من حياته إلى كتاب «البواكير» الذي صدر قبل ستّ سنين، لأنها أليق به وأنسب فيه، ونشرت في كتاب «فصول في الثقافة والأدب» بعض ما يناسبه من الأحاديث الجديدة التي كانت في آخر الكتاب السابق، وسأنقل بعضَها الآخر إلى كتاب «مباحث إسلامية» الذي أرجو أن أصدره غيرَ بعيد إن شاء الله.

في الكتاب القديم فإن الجزء الجديد الذي يُنشَر لأول مرة كبير، وهو يمتد حتى الصفحة ١٢٠ من هذا الكتاب.

وكما صنعت يومَ انتخبتُ مقالات الكتاب أول مرة، فقد اخترت ما يفيد وتركت ما ذهبَتْ قيمتُه بذهاب يومه، على أنني احتفظت بطائفة من المقالات فيها صورٌ من التاريخ، وبطائفة أخرى فيها عِبَرٌ وفوائد، انقضت حوادثها وذهب رجالها وبقيت عبرتُها وفائدتها صالحةً لهذا اليوم ولكل يوم آت.

أسأل الله أن ينفع الناس بهذا الكتاب، وأن لا يحرم جامعَه وناشرَه من الأجر والثواب.

مجاهد مأمون ديرانيّة
جُدّة: غرة ذي الحجة ١٤٣٦

مقدمة الطبعة الأولى

هذا كتابٌ يخرج على الناس بعدما بقي حبيسَ الأدراج نصف قرن، وبعدما كدت أظن أنه لن يُنشَر أبداً. وهذه هي القصة:

لمّا وفدتُ على المملكة من نحو ربع قرن للدراسة كنت أزور جدي -رحمه الله- في بيته في مكة يومين أو ثلاثةَ أيام من آخر كل أسبوع، وكنت أمضي معه كثيراً من الوقت بين الكتب والأوراق؛ أشتغل فيما يشغّلني به من فرز وتصنيف وأنفّذ ما يكلفني به من تجميع وفهرسة وترتيب.

فكان أن عرفت يومئذ -فيما عرفت- أن تحت يدَي جدي عدداً من الكتب لا تحتاج لإخراجها إلى غير جهد يسير؛ من ترتيب أو تجميع أو تحرير أو تكميل. ولطالما حملَتْني الحماسةُ أو شاقني الأمل فألححت عليه أن نشتغل فيها لإتمامها وإخراجها، ولكن جدي رحمه الله، الذي كان فيه من الفضائل والمزايا الكثير، كان كثيرَ التسويف كثيرَ التأجيل، فكان يؤجّل العمل في كل أسبوع إلى الأسبوع الذي يليه وفي كل شهر إلى الشهر الذي بعده.

ومرَّتْ على ذلك أربعٌ وعشرون سنة، ولم أعد أظن أن الكتب ستُنشَر قط. وأنّى؟ وبقيّةُ الهمّة التي حملها جدي معه

ثمانين عاماً قد خَبَتْ في السنين العشر الأواخر من حياته نارُها وخفتَ أُوارُها؛ فما عادت له في العمل رغبة ولا عليه طاقة. عندئذ نسيت الموضوع كله فما عدت أذكر هذه الكتب.

ثم غادر -رحمه الله رحمة واسعة- هذه الدنيا إلى دارٍ هي له خيرٌ منها إن شاء الله. وما تركه من علم أحرى أن يُنشَر بين الناس فينتفع به الناس ويكون له أجراً مدَّخَراً في آخرته وأنيساً له حيث ليس غير العمل الصالح من أنيس، فلم يجد الذين أحبوه حياً وأحبوه ميتاً ما يُهدونه له خيراً من نشر ما لم يُنشَر مما كتب، لعله يكون العلمَ الذي يُنتفَع به فلا ينقطع أجره أبداً بإذن الله.

وهكذا بدأ العمل لإخراج هذه الكتب. وإني لأسأل الله أن يوفق إلى إتمامه، وأن تصدق فيه نيّةُ مَن يعمل به ولا يُحرَم المشاركة في الأجر فيه، وأن يكون في ميزان جدّي يوم توزن الأعمال بين يدي الرحمن الرحيم.

* * *

فما الذي صنعته في هذا الكتاب، وما الذي سأصنعه في الكتب الباقية التي أرجو أن يوفق الله إلى إخراجها عمّا قريب؟[1]

---

(١) نشرتُ بعد هذا الكتاب سبعةَ كتب، هي: الجزء الثاني من الفتاوى (٢٠٠١)، فصول اجتماعية (٢٠٠٢)، سيّد رجال التاريخ (٢٠٠٢)، نور وهداية (٢٠٠٦)، فصول في الثقافة والأدب (٢٠٠٧)، فصول في الدعوة والإصلاح (٢٠٠٨)، البواكير (٢٠٠٩). وما يزال مثلها أو أكثر منها ينتظر الإعدادَ والنشر إذا وَفّقَ الله.

جمعت -أولاً- سائرَ ما استطعت جمعَه من أصولٍ ممّا لا يزال مخطوطاً ومما نُشر من قبل في الصحف، فاستبعدت ما نُشر منها في الكتب التي أصدرها الشيخ في حياته، ثم ذهبت أتتبع الخطة التي كانت في ذهنه لإخراج كتب بأعيانها، مستعيناً -في ذلك- بما وجدته بين أوراقه من قصاصات أو إشارات. بعد ذلك اشتغلت بفرز المقالات والفصول التي تجمعت عندي وتبويبها بحيث تستغرق كل مجموعة منها كتاباً. وبدأت بهذه المقالات القصيرة التي صنعَت الجزء الثاني من كتاب «مقالات في كلمات».

أما الجزء الأول فموجودٌ متداوَلٌ بين أيدي الناس منذ أربعين سنة حين صدرت طبعته الأولى. ومبدأ هذه المقالات -كما جاء في مقدمة مؤلفها في كتاب «مقالات في كلمات»- أن صاحب جريدة «النصر»، وديع الصيداوي، طلب إليه عام ١٩٤٩ أن يكتب عنده زاوية يومية بعنوان «كل يوم كلمة صغيرة»، فمشى بها زماناً. ثم انتقل إلى جريدة «الأيام» عند نصوح بابيل، واستمر بها سنين.

قال في المقدمة التي كتبها للطبعة الجديدة من الكتاب عام ١٩٩٠: "وجاءت (أي هذه المقالات) بأسلوب جديد، أقرؤه الآن فأرتضيه (ولست أرتضي كل ما كنت كتبت)، ولكنّ موضوعاتها يومية يموت الاهتمام بها بموت يومها. وقد استمرت سنين، فتجمّع لديّ منها مئات ومئات. فلما ألّفَ الدكتور مصطفى البارودي وإخوانٌ له من الشباب (أعني الذين كانوا شباباً في تلك الأيام) لجنةً للتأليف والنشر دفعتُها إليهم ليختاروا منها ما يجمعونه في الكتاب الذي طلبوه مني، واختاروا طائفة منها في كتاب صغير

دعوه «كلمات». ثم نشرتُ مجموعة منها أكبر في كتاب «مقالات في كلمات»، وبقي عندي منها الكثير الكثير".

وقال في مقدمة الطبعة الأولى التي كُتبت عام ١٩٥٩ : "كنت في سنة ١٩٤٩ أكتب في جريدة «النصر» أولاً ثم في «الأيام» آخِراً كلمات بعنوان «كل يوم كلمة صغيرة». ولبثت على ذلك سنوات اجتمع لديّ فيها ركام منها، منه ما لا يُقرَأ إلا في يومه، وقد أهملته واطّرحته، ومنه ما يُقرأ في كل الأوقات، وقد اخترت منه هذه الكلمات".

فمن هذه الكلمات القصيرة، ممّا لم يُنشَر في الكتاب السابق، اخترت معظم مقالات هذا الكتاب.

* * *

ولكن ما الذي صنعته سوى اختيار المقالات وتجميعها وتبويبها؟

علمتُ -بادئ ذي بدء- أن جدي ما كان ليقبل أن يعبث بكتابته أحد، فلم أتجرأ على تغيير شيء من النص الذي كتبه. ولكني اضطررت إلى الاجتهاد في بعض المواقع وأنا أقف أمام خطأ مطبعي واضح مما نُشِرَ في صحيفة ولم يمرّ عليه قلم جدي بالتصحيح (وقليلةٌ هي المقالات التي عاد إليها بالتصحيح، على كثرة أخطاء الطباعة) أو وأنا أحاول فكّ رموز جملة مخطوطة (وخط جدي كان -إذا استعجل فيه- من الرموز التي لا يفهمها غير الخاصة). على أنه لم يكن اجتهاداً مطلقاً، بل هو مقيَّد بما أعرفه من مفردات جدي التي تدور على قلمه أو تعبيراته التي

تتكرر في كتاباته. وأرجو ألاّ أكون قد أغربت[1].

ثم كان عليّ أن أضع للمقالات عناوين، فإن أقل القليل منها قد حمل عنواناً بخطه، لأنها كانت -في الأصل- مقالات قصيرة بلا عنوان تحت عمود يومي ذي عنوان، وآمُل أن أكون موفقاً فيما اجتهدت فيه من ذلك.

وأخيراً تجرأت فوضعت بعض الهوامش في مواطن معدودة حيث أحسست بحاجة لهامش، ولكني لم أخلط ما أدرجته من ذلك بالهوامش الأصلية التي كتبها جدي لمقالاته وميزتها عنها باسمي بين قوسين.

* * *

---

(١) ألزمت نفسي حين بدأت بإخراج كتب جدي رحمه الله، قديمِها وجديدها، باتّباع خطِّه حرفاً بحرف وعلامةً بعلامة. ثم أبقيت على نفسي قَيْد الحروف وحررت نفسي من التقيّد بعلامات الترقيم، فغيّرت فيها الكثير، فهو -على سموّ درجته في الأدب ومرتبته العالية في البيان التي قَلّ أن يصل إليها إنسان في هذا الزمان- لم يكن يهتمّ كثيراً باتباع الأصول في إثبات تلك العلامات. ومن المعروف أن علامات الترقيم هي علامات تفهيم، بها يتمّ المعنى ويَضِحُ المقصود. فنشأ من اضطراب استعمالها غموضٌ في مواضع من كتاباته، لا يستعصي فهمُها على الخاصة ولكنها قد تحيّر وتُضلّ العامة عن المعنى الذي أراده، فحيث وجدت شيئاً من ذلك (وهو كثير) غيّرته بما يوافق أصول المهنة. وهذا التصويب يدخل في باب «التحرير» الذي يُباح للناشر ولا يؤثر في جوهر كتابة الكاتب، وهو مألوف في صناعة النشر ومقبول عند الكتّاب بشتّى اللغات.

ذلك كل ما صنعته لا أكاد أزيد عليه. وما هو بالعمل الجليل ولا بالجهد الكبير، ولكن طمعي في المشاركة بالأجر يحملني على أن أسأل مَن قرأ هذا الكتاب فوجد فيه نفعاً (وهو لا بُدّ فاعل) أن يدعو لكاتبه ولا ينسى جامعه من الدعاء.

ولن أنسى -ختاماً- أن أشكر بنات الشيخ رحمه الله، أمي وخالاتي اللائي آثرنَني بهذا العمل فأتحنَ لي أن أكون شريكاً في الأجر فيه، وكذلك زوج خالتي، نادر حتاحت، الذي كان لجدي -ما علمتُه- خيرَ ما يكون ابنٌ بارٌّ لأبٍ محب، والذي ينشر اليومَ هذا الكتاب.

مجاهد مأمون ديرانية

جدة: منصرم عام ١٤٢٠

أعود

أعود إلى هذا الركن من «الأيام» كما يعود المرابط إلى الثغر وهو أقوى نَفْساً وأكثر حماسة وأصلب عوداً وأصعب مكسراً، ليستأنف الجهاد في سبيل الله وفي سبيل الحق والخلق والفضيلة.

أعود لأؤدّي الأمانة التي وضعها الله في عنقي حين وضع هذا القلم في يدي، فلا أسخّره لجَرّ منفعة لنفسي ولا لدرء المضرّة عنها، ولا أمدح رغبةً ولا أنقد كرهاً، ولكن لنصرة الحق وحرب الباطل، والدلالة على الخير والتحذير من الشر. وأنا أجدد بذلك العهد للقراء، فإن وجدتموني -يا أيها القراء- حِدْتُ عن هذا الطريق يوماً فأسكتوني.

أعود لأدافع عن أخلاق هذه الأمة وعن أعراضها، وعن ثروتها وعن أموالها، وأدعوها إلى العودة إلى دينها وفضائلها، وأذكّرها بجلال ماضيها، وأنفخ فيها روح العزم، وأُذْكي في نفوسها ضَرَم الحماسة والعزة والقوة والنبل والكرامة، وأرغّبها في كل خير شرقياً كان أم غربياً، وأحذّرها من كل شر غربياً كان أم شرقياً. فلا تكون جامدة على عاداتها وأوضاعها، متمسّكة بكل ما أَلِفت عليه آباءها، ولا تكون إمّعَة في الأمم، تقلد كما تقلد القردةُ وتأخذ كل ما يأتيها من الغرب، ولو كان يشكو منه الغرب، ولو

كان الكفرَ والفسوقَ والانحلال الخلقي، ولو كان الخمرَ والدعارةَ والسم الناقع والبلاء الأزرق.

لهذا أعود. فإن كان في هذا شيء لا ينفع الأمة ولا يعود بالخير عليها فسَمُّوه لي لأُقلع عنه، وإن كان خيراً كله فإني ماضٍ فيه بعون الله، لا يثنيني عنه شيء.

ومن سبّني فإني لا أسبه، ومن عابني فإني لا أعيبه، إلا أن تكون كلمة حق آخذ بها، أو أن يكون نقداً من رجل له قيمة أردّ عليه، وما سوى ذلك أجوزُ به، أقول: لا يعنيني. وما عن عجز ذاك ولا عن قلّة، فإن لي قلماً لو وضعته -بحمد الله- على حديد لفَرَيتُه، ولكن لأن لي غاية أمشي إليها، فلا أحبّ أن أشتغل عنها بالتُّرّهات، فاحفظوا هذا عني.

وقد ألِفتُ المدح والقدح حتى لو رفعني مادحٌ إلى السماء ما استخَفّني، ولو نزل بي قادحٌ إلى الحضيض ما أزعجني.

هأنذا -يا أصدقائي القراء- أعود إلى هذه الكلمات، وهي منكم وإليكم، تترجم عن آرائكم، وتعبر عن خواطركم، وتُساق لمنفعتكم أو لمسرّتكم، وحسبي جزاءً عليها ثوابُ الله وصداقتكم. والسلام عليكم، وإلى الغد إن شاء الله.[1]

* * *

(١) لم أعرف ظروفَ نشر هذه المقالة ولا تاريخَ نشرها، وكم وددت لو فعلت! إنها توحي بعودة بعد انقطاع، فمتى انقطع الشيخ عن «كلماته» اليومية ومتى عاد؟ لم أعرف، غيرَ أني وجدتها صالحة لأن تكون مقدمته لهذا الكتاب أو كالمقدمة، فجعلتها الأولى فيه (مجاهد).

بالعربي الفصيح

أرجو ألاّ تخبروا الطبيب بأني كتبت هذا الكلمة، لأنه منعني من كل عمل فكري وأوصاني بالراحة، وأنذرني إذا لم أسمع وأُطِع مرضاً شديداً. لذلك كففت عن كثير من أعمالي، وسألت الأستاذ الأمير يحيى الشهابي إجازة من الإذاعة وراحة لي وللناس من أحاديثي فيها، ولكني -مع ذلك- لم أستطع كَفَّ قلمي عن هذه الكلمة، وأحسست أني أنفجر إذا أنا لم أقلها!

إننا نسمع في كل مكان ونقرأ في كل صحيفة أن البلاد على خطر، وأن الحرب قريبة منّا، وأن الفرنسيين والإنكليز وإسرائيل، كلهم يتربصون بنا ويبيّتون الشر لنا، ثم أنظرُ حولي فلا أرى أمة تستعد للحرب، ولا أجد إلا الغفلة واللهو والانقسام والاختلاف.

فنحن نسب فرنسا ونأخذ منها أحمر الشفاه وقوارير العطور وزجاجات السموم التي اسمها الكونياك والشمبانيا، ونعطيها ثمنها من حُرّ أموالنا ما تشتري به الرصاص لصدور إخواننا في الجزائر والقنابل لدورهم وقراهم!

ونحن نلعن فرنسا ونبعث بأبنائنا وبناتنا إلى مدارسها! ولو فتشت مدارس الفرير واللاييك والفرنسِسْكان لم تجد في كل مئة من تلاميذها فرنسياً واحداً، والتسعة والتسعون من أبنائنا وبناتنا،

نقول لها: علّميهم ما تريدين، علميهم حب فرنسا ولقنيهم مبادئها، واجعلي منهم أنصاراً لها وأعداء علينا، وخذي على ذلك الأجرة منا!

فهل في الدنيا أمة تحارب عدوها، ثم تسلمه أبناءها ليجعلهم أعداءها، وتعطيه أجرة ذلك من مالها؟ وهل في الدنيا جماعة تكون في معركة مع عدو غريب عنها، ثم تجعل للخلافات الصغيرة فيما بينها سبيلاً إلى إضعافها؟ فما معنى اختلاف الأحزاب والهيئات والجماعات، والعدو المشترك متربص بها جميعاً؟

وهل في الدنيا أسرة تحيط بها النار المندلعة ويهدّدها اللص المسلح، ثم تغني أو ترقص وتلعب؟ فما معنى هذه الحفلات التي لا آخر لها، حفلات الرقص واللهو، حتى لا أظن أنه بقي في الأرض شعب لم يَسُقْ إلينا راقصاته وقَيْناته، وكلها تأخذ من أموالنا ومن رجولة شبابنا، وتشغلهم عن الاستعداد للحرب بالنظر في الصدور والسيقان، باسم الفن طبعاً وللفن وحده، ومن قال غير ذلك فهو رجعي جامد شهواني لا يُسمَع كلامه! والأموال الطائلة تُنفَق على السرف، على إيفاد المدلَّلين من كبار الموظفين ليسيحوا في الأرض ويتفرجوا ويستمتعوا، فأين الاستعداد للحرب؟[1]

وهل حسبتم النصر يأتي بالرشاشات والمدافع فقط؟ إن النصر لا يأتي إلا بالإيمان، بالقوة المعنوية. إن النصر من عند

---

(١) انظر مقالة «هذه الحرب، فماذا أعددتم لها؟» وهي في هذا الكتاب، ص١٩٠ (مجاهد).

الله، فهل يُطلَب النصر من الله بالمجاهرة بمعصيته، واستباحة محارمه، والخروج على حدود دينه؟

وعليكم قبل ذلك كله بالرجوع إلى الله، وإيقاظ الإيمان في النفوس، حتى يكون القتال في سبيل الله، ولإعلاء كلمة الله، وبذلك، بذلك وحدَه يكون النصر إن شاء الله.

* * *

إنذار

قال لي عضو محترم من أعضاء المجلس البلدي متهكماً ساخراً: اكتب كما تريد، وخذ «جْنَاب مثل الطناب»[1]. ما أرخصُ من الحبر إلا الورق!

هكذا والله يسخر من هذه الأمة ويضحك لبكائها ويتسلى برؤية آلامها. ولِمَن يقول هذا؟ لي أنا؟

كلا يا صاحبي، لا تقتحم بوجهك نار الجحيم. كلا، إنه قلم الحق، ولو أن للمحافظة[2] جلود التماسيح لكَوَيتُها بهذا القلم مثل كَيِّ النار حتى أجعلها تَثِب وَثْبَ الأرانب. وإن من الورق -يا صاحبي- ما يصلح أن يكون كفناً لميت، وإن من الحبر ما يسوّد

---

(١) يلفظونها بسكون الجيم في الكلمة الأولى وسكون الطاء في الأخيرة. تعبير عامي شامي إذا وصفوا به أحداً من الناس فُهِم أنه بليد فاقد الإحساس لا يؤثر فيه هجاء (مجاهد).

(٢) محافظة دمشق، أي مجلس بلديتها. وسوف تأتي الإشارة إليها كثيراً في مقالات هذا الكتاب. وربما قال قائل: إنه حديث عن مجلس مضى ومضى أهلُه، فبأيّ شيء يفيد الحديث عنه؟ وجوابي عن هذا السؤال أن ما صلح نقداً لمجلس بلدية ذلك الزمان يصلح في كل زمان، فإنما كان أعضاؤه ناساً من الناس، وعيوب الناس واحدة وعللها سواء، وإن تباعدت الأعصار وتباينت الأمصار (مجاهد).

الوجه ويُعمي البصر، ويومئذ تقول (إن استطعتَ المقال): ما أشد من الحبر إلا الورق!

فإذا كانت «المحافظة» تريد أن تستمر في ازدراء الناس والترفع عنهم وإغراقهم في الوحل... وكانت «الأوقاف» تحب أن تمضي في تسخير القانون للأغراض، وتبديد الأموال لشراء صداقة واتقاء عداوة، والبقاء على هذه الفوضى... وكانت «الإذاعة» هاويةً في هذا المنحدر، كلَّ يوم إلى انحطاط، حتى لا يكاد يجد السامع فيها خبراً يسمعه أو حديثاً يفيد منه إلا في الأقل النادر... فإنّا نستعين بالله عليها جميعاً ونعلنها حرباً شعواء تضطرم اضطراماً.

فليحذر القائمون على هذه «الدوائر»[1]، فإنّ تحت يدي حوادث ووثائق وأشياء، لو أذعتها لما تركتهم يتذكرون لذة المنام، ولركبَتهم منها مثلُ الحمى التي تأخذ بالأعضاء والمفاصل. وأنه لأهون عليهم أن يوضعوا على سرير الجرّاح فيُشَرَّحوا أحياء وتُقطَّع لحومهم بلا «بَنْج» من أن أشرح ما عرفته من أسرار هذه الدوائر.

وهذا إنذار من قلم لو وضعتُه على حديد لبراه، ولو سُطتُ به ظهور المَرَدة لتلوَّتْ من تحته المَرَدة، فكيف إن كانت تَمُدّه حقائق تَشين إبليس إن نُسِبَت إلى إبليس؟ وكيف إن كان يحميه هذا الشعب الذي ينطق باسمه ويدافع عنه، ويكرمه أن يهزَأ به

(١) من معاني «الدوائر» المصائب، ومنه قولهم: "دارت عليه الدائرة". أفتكون هذه الدوائر الثلاث ثلاثَ مصائب على الأمة؟!

ويُسخَر من آلامه (ولا يعيش عضو بلدي أو محافظ أو مدير أوقاف أو مدير إذاعة إلا من فضله)؟

إن ما قلناه من قبل كان طلباً وتذكيراً ورجاء، وكان تحية وسلاماً، وهذا الذي نقوله اليوم إنذار!

إنذار لمن يظن جهلاً أن هذا الشعب حارب فرنسا يوم كانت فرنسا أقوى دول الأرض، وشرى بالمُهَج استقلالَه وبالدم وبأجساد الضحايا وأرواح الشهداء، ليترك نفراً من أبنائه يجيئون في آخر الزمان ليُذلّوه ويحتقروه، ويُغَطّسوه في الوحل ويَغُطّوه في الطين.

وما بعد الإنذار إلا قدح النار، والله هو المستعان!

* * *

سَرَفٌ يفوق الوصف

حدثني اليوم السيد سعيد الأوبري (وقد أذن لي بنشر اسمه تأكيداً لهذا الخبر وتوثيقاً له) قال: كنت في محل «ساش موديل»، فجاء رجل ليشتري معطفاً نسائياً، فعرض عليه المعاطف حتى أعجبه واحد منها، فسأل عن ثمنه فقال البائع: ثمنه خمسمئة وخمسون ليرة.

فكاد الرجل يُصعَق وقال: خمسمئة وخمسون ليرة ثمن معطف؟!

قال: أتعجب من ذلك؟ إنني بعت معطفاً للسيد «ك» باثني عشر ألف ليرة سورية.

قال: وما هذا المعطف العجيب؟

قال: إنه مصنوع من جلود الجرذان الأميركية.

هذه هي القصة. وأنا -على معرفتي بصدق الراوي- لا أزال أشك فيها، ولا أصدق أن في الدنيا إنساناً مهماً بلغ من سفاهته وتبذيره يشتري معطفاً باثني عشر ألف ليرة، ولو كان مصنوعاً من خدود الممثلات الأميركيات في هوليود لا من جلود جرادين أميركا!

ولكنْ هذا الذي كان. وسمعت أن السيد «ع د» بنى مَصِيفاً[1] له في لبنان، وجعل حوله حديقة فخمة صنع لها باباً في إيطاليا كلفه خمسة وثلاثين ألف ليرة، وعرضه المصنع هناك على الناس شهراً ليعجّب الإيطاليين من نَفاسته ودقة صنعه وبديع ابتكاره، وأن هذا المَصيف كلف مليون ونصف مليون ليرة.

وأعرف زواجاً بلغ ثمن «الجِهاز» فيه ثلاثين ألف ليرة، وأعرف من ينفق في ليلة من ليالي اللهو على الشراب والحسان وفي سبيل الشيطان خمسة آلاف ليرة... وأعرف من وجوه الإسراف والسّفَه والتبذير ما لا يقلّ عن هذا.

ومن يومين قرأت في «النصر» خبر المرأة التي صَبَّت على نفسها -من فقرها ويأسها- البترول وأشعلت النار فاحترقت هي وأطفالها. وأعرف أسراً لا يدخل عليها في الشهر أوقية لحم، وأطفالاً لا يجدون في هذا البرد ما يستر أجسادهم، ورجالاً كباراً يمرّون بواجهات المخازن وأبواب المطاعم فيقفون مشدوهين كأنهم يرون عجائب ألف ليلة قد صارت حقائق!

وذهبت من يومين إلى قرية صغيرة من قرى الغوطة، فوجدت إلى جنب البيوت الحقيرة الزَّرِيّة قصراً كبيراً، فسألت: لمن هو؟ قالوا: للأفندي. ووجدت هذا الأفندي يملك ٢١٧ فداناً من القرية التي لا تتجاوز أراضيها كلها ثلاثمئة فدان!

---

(١) عامة الناس يلفظونها بسكون الصاد وفتح الياء، وليست كذلك، بل هي بكسر الصاد (نلفظها كما نلفظ كلمة خَفيف) لأنها اسم مكان من صَافَ يَصيفُ، نقول: "صاف بالمكان" أي أقام فيه صيفاً (مجاهد).

هذا ما رأيت وسمعت، وهو مثال صغير من الواقع، أنشره لا لأعلق عليه، بل لأسأل:

(١) هل يجوز أن يبقى هذا الظلم الاجتماعي؟

(٢) وإن كان لا يجوز بقاؤه، فيكف السبيل إلى الخلاص منه؟

وأرجو أن تفتح «النصر» صدرها للأجوبة كما فتحت صدرها -مشكورة- لمن لبَّى طلبي وكتب في تعديل قانون الإيجارات، أما كلمتي أنا فسأقولها بعد[1].

* * *

---

(١) انظر مقالة «بطون جائعة وأموال ضائعة» المنشورة في كتاب «في سبيل الإصلاح»، وقد نُشرت بعد نشر هذه الكلمة الصغيرة بنحو أربع سنين، وفيها أن أربعمئة ليرة تشتري -في تلك الأيام- عشرين ألف رغيف، فاحسبوا كم رغيفاً يُشترى بثمن ذلك المعطف أو ذاك الباب! (مجاهد).

موضوعات «الكلمات»

قال لي أمس صديق لي: من أين تأتي بهذه الموضوعات، كل يوم موضوع، لا مقطوع ولا ممنوع؟

وكنا نازلين صباحاً من الدار، فقلت له: تعالَ معي أقُلْ لك.

وخرجنا من المنزل وهبطنا نقطع طريق الشمسيّة ما بين الجادة السادِسة والخامسة[1]، وكان مملوءاً بالحجارة والحفر،

---

(١) تمتد الطرق على صفحة قاسيون أفقياً واحداً فوق واحد، من سفحه إلى وسطه، ويسمونها «الجادّات»، فما كان منها أقربَ إلى الطريق العام الذي يمشي بحذاء الجبل (ويسمّونه «السكّة») فهي الجادة الأولى، والتي بعدها أعلى منها هي الثانية، وهكذا. وهذه الجادات الأفقية تخترقها طرق عمودية (طلعات) تنطلق من «السكّة» صعوداً إلى الجوادّ العليا، ولكل طَلْعة اسم (وهي ظاهرة في الصورة المقابلة التي التُقطت لجبل قاسيون في أواخر ثلاثينيات القرن الماضي، قبل أن يزدحم الجبل بالعمارات العالية التي أخفت تلك الطرق، فلا تكاد تَبين اليوم وسط غابة العمران الكثيفة).

وقد سكن جدي -رحمه الله- زماناً في بيت في الجادة السادسة في طلعة الشمسية، وهو البيت الذي ذكره هنا، ولم أدركه، ثم سكن في الجادة الخامسة في طلعة المرابط، وهو البيت الذي عرفته وأنا صغير، وكان يطلّ على دمشق كلها ويكشفها إلى وسط الغوطة (مجاهد).

وفي جانبه دَرَج قديم كنا ننزل عليه فخرّبوه ورَكَموا فوقه التراب، ثم إن جاراً لنا بنى له داراً جديدة فأخذ لها قسماً من الطريق، وقلع درجات من الدرج، وأقام جداراً ليكون مدخلاً إلى منزله فسدّ علينا بذلك طريقنا، ولم يقل له أحد «ماذا صنعت» لأن مفتش البلدية لا يصل إلى جادّتنا، وإذا وصل غطوا عينيه بورقة نقد فلا يبصر شيئاً!

وكاد صديقي يقع على وجهه من شدة الانحدار ووعورة المسلك، فصرخ بي: لماذا لا تكتب عن هذا الطريق لتصلحه المحافظة؟

قلت: عُدَّ على إصبعك، هذا أول موضوع.

ووصلنا إلى جامع الشمسية وفيه اللاجئون، فقال لي: إلى متى يبقى هؤلاء اللاجئون في المساجد يتحملون قسوة البرد وآلام الاختلاط، وهل بُنيت المساجد للطبخ والنفخ والمنام والقيام



والحَبَل والولادة؟ إلى متى؟[١]

قلت: هذا هو الموضوع الثاني.

ومَرّ الترام مزدحماً مختلطاً فيه النساء بالرجال قد حُشوا فيه متراصّين متداخلين كأنهم سمك السردين. فقال: لماذا تُراقَب السيارات وتُمنَع فيها الزيادة (ويا حبّذا المنع)، ولا يُمنَع الزحام في الترام؟ ألأنه لشركة أجنبية؟[٢] إن المفروض في الأجانب أن يكونوا أدنى للمدنيّة وأحفظ للنظام.

قلت: هذا موضوع ثالث.

ونزلنا عند جسر فكتوريا، وكانت الساعة التاسعة والنصف تماماً، فوجدنا صفاً من السيارات واقفاً ينتظر فتح الطريق والناس يمرّون، فمررت معهم وعيني إلى شارة المرور الحمراء أسير آمناً ما دمت أراها، فما راعني إلا سيارة فخمة لها رقم أسود[٣] تجتاز مسرعة رغم الشارة الحمراء، حتى لقد كادت تدعسنا[٤] فعجبت من سيرها، ونظرت إلى الشرطي لأشكو له، فإذا هو

---

(١) كانت النكبة الكبرى في فلسطين حديثة العهد يومئذ، وقد استقبلت الشام عدداً من لاجئيها فسكنوا في المدارس والمساجد حتى تهيأت لهم مساكن انتقلوا إليها من بعد (مجاهد).

(٢) كان الترام مملوكاً لشركة بلجيكية في تلك الأيام، شأنه شأن شركة الكهرباء التي مرّ بكم الحديث عنها آنفاً (مجاهد).

(٣) كانت أرقام لوحات السيارات الخصوصية في تلك الأيام سوداء، والسيارات العمومية أرقام لوحاتها حمراء، وبقيت كذلك حتى آخر عهدي بالشام وأنا شاب، ولا أدري ما حالها اليوم (مجاهد).

(٤) الدعس عربي فصيح، أما الدهس (بالهاء) الذي تكتبه الصحف فهو من لغة مالطة!

يقف متأدباً يزجي تحيّاته واحترامه لراكب السيارة، وهو يقول: تفضلوا سيدي، مع السلامة سيدي...

فقال لي صاحبي: ألا ترى؟ إلى هنا وصل الالتماس؟ ألا تكتب في ذلك إلى مدير الشرطة الحازم القوي؟

قلت: بلى، وهذا هو الموضوع الرابع.

واجتزنا الجسر، فسمعت حديثاً عالياً ينطلق عبر الشارع بلغة عامية سوقية عن فِلْم بوليسي كان أمس في سينما عائدة، فنظرت، فإذا الحديث بين شرطي النقطة وزميل له على الرصيف. إي والله! قلت: هذا هو الخامس.

وكان كل محل مررنا عليه يصب الماء ويلقي الأوساخ على الرصيف أمامه، لأن الخدم لا ينظفون هذه المحال إلا وقت الضحى فيوسخون الشوارع ويؤذون الناس. قلت: هذا هو السادس.

وكان لي قريب في الحارة الضيقة إلى جنب محطة الحجاز، فدخلت أزوره، فلم أستطع السير لأن أحد سكان الحارة قد ملأها كلها بحجارة البناء وبالرمل والحصى، ثم وضع فوق أكوام الرمل التي تعلو أكثر من متر قطعاً من الحطب، جذوع أشجار لم تكسر لا يقل وزن إحداها عن نصف قنطار، وكان الأطفال يمشون تحتها، ولو تحرك الرمل أو نزل عليه المطر فانهار لهوت واحدة منها فقتلت من يكون تحتها.

فقال صاحبي: أين المحافظة؟ ألا يصل مفتّشها إلى هذه الحارة أيضاً وهي في لب البلد؟

ولما جئنا نخرج وجدنا طُنْبُرَين قد سدّا الطريق، إي والله، وما كتبت في هذه الكلمة إلا الذي رأيت. فعلقنا ولم نستطع الخروج إلا بعد أمد طويل، وبعدما تلطخت ثيابنا بالزيت من دولاب الطنبر[1].

* * *

قال صاحبي: الآن عرفت من أين تأتي بالموضوعات!

قلت: ولكني خسرت من أجلك سبعة موضوعات كنت أستطيع أن أكتب منها سبع كلمات.

* * *

(١) الطُّنبُرُ عربة ذات دولابين أو أربعة يجرها بغل أو حمار (مجاهد).

من هنا ينشأ الفساد

كتب إليّ «أحدُهم» ينكر على الأطباء انفرادَهم بالمريضة ذات الجمال والشباب وإغلاقهم عليها الباب، مع أنهم بشر وفيهم غريزة البشر، ولا يؤمَن إن لم تمتدّ اليد أن تميل النفس، وإن لم يكن «شيء» أولَ مرة أن يكون «الشيء» المرةَ الثانية. وإن النبي وهو الصادق المصدق يقول: «ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما»[1]. لم يستثنِ من ذلك أحداً ولم يخصّص أحداً، بل نكّر وأطلق فدخل في كلامه الأطباء وغير الأطباء.

وهذا صحيح، ولكن لو لم يرسل أحدُهم بنتَه وحدها إلى الطبيب أو امرأته أو أخته، أكان يخلو بها الطبيب؟

فإن لُمْتُ الأطباء مرة لمت الآباء والأزواج ثلاث مرات، لأنهم هم المسؤولون عن كل ما نرى من فساد. ولولا غفلة الناس عن أموالهم ما سرق اللصوص أموال الناس، ولولا نوم الرعاة عن شياههم ما أكل الذئب شياه الرعاة، ولولا تقصير الأولياء -من

---

(١) من حديث عمر، وفيه: «ألا لا يخلوَنّ رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان» أخرجه الترمذي، وفي رواية لأحمد: «لا يخلون أحدكم بامرأة فإن الشيطان ثالثهما»، وله شواهد كثيرة بمعناه في الصحيحين وكتب السنّة (مجاهد).

أزواج وإخوة وآباء- في حسن القيام على نسائهم ما عدا الفاسقون على النساء... فإذا أردتم أن تمسكوا المسؤول عن فساد المرأة فعليكم بالرجل!

فتّشْ عن الرجل، لا تفتش عن المرأة، فالمرأة هي الضحية أبداً.

إن المرأة لم تبدأ الرجل المغازلة قط، ولكن هو الذي يبدأ. إنه لو أحسن الأب تربية ابنته على الدين والعفاف والكرامة وعزة النفس، ولو قبل الخاطبَ الكفء الصالح، فلم يجعل الزواج صفقة تجارية ولم يجعله مباهاة ومكاثرة وتظاهراً، ولو قام كل رجل بحق امرأته، فلم يتركها وحيدة في الدار ويذهب ليستمتع بصحبة إخوانه أو القعود في قهوته أو العكوف على لهوه، بل أخذها معه حيثما ذهب وأمتعها بكل ما يمتع به نفسه، ولو عرف كل أب وكل زوج وكل أخ أين تذهب بنته أو امرأته أو أخته، ومن تلقى في السوق، وبمن تجتمع في الكلية، وكيف تدخل على الطبيب، وكيف تشتري من المخزن، ومن يصحبها في الرحلة المدرسية... وقدّر ما ينشأ من ذلك من خير أو شر فوقاها شره ولقّاها خيره. لو صنع ذلك الرجالُ لما كان هذا الفساد في البلد.

فيا سيد «أحدهم»: إنه لا ينفع الكلام مع الأطباء ما دامت المرأة راضيةً وما دام وليّها راضياً، فعليك بأولياء الفتيات، فإن أصلح كل منهم داره صلحت حال الأمة كلها.

وإلا فكَبِّرْ عليها... كبِّرْ، كبِّرْ!

* * *

مواعيدنا!

كنت أمس على مكتبي أعمل، فسمعت صوتاً هائلاً كأنه صوت رجل يصرخ في الحمّام، يقول: السلام عليكم. فرفعت رأسي، فإذا أمام وجهي بطن الرجل وكأنه بطن فرس ضخم من أفراس البحر، أما رأسه فكان في نصف المسافة بيني وبين السقف! ومد إليّ يداً كالمِخباط[1] يصافحني، فتعوذت بالله وتلفّتُّ حولي أفتش عن مهرب أو مُعين، فلم أجد، فاستسلمت ودعوته إلى القعود.

فعمد إلى أكبر كرسي في الغرفة فلم يستطع أن يدخل فيه، فلبث واقفاً وعرض حاجته، وإذا هو يدعوني إلى اجتماع للمصالحة بين أخوين من إخواننا. ولم يكن من عادتي إجابة مثل هذه الدعوة، وهممت بالرفض، لولا أني قست بعيني طول الرجل وعرضه وارتفاعه، فآثرت السلامة ووعدته.

قال: أين نلتقي؟

قلت: هنا، في الساعة الثانية.

ورضي بذلك، وولّى ذاهباً وكأنه عمارة تمشي!

---

(١) كلمة عربية، وهي اسم آلة من «خبط».

وذهبت لحاجة لي، ورجعت في الموعد فوجدت المحكمة مغلقة، فاضطررت أن أقف على الباب، والناس ينظرون إليّ، يعرفني بعضٌ فيسلّم عليّ ويسألني أو يدعوني إلى داره، ويجهلني بعضٌ فيقول لي: "ما في أحد، سكّرت المحكمة". فلا أردّ عليه، وأنا واقف أتململ من الضجر، أرفع رجلاً وأضع رجلاً وأُقبل مرة وأُدبر أخرى، أنظر من هنا ومن هناك، فكلما رأيت من بعيد شيئاً كبيراً أحسبه صاحبي، فألقاه جملاً عليه حطب، أو حماراً فوقه تبن، أو تاجراً من تجّار الحرب الذين انتفخوا من كثرة ما أكلوا من أموال الناس... حتى مضت نصف ساعة، وأحسست النار تسري في عروقي غضباً منه ومن نفسي أنْ لِنتُ له ولطفت معه.

وذهبت إلى الدار وأنا مصدوع الرأس من تأخُّر طعامي واضطراب أعصابي، فلم أقدر أن آكل، فألقيت بجسمي على الفراش. فلم أكد أغفي قليلاً حتى سمعت رجّة ظننت معها أن إسرافيل قد نفخ في الصور وأن الأرض قد زُلزلت زلزالها وأخرجت أثقالها، فانتبهت مرعوباً، فإذا أنا بصاحبي الهائل قد أدخلَته البنت عليّ من غير إخبار ولا استئذان.

ونفخ الرجل من التعب كأنه قاطرة قديمة من قاطرات ما قبل التاريخ وقال: "هيك يا سيّدنا؟ ما بتنتظر شويّة؟ شو صار؟ حَمّل الحج؟[1] الإنسان مُسيَّر مو مُخيَّر، والغائب عذره معه، والكريم مسامح..." وأمثال هذا الهذيان!

---

(١) تعبير عامي متداوَل في الشام يقولونه لمن يستعجل الأمر، ولعله جاء من استعجال الحجاج لإدراك المَحْمِل، الذي كان تجهيزه والخروج به إلى ظاهر دمشق هو الإعلان الرسمي عن انطلاق قافلة الحج (مجاهد).

ولا أريد أن أكمل القصة، وإن كانت خاتمتها كلمة حق مني خلطت طول الرجل بعرضه، وأذهبت جبروته، وجعلته كبالون من بالونات العيد نَكَشْتَه بدبّوس! ولكن أريد أن تنتبهوا -أيها القراء- إلى هذا الكلام الذي قاله، فهو منطق الكثرة من أهل هذا البلد، وأن تلاحظوا هذا الوعد لأنه الوعد الأصيل للجمهرة من هذا الشعب.



لا يؤمن أحدكم...

أنا مشغول الفكر دائماً، ففي النهار شواغل المحكمة ومشاكل الأيتام والكلية الشرعية وشؤون الحج وأمور الأوقاف، وفي أوقات الراحة الأحاديث والخطب وكلمات «الأيام» والنظر في الكتب، فلا أصل إلى الفراش إلا وقد طُحنت طحناً، ولا أستطيع أن أغفي إلا في أواخر الليل.

فتصوروا حالي اليوم وقد أيقظتني من الساعة الرابعة صباحاً أصوات طخطخة هائلة توقظ الموتى: "طخ، طخ، طخطخ، طخ..." فوثبت مذعوراً وقد ضخّم النعاسُ هذه الأصوات في أذني حتى حسبتها غارةً هذه قنابلها، وقفزت إلى الشرفة أنظر ما الخبر، وإذا جارة لنا بلغ من ذوقها ولطفها ونظافتها وأناقتها أنها لم تستطع الانتظار حتى يطلع النهار، فجمعت أهلها وصعدت السطح تَنْفُض[1] السجّاد قبل طلوع الشمس!

وأنا أعلم أن هذه المرأة لا تريد الأذى لي ولا الضُرّ، ولا لغيري من الجيران، ولكن عيبها أنها حمقاء أولاً، وأنها لم تنظر إلى الأمر إلا بعين نفسها ومن ناحية منفعتها هي، كأنها تعيش منفردة في وسط الصحراء، وكأنها ليس حولها ناس من بني آدم.

---

(١) من العامي الفصيح.

وهذه هي مصيبتنا في هذا البلد: كل واحد منا يعمل ما يعجبه ولا يبالي بغيره، مع أن الدين والخلق والذوق والأدب تجتمع كلها في كلمة واحدة يطبعها ويعلقها كل امرئ في صدر مجلسه، هي «أن تحب لغيرك ما تحب لنفسك».

«لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه»[1]. ولو أن البائع وضع نفسه موضع الشاري لما أحب أن يُخدَع أو يُغبَن، فلا يغبن من يشتري منه. ولو أن الموظف وضع نفسه موضع المراجع لما أحب أن يتكبر عليه ولا أن يُعرض عنه ولا أن يأخذ من كرامته أو من ماله أو من عرضه ليقضي له حاجته، فليعامل من يراجعه كما يحب أن يعامَل. ومن لم يكن يحب أن يعتدي أحدٌ على عفاف ابنته أو يسرق من جسدها اللذة الحرام فلا يَعْتَدِ هو على بنات الناس... ولكن هل يفكر أحدٌ منا هنا إلا في نفسه؟

أخذت أمس الأسرة كلها في نزهة، فمررنا بالعين الخضراء، فأحببت أن أقف فيها وقفة، فرأيت في القهوة ما نفّرني منها وملأ نفسي كراهة واشمئزازاً حتى أطلقت لسيارتي العنان وانطلقت هارباً. رأيت في القهوة جماعة من الشباب معهم دف (دِرْبَكّة) يضربون عليه ويغنون أرذل الأغاني بأبشع الأصوات. إن لهم الحق في أن يطربوا، والنزهات للطرب، ولكن كان عليهم أن يفكروا في سائر من في القهوة: هل يطربهم هذا النهيق الملحَّن من نغمة السيكا الحِمَاري، أم يؤذيهم ويكدّر عليهم مجلسهم؟

---

(١) حديث صحيح مشهور أخرجه الشيخان وأصحاب السنن، وزاد أحمد في إحدى رواياته: «ما يحب لنفسه من الخير» (مجاهد).

والذي يفتح الرادّ إلى آخر مداه يُسَرّ ويفرح. والمرء حر في داره يصنع فيها ما يشاء ليدخل المسَرّة على نفسه، ولكن عليه أن يفكر: إلى أين يصل هذا البلاء؟ وكم بيتاً يدخل؟ وهل فيها مريض أو نائم أو من يستعد للامتحان؟

والمرأة التي تبعث أولادها ليلعبوا في الطريق تستريح هي من شرّهم، ومن حقها أن تطلب الراحة لنفسها، ولكن عليها أن تفكر في هؤلاء العفاريت: ماذا يصنعون بالجيران، بألسنتهم التي تطلق شر الكلام وأعلى الصراخ، وأيديهم التي تقذف الحجارة فتكسر بلّور الشبابيك وأشجار الطريق ورؤوس المارّين؟!

والبيّاعون الذي يصيحون من الصبح من حقهم أن يتكسّبوا، ولكن عليهم أن يفكروا فيمن يؤذيه هذا الصياح. والذين يقفون تحت شبّاكك ويفتحون بينهم باب حديث له أول وليس له آخر، والذي يزورك وأنت مشغول بلا وعد ولا إنذار ويبقى عندك ساعتين... هل يفكر هؤلاء إلا في أنفسهم وحدها؟

* * *

إن الدين والأخلاق والذوق والأدب تجتمع كلها في كلمة واحدة: «أن تحب لغيرك ما تحب لنفسك».

* * *

دروس الحياة

مرّ رجلان على جحا وهو راكب على غصن شجرة والمنشار في يده، وهو ينشر أصل ذلك الغصن، فقال له أحدهما: إن الغصن سينكسر بك يا جحا.

فقال جحا: لا تخف!

قال: يا جحا، اسمع مني خير لك. إنك ستسقط.

قال جحا: امشِ في طريقك.

فقال الآخر: اتركه فإن الحياة أقوى منك على تعليمه.

وعلّمته الحياة هذه الحقيقة الظاهرة، ولكن بالثمن الباهظ، وهو كسر ظهره.

وكذلك الحياة: إنها مدرسة ولكن دروسها المصائب والدواهي وتلاميذها الحمقى والمغفلون. ونحن جميعاً من تلاميذ مدرسة الحياة، لم نتعلم مراقبة السيارات العامة حتى كانت فاجعة دُوما[١]، ولم نتعلم مراقبة الأبنية فكانت حادثة الدرويشيّة، ولم نتعلم إقامة السدود على دجلة فكانت كارثة بغداد، ولم نتعلم الاتحاد والاستعداد فكانت مأساة فلسطين.

---

(١) انظر مقالة «فواجع السيارات» في هذا الكتاب، ص٩٣ (مجاهد).

فهل نلبث أبداً تلاميذَ الحياة لا نتعلم إلا بدواهيها؟ هل نكون دائماً حمقى مثل جحا؟

هل نعيش ما عشنا جاهلين خاملين حتى تأتي الداهية الدّهياء التي لا نتعلم منها شيئاً، لأننا لا نبقى بعدها لنتعلم منها؟

❋ ❋ ❋

أمة الهزل واللهو

روت «أخبار اليوم» أن أحد ملاهي بيروت قد عاقد إحدى الراقصات على العمل فيه عشرين ليلة كل ليلة بمئة جنيه، أي ٨٨٥ ليرة سورية. أي أنها تأخذ في الليلة الواحدة مقدار ما يأخذه الآذن في عشرة أشهر، وما يأخذه القاضي في ثلاثة أشهر، وما يأخذه رئيس المحكمة وأستاذ الجامعة ومهندس الأشغال في شهرين، وما يأخذه عضو المجلس النيابي في شهر، وأن أجرتها في ليلتين تعدل راتب الوزير، وأجرة ثلاث ليال مثل راتب رئيس الوزارة، وأجرة أربع ليال أكثر من الراتب الشهري لرئيس الجمهورية!

فما معنى هذا؟ ما معنى أن شكوكو قد نال من المال والشهرة في خمس سنين أكثر مما ناله محمد كرد علي في خمسين سنة، وأكثر مما نال كل عالم وأديب ومفكر في العالم العربي في عمره كله؟

معناه أننا نهتم بالهَزْل أكثر مما نهتم بالجِدّ، ونحرص على اللهو أكثر مما نحرص على بناء الوطن وإقامة مجده على دعائم العلم النافع والخلق القويم. معناه أننا نهتم بالفن الرخيص الذي يسلي العامة ويثير الغرائز، وندفع ثمنه أغلى بستين ضعفاً من ثمن العلمِ الذي يلقيه أكبر أستاذ في الجامعة.

معناه أننا أمة لا تستحق الحياة!

* * *

هكذا تصنع الأمم الحية

نادى وزير الدفاع البريطاني قومَه وناشدهم الله والوطن أن يزيدوا في صبرهم وتقشفهم واحتمالهم شدّةَ الأيام وشظف العيش، لأنهم مقبلون على أيام سود شِداد.

هذا وبريطانيا لا تزال تعيش إلى اليوم على بطاقات التموين، ولا تزال تحيا حياة الحرب وقد تقضّى على انتهاء الحرب ستُّ سنين[١]، وملك بريطانيا لا يستطيع أن يقيم حفلة كبيرة في قصره لأن مخصّصاته لا تحتمل نفقاتها، ووزراء بريطانيا يلبسون ما يترفع عن لبسه موظفو المرتبة السابعة في بلادنا!

وبريطانيا ذات الحول والطول والعدة والعديد والبأس الشديد، فماذا نقول نحن يا ناس؟ ماذا نقول ونحن مهدَّدون بالنار تشتعل في ديارنا، نار الحرب ينفح فيها على الحدود أعداء الله اليهود؟

ونحن ننفق أموالنا في الكماليات، فيما لا ينفعنا ولا يفيدنا، نأخذه ونعطي به ثمرات أرضنا وحصاد بلادنا؟

---

(١) انتهت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥، ونُشرت هذه المقالة سنة ١٩٥١ (مجاهد).

ونحن ندفع ثروتنا ثمناً لسيارات الترف ولُعَب الأولاد وأحمر الشّفاه، وهذا السم الذي نخرب به أجسادنا وأرواحنا: الشمبانيا والوسكي والكونياك... والبارود الذي ندمر به أخلاقنا وبيوتنا: الأفلام الداعرة والأرتستات؟!

ماذا نقول ونحن نعطيهم مالنا بهذا، فيأخذونه ويعطونه اليهود ليشتروا به السلاح الذي يحاربوننا به؟ ونحن غارقون إلى آذاننا في السَّرَف والترف والرَّفاهة والنعيم؟ ومنا من ينفق ثمن معطف لامرأته خمسة آلاف ليرة، ومن يصرف على حفلة زواج ابنته ألفَي ليرة، ومن يبدد في «ليلته» ثلاثة آلاف ليرة؟!

حدثني أحد الأساتذة أنه كان يقيم لمّا كان في جنيف مع رفيق له في الجامعة معدود من الأغنياء، وكان على باب الرفيق سيارة فخمة، ولكنه يذهب إلى المدرسة على دراجة عتيقة، فسأله، فقال: إنه ليس في بلادنا بنزين وإننا نستورده من الخارج، لذلك أوفر السيارة اقتصاداً في البنزين وحفظاً لمكانة الفرنك السويسري.

وأكد لي هذا الأستاذ نفسه أن سوريا تصرف من البنزين أضعاف ما تصرفه سويسرا، التي استطاعت -على صغرها- إحلال نقدها المحلّ الأول بين أصناف النقد في العالم.

فلماذا لا نأخذ عن الغرب هذه الدروس النافعة، دروس الرجولة والاقتصاد والعلم؟ لماذا لا نأخذ إلا الاختلاط والفساد وما يشكون هم منه ويتمنّون زواله؟

أنا لا أفهم كثيراً في الاقتصاد، ومع ذلك فأنا أدرك بفهمي

القليل أن الأمة التي تشتري أكثر مما تبيع، وتستورد أكثر مما تصدّر، ولا يكون لها برنامج اقتصادي ثابت، يكون مصيرها الإفلاس.

* * *

اقتراح لتيسير الزواج

أريد أن أدع اليوم أسلوب الأديب وأتكلم بلسان التاجر، وأقول كلاماً واضحاً عملياً أرجو أن يكون له أثر ظاهر في الإصلاح إن شاء الله. فيا أخي القارئ، خذ بيدك ورقة وقلماً واحسب: كم في منزلك ومنزل أخيك وعمّك وخالك، ومنازل أقرانك وأصحابك، من الشبّان الذين جاوزوا العشرين ولم يتزوجوا؟

اكتُبْ أسماءَهم، وكم فيهم من غني وفقير، وتقي وفاجر، وظالم وجاهل. اكتب بجنب كل اسم صفته، ثم احسب: كم في هذه المنازل من بنات جاوزن السابعة عشرة ولم يتزوجن؟ اكتب أسماءهن وصفاتهن. ألن تجد في البنات غنيّات وفقيرات وتقيات وفاجرات ومتعلمات وجاهلات، وفي الشبان مثل ذلك؟

وتصور الآن: كم في البلد من شبان وبنات في سن الزواج لم يتزوجوا؟

إن كل شاب له بنت توافقه وتقبل به هي وأهلها، وكل فتاة لها شاب يوافقها ويقبل هو وأهله بها، ولكنها لا تعرفه ولا يعرفها. هذه هي مشكلة الزواج على حقيقتها؛ ليست المشكلة في غلاء المهور لأن ثمانين في المئة من المهور (من العقود التي تُعقَد في المحكمة الشرعية) دون الخمسمئة ليرة وكثير منها دون المئة

ليرة، ولا في تشدد الآباء، ولا في كثرة النفقات، لأن كل شاب يستطيع أن يخطب ابنة رجل يكافئه في المال وفي المنزلة ويقاربه في النظر إلى الأشياء والحكم على الأمور... ولكن المشكلة أنه لا يعرف أين هو الرجل الذي يناسبه.

أليس هذا هو الواقع؟ فما العمل؟

أما أنا فأرى أن هذه المشكلة مثل مشكلة البيوت، فقد كان في الشام منذ زمن ألف دار فارغة يفتش أصحابها عن مستأجر، وألف رجل بلا دار يفتشون عن دار يستأجرونها، ففُتحت المكاتب العقارية في كل حي لتدل المستأجر على الدار الفارغة.

فما هو المانع أن يكون في كل حي جماعة من الكهول الأفاضل المقطوع بأمانتهم وأخلاقهم، ومن الذين يريدون الخير للخير لا للتجارة، فيتصلوا بالشاب العَزَب ويسألوه عن الفتاة التي يريدها، فإذا وثقوا من حسن نيته وصدق عزيمته على الزواج قالوا له: إن طلبك عند فلان. هنا ينتهي عمل هذه الجماعة، ويذهب الشاب فيتصل بالأب ويخطب البنت.

فهل ترون أن هذه الطريقة موصلة إلى الغاية؟ وهل نجد في البلد يوماً من ينتدب نفسه لهذا العمل الذي لا يكاد يقل في فضله عن الزكاة والحج، لأن فيه نصر الفضيلة وحرب الرذيلة وإنشاء جيل جديد قوي خيِّر على طهر وعلى تقوى، ولأن ترك المعاصي مقدَّم على إتيان الطاعات ودرءَ المفاسد قبل جلب المنافع؟

وهل تحمل «جمعية الهداية» مثلاً هذا العبء؟

* * *

مدرسة للزوجات

في سنة ١٩٢٩ أنشأ اليهود في فلسطين مدرسة للزوجات قلّدوا فيها بعض ولايات أميركا، وفي سنة ١٩٣٨ صار عندهم ثمان عشرة مدرسة مثلها، وأظن أن هذا العدد قد زاد الآن أضعافاً مضاعفة.

ومدة الدراسة في «مدرسة الزوجات» سنتان بعد الشهادة الابتدائية، يديرها ويدرّس فيها النساء فقط، تعلّم البنتَ كل ما تحتاج إليه الزوجة الصالحة وربة البيت الراشدة، وتدلها على سبيل إسعاد نفسها وزوجها وحسن تربية أولادها: من شؤون الصحة، صحة الحامل والمرضع والولد وطرق الإسعاف وأسباب الوقاية، إلى شؤون التغذية وأصول الطبخ الصحي ومعرفة صنع اللبن والزبدة والفَرَانيّ (الكاتو) وأنواع الحلويات والمربَّيات والمخللات والمجفَّفات، إلى شؤون الخياطة والرَّفْو (الرَّتي)، إلى شؤون الإدارة المنزلية وتنظيم موازنة الدار وإدراك وجوه الاقتصاد... وتعلمها ما هو أهم من ذلك كله وأجدى على الزوجين، وهو النتائج العملية المنظَّمة لمباحث الأدباء وعلماء الاجتماع ومشاهَدات المحاكم في درس الخلافات الزوجية والوقوف على أهم أسبابها ووسائل حلّها، وما تصنع الزوجة إن كان زوجها شرساً أو بخيلاً أو سكّيراً أو فاسقاً، أو كان يحب

الكسل ويكره العمل، وكيف تعدل به عن طريق الشر وتعود به إلى جادة الخير.

وفي العراق مدارس تشبه هذه، هي مدارس الفنون البيتية، وفي مصر قريب منها. ولو جرّبت وزارة المعارف افتتاح مثلها في الشام لساعدَت على الإصلاح وعلى حل المشكلة الأخلاقية، لأن الزواج هدف كل بنت وغاية مأملها، ولا تكون -على الغالب- معلّمة أو عاملة إلا عند يأسها من أن تجد الزوج الموافق، ولأن الشباب قد انصرفوا عن الأميات الجاهلات ولكنهم لم يجدوا في المتعلمات الزوجات الصالحات... ذلك لأن مدارس البنات كلها معامل لصنع المعلّمات والمحاميات والقابلات والأديبات، وليس فيها مدرسة واحدة لصنع الزوجات!

وماذا ينفع الزوجةَ ما قرأته من الكيمياء العضوية والجبر العالي وأدب المتنبي؟ أتطبخ الفاصولياء على الكيمياء، وتحاسب الخيّاطة على الجبر، وتُسمع زوجها كل يوم مقطوعة من شعر المتنبي تصدع بها رأسه كما يصدع النائب العتيق رؤوس أعضاء الجمعية التأسيسية؟

إن مثلنا مثل الأب الذي قال للخاطب: إن ابنتي تعرف الجيولوجيا والبيولوجيا، فولى الشاب هارباً وهو يقول: لا يا عم، إنني أريد بنتاً تعرف الطبخولوجيا والكنسولوجيا!

فيا وزارة المعارف، إننا نرجو من مدارس البنات أن تُعِدّ لنا زوجات صالحات.

* * *

الموظفون والإضراب

لكل شاعر -كما يقول العرب- شيطان. والكتّاب إخوان الشعراء، لهم مثلهم شياطين! وأنا أحس اليوم أن شيطاني يريد الشرّ بي، لأني كلما فكرت في موضوع أكتب فيه كلمة اليوم ردّني إلى هذا الموضوع الخطير الذي لا أدري كيف أبدأ به ومن أين أدخل إليه.

إنه يريد أن يسلك بي بين الشوك ويترك الطريق الواضح، فكيف أدخل بين الأشواك وأخرج سالماً؟ كيف أستطيع أن أكتب عن إضراب الموظفين وأنا موظف مثلهم، فأقول ما أراه الحق، ولا أخرج على إجماعهم ولا أتعرض إلى غضبهم؟

وهل لي بهذا الغضب طاقة؟ وهل أقدر أن أحارب جيشاً فيه ثلاثون ألف مقاتل؟ أعوذ بالله! وهل أنا إلا واحد منهم؟

وهل أنا إلا من غَزِيَّةَ إن غَوَتْ غويتُ، وإن تَرْشُدْ غَزِيّةُ أرشُدِ؟

ولكني أحب أن أسأل همساً (كيلا يسمع الموظفون) هذا السؤال الذي يتردد في نفسي؛ أحب أن أسأل: إذا ظلمت الحكومة الموظفين، فما هو ذنب المراجعين المساكين أصحاب المصالح حتى ينتقموا منهم هم؟ وهل نحن في ذلك إلا كما قالت

العرب في أمثالها: «كالثور يُضْرَب لمّا عافَت البَقَرُ»[١]؟ أو كما تقول العامة: «عجز عن حماته فانتقم من امرأته»؟! أو كما صنع قراقوش حين رُفعت إليه دعوى بأن رجلاً قلع عين الآخر، فلما أقبل ليقلع عينه على قاعدة العين بالعين قال المجرم: إنني حائك أضرب النول من الجهتين وأحتاج إلى العينين، وجاري صيّاد لا يحتاج إلا إلى عين واحدة ولا يزال يغمض الأخرى، فإن رأيت أن تقلع عينه بدلاً عني؟ قال: صدقت، وجاء به فقلع عينه![٢]

إن الظلم لا يُدفَع بالظلم، وإذا ظلمتنا الحكومة أو ظلمَنا المجلس فلا يجوز أن نظلم نحن الناس ونعطل مصالحهم هذا الأمد الطويل، وكان يُكتفَى بإضراب يوم واحد ندل فيه على قوتنا ونؤيد به حقنا، أما استمرار الإضراب إلى ما شاء الله فهي سابقة أخشى أن تكون خطيرة على كياننا وعلى استقلالنا.

ولكن ما لي أنا ولهذا كله ما دام الناس راضين والحكومة راضية وما دمت أنا موظفاً من الموظفين؟ ما لي ولهذا؟ لعن الله الشيطان.

* * *

---

(١) في «جمهرة الأمثال» لأبي هلال العسكري: يُضرَب هذا المثل للرجل يؤخَذ بذنب غيره، وأصله أن البقر تَرِدُ الماء فتمتنع من الشرب، فيُضرَب الثور ليتقدم حتى تتبعه البقر فتشرب (مجاهد).

(٢) كان قراقوش مهندساً عسكرياً من أوفى وأقدر أصحاب صلاح الدين، وقد دسّ هذه الأخبارَ عليه زميلُه وخَصمه ابن مَمّاتي، فاشتهر الافتراء ونُسِيَت الحقيقة.

في الترام

ركبت أمس -لأصعد إلى المهاجرين[1]- الترامَ النازل، فلما وصل إلى «المرجة» أقبلت امرأة عجوز لتركب، فصرخ بها السائق: مو رايح، انزلي، مو رايح.

قالت: والله صار لي ساعة وأنا واقفة، ما كنت ألقى محلاً في الترام القادم من الحميدية[2]، وإني أدفع الأجرة من هنا إلى الحميدية.

قال: انزلي بلا كلام فارغ!

فنزلت، وصعد كهل يحمل صرة، فقال له: انزل.

قال: لماذا أنزل؟

قال: إذن هات أجرة.

قال: من هنا إلى الحميدية؟

قال: نعم، هات!

---

(١) حي المهاجرين على سفح قاسيون. انظر فصل «منشئ حي المهاجرين» في كتاب «دمشق» (مجاهد).

(٢) سوق الحميدية المشهور، وبينه وبين ساحة المرجة نحو نصف كيل يمشيها الماشي في عشر دقائق أو نحوها (مجاهد).

فدفع، وسار الترام فتعلق به شاب قوي، فنظر إليه الكمساري فقال له: لماذا تنظر إلي؟ أما أعجبتك، أم أنك تريد أجرة من هنا إلى الحميدية؟

قال: لا، لا أريد شيئاً.

وبقي راكباً، وأنا أنظر صامتاً.

ووصل إلى الحميدية، وكان الناس ينتظرون في وسط الطريق (لأنه ليس للترام محطات لها رصيف كما هي المحطات في مصر وكما تكون في كل بلاد الناس)، فأقبلوا ليركبوا، فنقل الكمساري الباب ورفع الدّرَج وقال: دوروا من الجهة الأخرى. فلما ذهبوا ليدوروا مشى الترام، فتعلّقَ بعضهم وركض بعضٌ، فكادت تسحقهم السيارات، وامتلأ الترام حتى لم يبقَ فيه مكان. ومشى، فلما وصل إلى المرجة إذا أمام العدلية حشد من الناس


ترام المهاجرين أوائل الخمسينيات

ينتظرون من ربع ساعة (لأن الشركة تنقص الحافلات في ساعات الازدحام وتزيدها في ساعات الفراغ)، فكان تزاحمٌ وتراصّ، وصعد هؤلاء الناس كلهم، واختلط النساء بالرجال بالأطفال، وتداخلت الأرجل وتقابلت الوجوه وتلامست الرؤوس!

فلما وصل إلى الطاووسية صعد إليه مثل أولئك عدداً، وكان فيمن صعد رجل يبدو عليه أنه من أغنياء الحرب، له طول وله عرض، فزاحم وهاجم حتى صعد، ووقف في الباب فسَدَّه * كله حتى ما تستطيع أن تمر منه قطة من تحت ولا عصفور من فوق! واتكأ بهذا الجبل من الشحم واللحم على كتف رجل قاعد حيال الباب، فجعل الرجل يتململ ويتحرك والبلاء نازل عليه والكابوس جاثم فوقه، حتى ضاق صبره فقال: انتبه يا سيد، لقد سحقتني. فنظر إليه من عليائه وتأمّله كما يتأمل الصبي نملة، وقال له: إذا لم يعجبك خُذ سيارة خاصة.

واحتدم الجدال حتى حال بينهما الركاب وتمّت الهدنة، وانتقل «الفيل» فوقف في وسط الترام والركاب من حوله كأنهم بيوت القرية وهو مئذنة الجامع! وأرخى يديه، فكلما اهتزّ الترام مال، وكلما مال إلى جهة جَدَّت له فيها ضحايا، فمِنْ قدم داس عليها بهذا الثقل، ومن رجل نزل على كتفيه، ومن ولد دعسه، ثم كانت الطامّة إذ وقف الترام فجأة، فسقط فوق امرأة مسكينة كما سقط «كوكب الشرق» في بيروت منذ عشر سنين[1].

---

(١) كان «كوكب الشرق» مقهى مشهوراً في ساحة البرج في بيروت، وانهار على رؤوس مرتاديه في أحد أيام سنة ١٩٣٤ (مجاهد).

وبعد، فهذه صورة تتكرر كل يوم أحببت أن أطرف بها من يملكون الأمر والنهي وأسلّيهم بتلاوتها، وأنا أثق أنهم سيرون فيها شيئاً جديداً لا يعرفونه، لأن القدر لم يكتب عليهم أن يدخلوا هذا السجن الخانق الذي اسمه «الترام»!

* * *

لغتَكم يا قوم!

لي بنت في الصف السادس جاءت أمس تعاونني في ترتيب مكتبتي، فوجدت كتاباً في القواعد كانت تقرأ فيه أختها من خمس سنين، فقلت لها: خذي هذا الكتاب فاقرئي فيه.

فقالت: أنا في الصف السادس وهذا الكتاب للصف الرابع، فماذا أستفيد منه؟

قلت لها: تتذكرين به ما قرأت من سنتين

فأخذته، وغابت ساعة ورجعت تقول: بابا.

قلت: نعم؟

قالت: إن فيه أشياء لم نتعلمها.

قلت: كيف؟ وهو كتاب الصف الرابع، وأنت في السادس؟

قالت: خذ وانظر.

فأخذت ونظرت، وقابلت: اقرأ باب المرفوعات هنا وباب المرفوعات هناك، وباب النواصب هنا وباب النواصب هناك... فوجدت عجباً لا يكاد يُصدَّق؛ ما كان التلاميذ يتعلمونه في الصف الرابع من خمس سنين أوسعُ وأعمق مما يتعلمه التلاميذ في الصف السادس اليوم.

ورجعت أتذكر ما كنا نعلّمه في سنة ١٩٣٥ مثلاً، لمّا كنت أشتغل بالتعليم الابتدائي، فوجدت ما هو أعجب. إن الذي كنا نعلّمه التلاميذَ في الصف الخامس الابتدائي من ربع قرن أكثر وأوسع مما يتعلمه تلاميذ الصف التاسع اليوم، فإذا رجعت إلى ما كنا نتعلمه نحن وقرنته بما يقرأ في هذه الأيام لم تجد إلى المقابلة من سبيل.

دخلنا المدارس الثانوية أوائل عهد الانتداب، فكنا نقرأ الجزء الرابع من «الدروس النحوية» (المعروف باسم «قواعد اللغة العربية») في أول سنة من سني الثانوية، فخبِّروني: كم من المدرّسين، فضلاً عن التلاميذ، يستطع الآن أن يقول إنه مُلِمٌّ بكل ما في هذا الكتاب وإنه يستحضر جميع ما فيه؟

وكان أستاذنا الجندي -رحمه الله- قد حفّظنا سنة ١٩٢٥ قصيدة للمتنبي، ثم عاد من الدرس القادم فقال لنا: دعوا هذه القصيدة، فإنه لا يجوز لكم أن تحفظوا أشعار المولَّدين لئلا تفسد مَلَكتكم! وراح يحفّظنا من أشعار الجاهليين والإسلاميين التي يُحتَجّ بها في اللغة. فماذا يحفظ اليومَ التلاميذ؟

* وكنا إذا أردنا تسلية قرأنا «العقد الفريد» وأمثاله، حتى «الأغاني» قرأته بطوله أنا ورفيقي سعيد الأفغاني، عميد كلية الآداب، ونحن في الصف السابع، فماذا يقرأ الطلاب اليوم؟

وكنا نستحي ونحن تلاميذ أن تجري على ألسنتنا لحنة في تلاوة أو خطبة، أو نسمعها من أستاذ في المدرسة أو من خطيب في النادي. فخبّروني: كم من الرؤساء اليوم والوزراء، بل كم من المدرسين والأدباء مَن يقرأ ويتكلم فلا يلحن؟

ألا تعجبون إذا سمعتم رجلاً فرنسياً مشهوراً يخطب فيلحن بالفرنسية، أو إنكليزياً يلحن بالإنكليزية؟ فلماذا لا تعجبون من عربي كبير لا يعرف لسان العرب كما تعجبون من فرنسي لا يعرف لغة فرنسا؟

يا أيها الناس، إن العربية في خطر. إن اللغة هي عماد القومية التي تتغنّون بها وتدّعون الانتساب إليها، فكيف ينتسب إلى العروبة من لا يعرف لغتها؟ كيف يكون من أمّةٍ مَن لا يحسن النطق بلسانها؟

العربية يا أيها الناس في خطر، وإذا بقينا ماشين في هذا الطريق عشر سنين أخرى صرنا كلنا من العوامّ، ولم يبقَ فينا من يعرف لغة القرآن!

* * *

العدالة الاجتماعية

قالت «نصر» الإثنين الماضي إن الحكومة جادة في تنزيل الرواتب الكبيرة. فإن كانت جادة حقاً عازمة على التوفير راغبة في الإصلاح، فالطريق هو النظر في جدول الرواتب من أساسه، فإن فيه المظهر الأكبر لهذا الظلم الاجتماعي الذي عزمنا -بإذن الله- على محاربته في هذه الزاوية، لأنه أقرّ قاعدة لم تكن قبله ولا تُسيغها طبيعة هذا الشعب العربي المسلم، حين أنزل الحد الأدنى للرواتب إلى ثلاثين ليرة ورفع الحد الأعلى إلى خمسمئة، ففتح بينهما ثغرة مخيفة تدخل منها الشيوعية والنقمة على الحياة والإخلال بالأمن والسلام.

وأنا أفهم أن يكون راتب القاضي أكبر من راتب الآذن[1]،

---

(١) ويسمّونه في المملكة والخليج «الفرّاش». و«الآذن» كلمة صحيحة فصيحة قديمة جداً، فقد ورد في «البيان والتبيين» و«عيون الأخبار» وسواهما من المصادر أن جماعة وقفوا بباب عمر وفيهم الأقرع ابن حابس وعُيَينة بن حصن وآخرون من الأشراف، فخرج «الآذن» فقال: أين صُهيب؟ أين عمّار؟ أين سلمان؟ فتغيرت وجوه القوم، فقال سهيل: لِمَ تتغير وجوهكم؟ دُعوا ودُعينا فأسرعوا وأبطأنا، ولئن حسدتموهم على باب عمر لَمَا أُعِدَّ لهم من الآخرة أكثر.

وقد كان يكفي للشاهد أن أقتطع جزءاً من القصة، لكني نفست=

لأن تكاليف حياته أكثر ونفقاته أكبر، ولكني لا أفهم كيف لا يقدّر واضعُ القانون أن الآذن بشر له عيال، وأنه يستحق هو وعياله أن ينالوا ما يَدفع عنهم الجوعَ والبرد والمرض. وكيف يعطيه أقل من ثمن الغذاء والكساء والدواء؟ وكيف يكلف الحارس والآذن وأمثالهما أن يأتوا بالمعجزات (وقد ذهب عصر المعجزات) فيعيش أحدهم هو وأسرته بأقل من مئة ليرة في الشهر ثم لا يسرق ولا يرتشي ولا يسأل الناس إحساناً؟ وكيف تُغدَق بعد ذلك الأموال على الموظفين الكبار بلا حساب، حتى صار رئيس مالية المحافظة يقبض ألف ليرة في الشهر، وحتى قرأنا في الجريدة الرسمية أن تعويض التمثيل لوزيرنا المفوَّض في مكان كذا ثمانمئة ليرة في الشهر... فكم يكون راتبه إذن، وكم يبلغ تعويض الاغتراب الذي يصل أحياناً إلى ثلاثة أضعاف الراتب؟

هل يرضى بهذا رجلٌ له دين أو له عقل أو له ضمير؟

وشيء آخر، هو أن الموظف الصغير ينتظر سنتين على أقل تقدير حتى يترفع فيزيد راتبه خمس ليرات فقط، وربما انتظر سنين طوالاً فلم يصل إليها، والموظف الكبير يزيد مرتبه إذا رفع أربعين أو ستين ليرة كل مرة، مع أن الزيادة للأول لحياته ومعيشته الضرورية، والزيادة للثاني للبذخ والترف!

والحق أن نرتفع بالرواتب الدنيا حتى لا يبقى في الدولة راتب أقل من راتب المرتبة الثامنة، وهو سبعون، وإن نهبط بالرواتب

= ببقيتها أن أضحّي بها فسردتها كلها. والقصة في كتاب «أخبار عمر» للطنطاويّين، علي وناجي، رحمهما الله (مجاهد).

العليا حتى يكون أكبر راتب في الدولة ثلاثمئة، وأن تكون علاوة الترفيع سائرة على أسلوب عادل، فكلما صغر الراتب كبرت العلاوة، وأن يلغى تعويض التمثيل وتلغى السيارات إلا للوزراء والأمناء، ويحدَّد تعويض الاغتراب لموظفي الخارجية -مثلاً- وتعويض المحاضرات في كليات الجامعات تحديداً معقولاً.

وليس هذا صعباً ولا يحتاج إلى مال كثير، لأن ما يوفَّر من رواتب الموظفين الكبار ومن مظاهر السرف والترف ومن أجور العمارات ونفقات الحفلات، وما يُختصَر من المِلاكات، يكفي لإسعاف الموظفين الصغار وتمكينهم من الحياة.

بهذا، لا بفتاوى مشايخ الأزهر ولا بتصريحات باشا الجامعة، تحارَب الشيوعية وتُدفَع الإباحية، وتُنشَر في الناس العدالة الاجتماعية.

* * *

هذه العادة القبيحة!

لما كنا مدرّسين في ثانويات العراق من خمس عشرة سنة دخلنا يوماً مطعماً فخماً في بغداد، فلمح صديقي الأستاذ عبد المنعم خلّاف لوحة معلقة بالجدار كُتب عليها: «لا تبصق على الأرض». فغضب غضباً ما رأيته قط غضب مثله، وعنّف صاحب المطعم أشد التعنيف على قلة ذوقه وكثرة جَفوته، حين يجعل مثل هذه اللوحة البشعة قِيد[1] أبصار الآكلين.

ورأينا -بعدُ- هذه اللوحات في كل مكان، فسألنا فعرفنا أنها إحدى الوسائل التي اتخذتها مديرية الصحة لمكافحة هذه العادة الملعونة.

هذا وقد غضب الأستاذ من رؤية اللوحة في بغداد قبل خمس عشرة سنة، فماذا يصنع إذا زار دمشق اليوم ورأى انتشار هذه العادة فيها؟ ماذا يعمل إذا رأى «حيواناً» من الناس يعملها في المطعم والناس يأكلون، ورأى من يمد رأسه من شبّاك الترام ويبصق على الأرض فيطير الرشاش على من هو وراءه، ومن

(١) تُلفَظ كما نلفظ كلمة عيد، بكسر القاف لا بفتحها كما يصنع عامة الناس. والقِيد هو المقدار من الشيء، أما القَيد (بالفتح) فالحبل ونحوه (مجاهد).

يبصق على أرض القهوة والناس حوله، وفي الطريق، وفي المسجد، وفي المدرسة... وفي كل مكان: «آخ، تفِهْ» بلا ذوق ولا لطف ولا حياء ولا خجل؟!

يعملها الخاص والعام، والشيخ والشاب، والفتى المتأنق والفتاة... ولقد رأيت البارحة فتاة من أجمل الفتيات عملتها -قبّحها الله- في الشارع!

فكيف السبيل إلى مداواة هذا المرض الاجتماعي القبيح؟

إن على المعلمين والوُعّاظ ورجال القلم أن ينبهوا الناس إلى تركها لأنهم هم المرشدون وهم بُناة الأخلاق، وعلى «الصحة» أن تعمل على منعها لأن فيها انتشار الأمراض الفتاكة، وعلى «المحافظة» أن تعاقب عليها لأن فيها تشويه المدينة وتوسيخ شوارعها، وعلى الناس أن يظهروا الاشمئزاز ممن يعملها والاحتقار له، وإفهامه أنه قليل الذوق وأنه ناقص التهذيب.

* * *

الشركة الأجنبية

كنا الساعةَ السادسة من مساء الإثنين الماضي نزور صديقاً لنا في شارع بغداد، فسمعنا من دار جيرانه ضجة وصخباً، فذهبنا نرى، وإذا هي امرأة تلد فتعسرت الولادة، ودُعي الطبيب، وبلغت الحالة حد الخطر وأمست النُّفَساء بين الموت والحياة، فاضطر الطبيب إلى المباشرة بالعملية فوراً، فما وضع مبضعه وشرع بعمله حتى انطفأ النور!

أطفأته الشركة بلا إنذار ولا إخبار، ولولا أن كان أمام الباب بائع شَوَندر عنده مصباح (لوكس) قدّمه إلى القوم لماتت المسكينة.

وهذه واحدة من الحوادث التي تجري في البلد كلما قُطع النور. ولو أنه كان يُقطع مرة في السنة (وهذا كثير) لاحتملنا، ولكنها مهزلة تتكرر كل يوم، فكم مستشفى قُطع النور عنه وتُرك المرضى فيه يعانقون أوجاعهم في الظلام، وكم عرس وكم مأتم، وكم وقفَ ترام والركاب مستعجلون ينتظرون على مثل الجمر، وكم مصنع قُطع عنه التيار ففدحه الخَسار، وكم مدرسة أظلمت فارتاع الأولاد، وكم تضيع في ذلك من أموال وأوقات، وكم اهتزت أعصاب وتألمت قلوب!

فهل في الدنيا شعب بلغت به الذلة أو بلغ به الكرم والتسامح أن يدع شركة أجنبية تتحكم فيه هذا التحكم وتذيقه هذه الآلام؟[1]

خبّروني يا أيها الذين ذهبوا إلى أوربا ورأوا أميركا ومشوا إلى الهند والصين وساحوا في بلاد الله: هل رأيتم في بلد من البلدان -من واشنطن إلى باريس إلى بلاد السنغال والكونغو- مثل هذه الشركة التي لا تستحي ولا تَرْعَوي، ومثل هذا الشعب الذي لا يتحرك ولا يغضب، ومثل هذه الحكومة التي لا تحزم ولا تعزم؟

هل رأيتم أمة تعيش في الظلام في عصر النور، من أجل خاطر شركة أجنبية لا تبالي بها ولا تحترمها ولا تسأل عن رضاها وسخطها؟

إنه عقد بيننا وبين هذه الشركة أن تمدّنا بالنور وألاّ نأخذه من غيرها، وقد عجزت عن الوفاء بما عليها، فلماذا نعطيها مالها؟ لماذا لا نُنذرها ثم نفسخ عقدها؟ ولو أن ملتزماً تعهد بأن يقدم الطعام لتلاميذ مدرسة داخلية ثم عجز، هل ندع الطلاب يموتون من الجوع ولا نشتري من غيره إكراماً له وإرضاء لهواه؟!

إن هذه الشركة كانت (مُذ كانت) رمزَ الاستعمار البشع والاحتكار البغيض، ولم نحبّها يوماً ولم تحبّنا، ولم نرَ منها خيراً قط، فإذا لم تقل لها الحكومة كلمة السلطان فخاطِبوها بلسان المقاطعة، ولتكن مقاطعة شاملة مستمرة قاسية لا تضعف ولا تلين.

---

(١) كانت شركة الكهرباء بلجيكيةً في تلك الأيام. على أنّ الشركات الوطنية لم تكن أحسنَ حالاً كما أخبرَتْنا مِن بعدُ الأيام (مجاهد).

إننا قاطعناها وسيف فرنسا يحميها، فهل نعجز عنها وراية الاستقلال تحمينا؟ إنها كانت تشتري بالمال ضمائرَ البعض، فهل تجد اليوم في هذا الشعب اليقظ الحر من ترشوه وتشري ضميره بالمال؟

* * *

أنا أستأنف

سمعت في الإذاعة الليلة الماضية طرفاً من محاورة «الإذاعة والصحافة والمدرسة» وأيها أكثر عملاً وأبعد في الأمة أثراً؟ وشغلني عن سماع باقيها وَعْدٌ كنت مضطراً إلى الذهاب إليه، وقد فهمت ممّن لقيت من أعضاء المحكمة، «محكمة الرأي العام»، أن الحكم قد صدر لمدّعي الفضل للإذاعة.

وأنا أعتقد أن «المحكمة» قد أخذت ببلاغة محامي الإذاعة وقوة حجته وحسن مرافعته، لا بعدالة قضيته. وأنا -مع تقديري لبراعة المحامي- جئت أستأنف الحكم عن طريق الصحافة، وإن كنت سأخاصم الصحافة والإذاعة وأدافع عن المدرسة.

* * *

أنا لا أنكر أولاً أثرَ الصحافة، ولكن هذا الأثر لا يزال ضعيفاً في بلادنا. أقول لماذا، أم «يزعل» مني إخواننا الصحفيون ولا ينشرون لي؟ تسمحون؟ شكراً. إن ضعف أثر الصحافة عندنا من ضعف صحافتنا وقلّة قرائنا. أما ضعف الصحافة السورية فليس يُنكَر، ولا يزال بينها وبين بلوغ الكمال المرجوّ لها أمد بعيد. وهي ضعيفة بحجمها، ضعيفة بأخبارها، ضعيفة بإخراجها، ضعيفة بالنواحي الفنية والثقافية، ضعيفة في اللغة والأسلوب. أما قلّة

القراء فأمر لا يحتاج إلى كلام، وإن كان من الحق أن نقرر أنها سائرة في طريق الصلاح.

والإذاعة لها أثر قوي جداً لأنها تدخل كل دار ويسمعها الرجل والمرأة، ولكن عمل الإذاعة التوجيهي لا يزال ضعيفاً، ضعيفاً لأمرين: لأنها تُعنى بالطرب أكثر من النفع، ولأن الناس يأخذونها أداة طرب أكثر مما يأخذونها وسيلة انتفاع. وهذا هو «الدَّور» الذي تحدث عنه علماء الكلام قديماً؛ حلقة مُفرَغة لا يُدرى أين طرفاها. الإذاعة تُكثر من الأغاني، حتى الرخوة العليلة المخنَّثة منها، لأن غاية الإذاعة الأولى إرضاء الجمهور، والجمهور يرى ذلك فيعتبر الإذاعة أداة لإرضائه فقط[1].

فالصحافة إذن والإذاعة تأثيرُهما سطحي عابر، أما المدرسة فأثرها عميق خالد، لأمور ثلاثة توفرت لها وخلت منها الإذاعة والصحافة.

أولاً: أن الذي يقرأ الجريدة ويسمع الإذاعة إنسان كبير تكوّنت عاداته وأفكاره وجمدت على صورة من الصور، أما الذي يدخل المدرسة فطفل صغير، نفسه صفحة بيضاء ينطبع فيها ما يطبعه المعلم من خير وشر، وهو غض طري تلويه كما شئت. وقديماً قيل: «العلم في الصغر كالنقش في الحجر»، أما العلم في الكبر فكالنقش على الرمل.

والثاني: أن التلميذ يرى معلّمه هو المثل الكامل والقدوة الصالحة، ويتلقى كل ما يقوله تلقي القَبول والرضا، ولا تقف في

---

(١) رحم الله تلك الأيام؛ لم يكن فيها تلفاز ولا كانت فضائيات (مجاهد).

طريق اقتناعه به حواجزُ وعراقيل، أما الذي يقرأ الجريدة ويسمع الإذاعة فيتلقى ذلك ناقداً محققاً، لأنه لا يؤمن بكمال القائل ولا يحس له ذلك الإجلال، فيقبل من آرائه ما يشاء ويطرح منها ما يريد.

والثالث: أن الذي لا تعجبه الجريدة يتركها أو الإذاعة يغلقها، أما الذي لا يعجبه الدرس فلا يستطيع أن يخرج منه، بل هو مضطر إلى استيعابه وحفظه. فالمدرسة إذن تمتاز بصفة الإجبار على التأثر بها، وليس هذا للصحافة ولا للإذاعة.

والواقع أن تطور الأمم في كل مكان وزمان نتيجة لعمل المعلِّم.

* * *

مصيبة الضجيج

قرأت الآن الخبر الذي كنت أرتقبه من زمان طويل وكنت أتمنى قراءته، وهو أن «المحافظة» قد شكلت ستّ دورياتٍ سيّارةٍ من شرطة البلدية لمنع الضوضاء في المدينة. وأرجو أن يكون الخبر حقيقة وأن لا يكون حرب أعصاب.[1]

حقّقوا الخبر وعجّلوا نسألكم بالله، فإن أمثالنا -ممن يشتغل بدماغه ويعمل بفكره- قد بلغ به الإعياء حالاً أشرف معها على انهيار الأعصاب، فكيف حال المريض المُدنِف، والنائم، والذي يستعد للامتحان؟ كيف يستريح أو ينام أو يقرأ إذا كانت جارته لا يطربها إلا أن تفتح الرادّ على آخره حتى يصل صوته إلى مسافة مئة متر؟ أو كان الحلاق الذي تحته أو بائع المرطِّبات يريد أن يجلب الزبائن بصوت الراد، وأن يكسب ليرتين أو ثلاث ليرات على حساب صحة الناس وراحتهم؟ وشر من ذلك سائق الحافلة (الأتوبيس) الذي يفتح رادّ السيارة ليطرب، فيملؤ صوتُه أذنيه، فلا يسمع نداء الراكب الذي يريد النزول ولا صوت الذي يبغي الركوب، ويزعج كل من يمر به، فتتحول السيارة إلى بلاء سَيّار!

---

(١) راجع مقالة «ارحمونا من هذا الضجيج» والتي بعدها «صيحة شكوى» في كتاب «فصول اجتماعية» (مجاهد).

وهذا المسحِّر؟ أكلما جاء رمضان جديد عدنا نرجو ونتوسل ونلحّ أن تنقذونا من المسحّر؟ ما هذه المصيبة؟ من أين حلَّت بنا؟ الدين لا يأمر بها، والعقل ينكر أن يجيء إنسان فيقوم أمامك وأنت نائمٍ ثم يضرب رأسك بالطبلة! والناس تسعة وتسعون من كل مئة منهم لا يريدون المسحِّر؛ عندهم ساعات، وفي البلد مآذن، ومدفع يطلق للسحور، فما معنى المسحر؟ ولو جاء قبل الفجر بنصف ساعة أو أربعين دقيقة لاحتملناه، ولكنه يجيء من نصف الليل، والله من نصف الليل يا ناس... ألا تصدقون؟

فكيف ننام إذا كان صوت الرادّ يجلجل إلى الساعة الحادية عشرة، ثم يأتي المسحِّر بعد ساعة فنقوم للسحور، فإن نمنا صباحاً جاء البيّاعون الأقلاّء الذوق فنادوا على الحليب من الساعة السادسة؟ ومَن يشتري الحليب في الساعة السادسة في رمضان؟ وعلى زيت الكاز، ومصلِّح البوابير، وزنّار الدوالي، والمُجَلِّخ، وبائع الحمص والعدس... ثم ينتشر العفاريت في الطريق (أعني الأولاد) وتقوم القيامة!

فإذا كان هذا الخبر حقاً وكانت «المحافظة» عازمة على إراحة الناس (جزاها الله -إن صدقت- خيراً) فلتبدأ بالمسحِّر، تخرق طبلته وتمنعه من إيذاء عباد الله المساكين، ونحن مستعدون أن ندفع له الجزية التي يريدها عن يد ونحن صاغرون، بشرط أن يحرمنا من صوت طبلته القوية ومن اجتلاء طلعته البهية!

* * *

مسؤولية الجميع

مررت أمس بصيدلية كبيرة أشتري دواء، فوجدت صفاً طويلاً من المنتظرين والصيدليُّ يقول لهم: "إنه على الطريق، لقد طلبناه من حلب". فسألت، فإذا هم يطلبون «كلورومستين» لأن في دار كل واحد منهم مصاباً بالتيفوئيد، ولما وصل تهافتوا عليه كتهافت الناس على سكّر الإعاشة أيام الحرب، وأخذوا كل حبة منه بليرتين!

وأنا أعرف من أصحابي وأقربائي عدداً ما منهم إلا مصاب بحمى التيفوئيد، ويقول الأطباء إن من أقوى الأسباب في ذلك هذا السم الذي اسمه «الأسكيمو» (وقد سمّوه الآن «ألاسكا»[1]، فبّدلوا منه الاسم وأبقوا على السم)، وأنه -فوق ذلك- يضرب الكليتين بما فيه من «السّكارين» ويؤذي الأمعاء. وقد كَلَّت الأقلام ومَلَّت الألسنة من مطالبة «الصحة» بمنعه، و«الصحة» مريضة بداء الصمم لا تسمع.

(١) كانت هذه في تلك الأيام أسماءً شائعةً لنوع من البوظة (الأيسكريم) مما يُصنَع يدوياً في البيوت أو في بعض المصانع الصغيرة البدائية، يدور به الباعةُ في الطرقات أو يبيعونه في الحدائق والمتنَزّهات. كانت القطعة منه أيامَ طفولتي بنصف فرنك، وقد انقرض اليوم (مجاهد).

فلم يبقَ إلا أن نحذر الناس منه ونطلب سنهم أن يمنعوا منه أنفسَهم وأولادهم، وأن يحموهم من أكله كما يحمونهم من لدغ العقرب وعضة الثعبان، وأن يتصوروا أبداً حمى التيفوئيد أمامهم وكم تكلفهم من الألم والسهر والمال، وأن يحسبوا: هل تساوي اللذة العارضة التي يلقونها عند مص «ألاسكا» هذا الثمن الفاحش؟

إننا نطلب كل شيء من الحكومة: يا حكومة امنعي التبرج والفسوق، يا حكومة نظفي القهوات والسيارات، يا حكومة حاربي الغش والاحتيال، يا حكومة حرّمي أكل «الأسكيمو»... وهذا شأن الأطفال الذين يطلبون من آبائهم كل شيء.

والشعوبُ اليقظة المتعلمة تصنع هي بنفسها ما تريد، ولو أن كل أب راقب بنته لامتنع التبرج، ولو أن كل راكب سيارة احتجّ على وساختها لنُظفت السيارات، ولو أن كل مشتر راقب البائع وأنَّبه لقل الغش، ولو أن الناس قاطعوا بائعي «الأسكيمو» لبطل «الأسكيمو»... فلنجرب أنفسنا في هذه المسألة الصغيرة، ولنمنع أنفسنا وأولادنا من أكل «الأسكيمو» و«الألاسكا»، ولو اخترعوا لها أسماء جديدة بعدد جزر بحر الشمال! حتى إذا نجحنا نكون قد تعودنا على معالجة الأمور بأنفسنا وعلى الاستغناء عن الحكومة.

* * *

بيوت الفقراء

لي صديق من الأساتذة الكبار لا يزال يقول لي: متى تشتري بيتاً؟ فأقول ضاحكاً: عندما أجد ابن حلال يُقرضني ثمنه ويأخذه مني بالتقسيط. جاءني هذا الصديق من شهرين فقال لي: ابشر، لقد اشتريت بما ادّخرته في عشر سنين ثماني قصبات في سرّة الجبل مقابل القصر الجمهوري. فهنّأته وحمدت الله إليه.

ومرّت أيام، وسمع أن بعض أغنياء الحرب اشتروا هذه المنطقة وسعوا حتى قررت «المحافظة» إلحاقها بمناطق القصور ومنع البناء إلا في المساحات الواسعة والحدائق الكبيرة، مع أن الدور القائمة على الجادة صغيرة متلاصقة. فثارت ثائرته وذهب يقابل موظف الشؤون الفنية الكبير، فلم يجده، فعاد الساعة التاسعة، فقالوا: لم يُشَرِّف! ولبث ينتظر إلى العاشرة والنصف حتى شَرّف الدائرةَ بحضوره!

قال: ولمّا دخلت عليه وجدت عنده جماعة من الناس جالسين ينتظرون، ووجدت إلى جانبه رفيقاً له يحادثه وينادمه ويضاحكه ويضرب على فخذه ويحلف عليه أن يبقى، والمراجعون يتقلّبون على مثل الشوك، حتى إذا انصرف الرفيق وعاد الموظف إلى مكانه نظر في وجوه الجالسين، فألفاني أحسنَهم مظهراً، فتنازل فدعا بي.

فعرضت الأمر عليه، وقلت له: إننا تركنا لهؤلاء الأغنياء شارع أبي رمانة والروضة والسبكي وأردنا أن نأوي إلى كوخ في الجبل، فلحقونا ينازعوننا، فأين نسكن؟ أين يقيم الموظف الشريف الذي لا يسرق ولا يرتشي وليس له إلا راتبه؟

فقال: إن المحافظة ستنشئ منطقة للفقراء في، في...

وأشار بيده إلى حيث لا يعلم إلا الله والموظف الكبير الذي يتكلم، إلى الباب الشرقي مثلاً ومقابر اليهود... هنالك فقط يحق لأستاذ الجامعة أن يبني بيتاً يقيم فيه، وللقاضي النزيه وللشاعر والكاتب والعالِم، أما الشوارع الفِسَاح والحدائق الفيح فلأغنياء الحرب وحدهم وللوارثين!

وإلا فيكف يكون للموظف الشريف دار ما دام لا يستطيع أن يبني قصراً من الحجر والرخام، وما دامت المحافظة تمنع البناء باللبن والطين؟ وكيف تأخذ هذه المحافظة أموال الفقراء ثم لا تخدم إلا الأكابر والأغنياء؟

ولماذا لا تسمح لنا الحكومة أن نؤلف «بلدية» أخرى لنا نحن معشر الفقراء، ونحن تسعمئة وتسعة وتسعون في الألف؟ أنبقى إلى الأبد عبيداً للأغنياء وأهوائهم ونزواتهم و«محافظتهم»؟!

* * *

بواخر الحُجّاج

قال لي صديق: لماذا يركب المرء الباخرة إلى الإسكندرية أو مرسيليا أو إلى حيث شاء من بقاع الأرض، فلا يصيب شدة ولا يلقى أذى، فإذا ركب إلى الحج اجتمعت عليه في الباخرة الشدائد كلها والمؤذيات، من الضيق والفوضى وأنواع المكدِّرات؟

قلت: ولا كل هذا يا أخانا. إن بعض ما تقول حق، أفتدري من أين مصدر هذا الأذى؟

قال: من أين؟

قلت: من فئتين من الناس. هؤلاء التجّار الذين يلبسون لباس التقوى ويرتدون رداء الصلاح، فيذهبون إلى مكة كل سنة ومعهم الأحمال الهائلة والبضائع الكثيرة، فيملؤون بها السفينة ويسدّون طرقها ويأخذون رحابها، ويضيّقون على الحجاج واسعَها ويصعّبون سهلها. إنه ليس الحج مقصدهم بل التجارة، وليس ثواب الله غايتهم بل كسب المال... ما شققنا عن قلوبهم ولكن ظاهرهم ينبئ عن باطنهم، وإذا جئنا نمنعهم صاحوا: يا للدين، يا للناس، لجنة الحج تمنع الحج إلى بيت الله! وإذا ألزمناهم ألاّ تجاوز حمولة الواحد منهم مئة كيل (كيلوغرام) نادوا بالويل والثبور وعظائم الأمور!

وهؤلاء الناس الذين لا يركبون الباخرة حتى يحملوا الأسرة كلها، ويأخذوا معهم الفرش واللحُف والبُسُط والوسائد والبوابير والقدور (الطّناجر) وعلب السمن والزيت والملح والعُصْفر والبُرْغُل والرز... ومن كل ما في المطبخ من أنواع وأشكال، فيبسطون البسط على ظهر الباخرة ويمدون الفرش، ويشعلون البابور وينصبون القدور، فيطبخون وينفخون، ويصيحون ويختصمون، ويبكي الصبي وتصرخ العجوز ويغضب الأب، وتقوم القيامة!

إننا لو جئنا بأعظم باخرة في الدنيا وأركبنا فيها هاتين الفئتين لجعلوها -من أول ساعة- أسوأ باخرة في الدنيا. وليست العبرة بالمركب ولكن بالركاب، فخلصني من الفئة الأولى، وعلِّمْ آدابَ السفر الفئةَ الثانية، ولك عليّ أن أجعل لك -بإذن الله- السفر إلى الحج أرْفَهَ وأمتع من السفر من لندن إلى نيويورك!

* * *

اقتراح للمحافظة

مررنا على قصر شامخ الذُّرى راسي الدعائم في شارع (كذا...) الفخم، فقال لي صاحبي: أتدري لمن هذا القصر؟

قلت: وما يدريني؟

قال: لفلان.

قلت: ويحك! أتعرف ما تقول؟ إن فلاناً هذا أفقر من فأر الكنيسة كما يقول الغربيون.

قال: هذه أخبار تاريخية.

قلت: وما الذي بدّل حاله؟

قال: إنك تعلم مكانه من المحافظة، وهو بذلك يعرف المناطق التي سيكون فيها التنظيم، فيسارع فيشتري أرضاً منها أو يبعث شركاء له فيشترون القصبة بعشر ليرات، فإذا تم التنظيم صارت القصبة بخمسين ليرة، فيبيعها، فاجتمع له بذلك المال الذي ملّكه هذا القصر.

* * *

ففكرت في الذي قاله صاحبي فإذا هو صحيح، وإذا أمثال هذا الرجل كثير. ولو لم يكن له أمثال وكان الربح كله لصاحب

الأرض، فما الذي يسوّغ لصاحب تلك الأرض أن تتضاعف ثروته أضعافاً بين عشية وضحاها؟ ما هو الجهد الذي بذله؟ ما هو العمل الذي عمله؟ لماذا يصير صاحب بستان السبكي مثلاً من كبار الأغنياء (ولست أعرف من هو ولا أتكلم عن شخصه) ويبقى أصحاب البساتين الأخرى في كَفَرسوسة أو الشاغور على ما كانوا عليه؟

إن من الواجب على الدولة أن تحول دون هذا الغنى المفاجئ الذي يأتي بلا تعب ولا سبب، فيُفسد أخلاق صاحبه ويزيد نقمة غيره، ويفتح الطريق لضلالات الشيوعية إذ يتوهم ضعاف العقول أن فيها العدالة الاجتماعية، وذلك بسَنّ قانون يوجب على المحافظة قبل أن تنظم منطقة أن تستملكها كلها ثم تبيعها هي، فيكون من ذلك ثمرتان: أولاهما غنى المحافظة وحصولها على المال الذي تُصلح به البلد، وتحقق به مشروعات الإصلاح، وتخفف به الضرائب عن الفقراء والمساكين... والثانية منع هذا الإثراء بلا سبب، وما يتبعه من فساد في الأخلاق وشرور في المجتمع.

فهل تسمع المحافظة هذا الاقتراح، أم أن أذنها عن الخير صمّاء دائماً وأبداً؟

* * *

سيارات الحكومة

رأيت مرة موظفاً كبيراً قد وصل بسيارته الرسمية إلى السَّنْجَقدار نازلاً من داره، فرأى بياع جوز الهند، فاشترى واحدة، واحدة فقط، وأعطاها للسائق ليوصلها إلى الدار في أعلى المهاجرين! وسمعت من أستاذ جليل أن موظفاً آخر مثله كان يبعث بسيارته الحكومية كل يوم من مَصيفه في بلودان إلى الشام[1] لتشتري له أوقيتين من اللحم وكيلين من الخضر، لأن ثمن ذلك في الشام ينقص عن ثمنه في بلودان ثلاثين قرشاً!

وأرى كل يوم السيارات الرسمية تحمل أولاداً إلى المدارس ونساء إلى الاستقبالات والسينمات، ومن ليس له سيارة من صغار الموظفين استعمل سيارات المصلحة، فسيارة الإسعاف الضخمة تذهب كل يوم إلى آخر البلد لتأتي بموظف إلى عمله، ومثلها سيارات المحافظة وغيرها، والسائقون يذهبون بالسيارات الرسمية إلى بيوتهم ويُركبون فيها من يشاؤون من أصحابهم وأهليهم.

ولا أحصي كم مرة كنت أتسلّق فيها الجادّات الست إلى داري في الجبل[2]، فتمر السيارة الحكومية تهبّ هبوب العاصفة،

---

(١) أي إلى دمشق، وتبعد عنها بلودان نحو عشرين كيلاً (مجاهد).

(٢) هذا وهو قاضي دمشق الممتاز، يركب الترام من المحكمة إلى=

تحمل سائقاً إلى بيته أو موظفاً من المرتبة السادسة، فترشّني بالطين رشاً إن كنا في الشتاء، أو تحمل إلى صدري مئة مليون جرثومة في الغبار الذي تثيره في الصيف.

ولولا أنه لا يجوز أن أكتب في الجريدة لقلت إني أعرف من يستعمل السيارات الحكومية فيما هو شر من ذلك كله، فيما يغضب الله والخلق والقانون ولا يرضي إلا الغريزة الحيوانية وحدها!

وأنا أتمنى أن يقف أحد مخبري الصحف في بوّابة الصالحية مثلاً حين ينصرف الموظفون من أعمالهم أو حين يخرج الناس إلى نزهاتهم، ثم ليكتب أرقام السيارات الحكومية التي تمر به وينشر ذلك في الصحف مع بيان من كان فيها، ولتفتح كل جريدة باباً لذلك تذكر فيه كل يوم ما يصل إليه علمها من أخبار السيارات، لعل في هذه الفضيحة دواء هذا الداء الذي لم ينفع فيه علاج.

ولتفوِّض الحكومة هذا الرجل الحازم الذي ولَّته شرطة السير (والذي لا أعرف اسمه ولا شخصه، ولكن عرفته مما أحدث في نفوس السائقين من المهابة له والخوف منه) لتفوّضه في وقف كل سيارة حكومية يركب فيها غير الذي أعطاه القانونُ حقَّ الركوب فيها، ولو كانت امرأته الحبيبة إليه أو ولده المدلَّل عليه!

= السكة (سفح الجبل) ثم يرتقي الجادات ماشياً على قدميه! ولا أذكر منذ وعيت أنه استغلّ منصبه الرفيع ليركب سيارة من سيارات الدولة في غير عمل للمحكمة، ولا حصل في أي يوم من الأيام أن ركب سيارات الدولة أحدٌ من أفراد عائلته فيما أعلم (مجاهد).

إن الناس لم يعودوا يحتملون أن يدفعوا ثمن هذه السيارات ونفقات سيرها وأجور سائقيها ليركبها النساء والأولاد والخدم، ثم ينضحوهم منها بالوحل أو يغطوهم بالغبار ويذلّوهم ويحقّروهم.

إن هذا الذل قد زاد جدّاً، فضعوا له حَدّاً.

* * *

ما نفع الكلام؟

كتب إليّ السيد «ع ق» يقول إن الدار التي تجاور داره من العمارة التي يسكنها في شارع (...) وهو من أكبر شوارع البلد، قد استأجرتها امرأة وجعلتها «محلاً عمومياً» تحشد فيه البنات الصغيرات، تصطادهن بالوعود والحيل، من الفاسقات الفاتنات أو المغفلات الفقيرات ممّن لا مُعيل لهن ولا محامي عنهن، ثم تُدخل الرجال عليهن.

وإنه يرى هذا -وهو الطالب الشاب- فيشعل النار في عروقه، فتحرق عقله، فلا يبقى منه بقية لدرس ولا لامتحان. وهذا تراه أخته الطالبة الشابة، ويراه رجال الأمن، ويراه رجال الدين، ويراه النواب الذين كذبوا على الله وعلى الناس لمّا ملؤوا الدنيا يوم الانتخاب وعوداً وعهوداً بأنهم سيكونون حماة الأخلاق وخُدّام الوطن...

وإنه لم يعد يستطيع الاحتمال، وصار يخشى على نفسه الخطيئة وعلى أخته الفضيحة، وعليهما معاً السقوط في الامتحان والطرد من المدرسة، ويعوذ بي ويلجأ إليّ، ويسألني أن أقول له ماذا يعمل.

أقول لك يا سيد «ع ق» ماذا تعمل؟

إن الشيخ يوسف والد الشيخ بدر الدين[1] لمّا رأى المنكر بجوار دار الحديث، ورأى الأمير عبد القادر الجزائري لا يُعينه على إنكاره، دخل عليه في مجلسه وحوله جلساؤه، فلما صار أمامه في موضع السلام عليه قال: نويت أربع تكبيرات على هذه الجنازة... الله أكبر!

فكبِّرْ أنت أربع تكبيرات على الحكومة، وعلى النواب، وعلى العلماء، وعلى هذا الشعب الذي برد دمه وبلد حسه وضعفت نفسه، حتى صار يرى بيوت الخنا وسط بيوته ودور الفُحش خلال دوره ولا ينكر ولا يبالي!

ماذا تعمل؟ لا أدري، فسل الله. سل الله أن يحرّك هذه الجثث ويعيد إليها حياتها ويردّ عليها نخوتها ويُرجع إليها دينها.

أما الحكومة فلا أمل فيها، وأما النوّاب فلا أسماع لهم، وأما العلماء فقد استنفدوا قواهم في الغضبة التي غضبوها على مرسوم توحيد الكليتين الشرعيتين، وناموا!

وما دام الرقيب هو شرطي الأخلاق، وهو بشر، وهو شاب لا يستطيع أن يمنع نفسه أن تميل إلى الاستمتاع بالجمال، ثم إنه لا يملك سلطاناً إذا هو أعرض عن شيطانه وأحب أن يستعين بسلطانه... وما دام قانون العقوبات الجديد قد جاء على شيعة المجوس ودين القطط: يبيح الزنا، ويجعل عقوبة الزاني بأمه أو

(١) محدّث دمشق الشيخ بدر الدين الحسني، له أخبار في «الذكريات»، وفي كتاب «رجال من التاريخ» مقالة وافية عنه (مجاهد).

بنته حبس شهرين... وما دام الدين عند كثير من الناس رجعية وجموداً وشيئاً عتيقاً... فماذا، ماذا تفيد المقالات وماذا ينفع الكلام؟

آه يا أسفي على دين الإسلام! يا أسفي على أهل الشام!

* * *

شيخ بعمامة!

دعوت مرة إخواناً لي إلى الغداء، فلما أُعِدَّت المائدة وجئت أسألهم القيام إليها قُرِع الباب، وجاء رجل يبدو عليه أنه ليس من أهل دمشق فقال: فلان هنا؟ يريد أحدَ الضيوف. فقلت: نعم، انتظر حتى أجيئك به.

وخبّرت الضيف أملاً أن يعتذر إليه ويصرفه بكلمة طيبة، وإذا به يرحب به ويدعوه إلى داري أنا! وأنا لا أعرفه ولا يعرفه أحد من الحاضرين، فاغتظت، ولكني تجلّدت وسكتّ. وقصدنا إلى المائدة، وإذا بصاحبنا يدع السكين والملعقة والشوكة والطبق الذي خُصَّ به ويأخذ الطعام بأصابعه، لا يدير الخبزة ويجعلها كالملعقة ويغرف بها على الطريقة الشامية، بل يأكل بالأصابع عارية ثم يلحسها إلى آخرها بعد كل لقمة إصبعاً بعد إصبع، ويعود فيغمسها في الطبق الكبير!

ثم رأيته يقف فجأة عن الأكل ويلوي وجهه ويمعره ويغمز بعينه كأنه قرد عجوز ويثب قائماً. قلت: ما لك؟ قال: بيت الخلاء، بيت الخلاء... أريد أن أنقض وضوئي!

وقام -قبَّحَه الله- فنقض وضوءه، ثم عاد إلى الطعام. وانتهى الأكل، ولا تسأل كيف انتهى، وجاء الغسل. وجئتهم بمنديل

(بشكير) أبيض من الحرير الثمين نتخذه للضيوف، وإذا بصاحبنا -لا صحبه الخير- ينزع حذاءه وجواربه النتنة، ويغسل يديه بالماء بلا صابون، ثم يغسل رجليه، ثم يمسح وجهه وأسنانه ويديه ورجليه بالمنديل ويدلك به قدميه دلكاً ويدخله بين أصابعه!

ولا تسأل عن تتمة الرواية، فكل فصولها من هذا الباب.

وأعجب شيء من أمر هذا الإنسان أنه ليس بعالم ولا طالب علم ولا حامل شهادة شرعية ولا صاحب منصب ديني، ولكنه يحمل على رأسه عمامة بيضاء. أتقول: لماذا؟ لأن في البلد حرية، وكل جاهل أو دجّال أو «حيوان» يستطيع أن يذهب إلى السوق ويشتري ذراعين من الشاش الأبيض يلفّها على طربوشه فيصير من أئمة الدين ومشايخ المسلمين، ثم ينسب إلى المشايخ جهلَه وتدجيله و«حيوانيّته»، فيُسَبّون به ويُقال: انظروا، هؤلاء مشايخ المسلمين!

فيا حكومة: إما أن ترفعي عمائم هؤلاء، وإما أن نرفع نحن عمائمنا[1].

* * *

(١) وضع جدي رحمه الله العمامة على رأسه يوم كان قاضياً، لم يضعها قبلُ ولا بعد، وكانت من أرقّ العمائم وأقلها انتفاخاً، لا يلفّ عليها إلا قليلاً من الشاش. من أحب أن يراه فيها فليرجع إلى جزء الفهارس والصور الملحق بالذكريات، ص٢٨٠، وأيضاً إلى ص ١٨٧ في هذا الكتاب (مجاهد).

اقتراحات للإذاعة

أخي الأستاذ يوسف العش: أهنّئك وأهنئ بك، وأرجو منك وأرجو لك: أهنئك بالمنصب، وأهنئ بك الإذاعة، وأرجو منك العمل، وأرجو لك التوفيق.

إن دخولك الإذاعة كدخول نسمةٍ من الهواء النقي غرفةً فاسدة الهواء قبيحة الرائحة مثقلاً جوُّها بالسموم، وشُعاعةٍ من الضوء بيتاً مظلم الأرجاء لا يَستبين الداخل طريقَه فيه. وإن النسمة تنعش ولا تحيي، والشعاعة تبرق ولا تضيء، ولا بد للحياة من طرد سموم الجو وللضياء من تبديد ظلمة المكان.

إن الإذاعة -يا أخي يوسف- تحتاج إلى عصا طويلة في ذَنَبها مكنسة، تضرب بالعصا في أقفية أكثر من فيها، وتكنس آثارهم، ثم تبنيها من جديد بقوم مخلصين لهذا الوطن لا يكون فيهم مشبوه، مثقفين ليس فيهم جاهل ولا دعيّ قفز إلى مناصب أصحاب العلم والشهادة بلا شهادة ولا علم، أشراف ليس فيهم من ينظر إلى امرأة غير نظر المصلحة ولا يدنو منها غير دنوّ الضرورة، ولا يعبث بفتاة غريرة أغرتها الشهرة أو اضطرتها الحاجة أن تعمل في «كورس» المحطة.

ومُرْ مَن معك أن يسمعوا إذاعة يهود. وما والله نقتدي

بيهود، ولكن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها، وقاتل الله زماناً صرنا نضرب فيه الأمثال بيهود! فإنهم لا يزالون ينصرفون إلى الجِد، ويُعِدّون قومَهم لليوم الأسود، ويحمّسون ويعملون كأنهم في ميدان الحرب... ونحن نشتغل بهذه الأغاني الرخوة المائعة السخيفة التي تفسد الجنسين: تُذهب رجولةَ الرجل وفضيلة المرأة.

وأحسِنْ اختيار القرّاء والمحدّثين، فإن أكثر القراء يغنّون ولا يقرؤون، وأكثر المحدّثين يلحنون، فأنقذنا من هذا اللحن يا أستاذ، هذا اللحن الذي يفسد الناشئة ويؤذي الأدباء ويهدم ركن العربية.

واعدِلْ بين الموظفين، فإنه لا يجوز أن يأخذ مذيعٌ ثلاثمئة وخمسين ليرة لأنه يذيع بالفرنسية نصف ساعة في النهار ونصفاً في الليل فقط، ويأخذ مئتين مَن يعمل النهارَ كله.

إن الإذاعة فاسدة، فاسدة بأشخاصها وبرامجها، فأصلحها حتى تكون للوطن وتكون للعلم وتكون للخلق والشرف والفضيلة، وفّقَك الله وأخذ بيدك[1].

* * *

(١) بقي الدكتور يوسف العش مديراً للإذاعة السورية نحواً من ثلاث سنين، من سنة ١٩٥١ إلى سنة ١٩٥٤، وكان قبلها محافظاً لدار الكتب الظاهرية لمدة عشر سنوات، ثم أميناً لجامعة دمشق، وتوفي سنة ١٩٦٧ (مجاهد).

اعدلوا أو استقيلوا

حفرت «المحافظة» الأرض وأخرجت الحجارة والتراب فركَمَتها أكواماً على عرض الشارع وتركتها، ثم نزل عليها المطر فصارت عجيناً من الطين. فما خرجت اليوم من الدار ووضعت رجلي في الطريق حتى غاصت إلى نصف الساق، فرفعتها ورجعت فأبدلت حذائي وثيابي، واستعنت ببعض المارّة ووضعنا حجارة في الطريق لنمرّ عليها، فانهارت بنا، فعدت وطلبت سيارة بالهاتف، فوصلت السيارة إلى الجادة التي تحتنا ووقفت لأنها لم تستطع بلوغ الدار. فما قطعت هذه العشرة الأمتار بين السيارة والدار إلا في ساعة وربع الساعة، وصرت أعجوبة!

ووصلت إلى شارع أبي رُمّانة فوجدت عُمّالاً يعملون تحت المطر في تنظيم الحديقة الصغيرة القائمة عند المفرق، وأنا منذ شهر لا أزال أرى هؤلاء العمال يعملون في هذه الحديقة... إي والله من نحو شهر.

فلم أعد أطيق الصبر، وضاقت عليّ اللغة على سعتها وعلى طول اشتغالي بها، فلم أجد الكلمات التي أعبّر بها عن غضبي واشمئزازي من هذه «المحافظة» التي لا تفهم بلسان المنطق ولا لسان القانون ولا لسان الإنسانية، والتي يظن محافظها بالوكالة أن

الشام كلها من أراضيه التي ورثها عن أبيه، وأن أهلها جميعاً من فلاّحيه فهم أقنان لديه وهم ملك يديه، يتصرف بهم كما شاء له هواه وشاءت «أكابريّته»، يطعم قوماً حتى تقتلهم التخمة ويَحرم قوماً حتى يُميتهم الجوع!

أهل شارع أبي رمّانة يعمل لهم العمال شهراً في تسوية الحديقة وتنظيمها، حتى لا تؤذي أذواقَهم المرهفة وتجرح نفوسَهم الرقيقة رؤيةُ جانب منها منحرف عن جانب أو طرف مائل عن طرف، وطرق أهل المهاجرين لا تقدر أن تمشي فيها السوائم والبهائم... والمحافظ لا يدري، لأنه يخرج من داره الفخمة ليركب سيارته الرسمية الفخمة التي شُريت بأموال الشعب، ويسير في شوارع البلد الفخمة التي رُصِفَت وسُوِّيت بأموال الشعب.

وهذا الشعب المسكين، هذا الشعب الذليل الذي يتحمل المهانة ويسكت، لا يجد طريقاً يمشي فيه. وإذا كان سعادة المحافظ بالوكالة لا يصدق فليتفضل حتى يرى بعينه الطين.

إن هذه حالة يستحيل أن تدوم، وإذا كان المحافظ وأعضاء المجلس البلدي لا يريدون أن يسمعوا، أفليس في البلد حكومة؟ إننا نتوجه اليوم إلى الحكومة طالبين انتخاب مجلس بلدي جديد، يعرف مطالب البلد، ويشعر مثل شعور أهل البلد، ويكون من أبناء هذا البلد.

أما هذا المجلس فليس منا ولا يمثلنا... إنه يفصل بيننا وبينه جدار من الذهب!

* * *

الصعلوك إذا كبر!

قرأت أن بيفن حضر (وهو وزير خارجية بريطانيا) مأدبة كبيرة، وكان إلى جنبه أحد كبار الماليين في إنكلترا، فأقبل عليه يسأله: ألم تدخل قصري الجميل يا سيد بيفن؟ أرجو أن تشرّفه بحضورك. فأجابه وزير الخارجية بلهجة عادية: ولكني دخلته كثيراً في صغري، فقد كنت أحمل إليكم الغسيل مرتين في الأسبوع!

لم يتنكر بيفن اليوم لبيفن الأمس ولم يخجل وزير الخارجية اليوم بأجير الكَوّاء بالأمس، وترى عندنا هنا غنياً من أغنياء الحرب، تسلم عليه فينظر إليك بطرف عينه ويشمخ عليك بجانب منخره، ويرد عليك السلام رد حارس الضَّيعة بلباسه الرسمي على الفلاح، كأنما وُلد على سرير من ذهب ووُلدت أنت على كومة من حطب، وأنت تعرفه لما كان صبياً في دكان ثم صار دلالاً في السوق.

وترى صاحب المرتبة العالية تدخل عليه، فيدعك واقفاً خمس دقائق كأنه قد عمي عنك فلا يبصرك، ثم يرفع إليك عينه متثاقلاً، وإن هو أكرمك مدّ إليك بالتحية يداً كأنه -من سماجته- يمدها إليك بالضرب، ثم كلمك مترفِّعاً عنك كأنه من طينة غير طينتك، وكأنما خُلق هو وحده من الذهب وخُلقت أنت وأولاد

الشيخ آدم جميعاً من التراب، وأنت تعرفه كاتباً مؤقتاً في دائرة، ثم جاءه النعيم حين صار كاتباً أصيلاً، وأنت كنت زميله أو كنت رئيسه.

وترى الأستاذ الجليل، أستاذ الجامعة، فيتحذلق عليك ويتفَهْيَق، ويلقي كلامه كلمة كلمة يستريح بينهما ستاً وأربعين ثانية، ويبتلع ريقه، ويزوي ما بين عينيه ويقعّر فمه، ويقلب وجهه حتى يصير من التفكير العميق كوجه من أكل ليمونة بقشرها، وينظر إلى الأفق البعيد، ويلقي عليك كلامه من فوق كأنه على المنبر وأنت تحت الكرسي، وأنت تعرفه في مدرسة أوّلية في قرية نائية كان هو مديرَها ومعلّميها جميعاً وبوّابها!

وأنت ترى دائماً نماذج من هذا الأصل وأمثلة على هذه القاعدة، وإن أنت ذكّرتَ الغنيّ بأصله والموظّفَ بمنشئه تنكّر لك وغضب منك، كأنك تشتمه أو تصفعه على وجهه بقفا يدك.

ذكرت هذه الصور من حياتنا لمّا قرأت قصة بيفن!

* * *

فواجع السيّارات

هل هانت الحياة الإنسانية في هذا البلد ورخصت حتى صارت تذهب في حماقة سائق أو رعونته، وحتى صار إزهاق الروح في حوادث السيارات خبراً عادياً من أخبار الجرائد؟

أمس كانت هذه الفاجعة المروِّعة التي شهدها طريق دوما، إذ خرج العشرات من الناس ليشمّوا عبق الأزهار ويستعجلوا طلعة الربيع ويعودوا إلى بيوتهم بالصحة والمتعة والانشراح، فانقلبت بهم السيارة الضخمة[1]، فعادوا إلى بيوتهم محمولين على عربات الإسعاف! وقبلها كانت نكبة المرأة المسكينة التي حطّمت السيارةُ جمجمتَها وعقدت لسانها، فلم تنطق ولم يأتِ مَن يسأل عنها، ولعل لها أمّاً عجوزاً تترقبها ولا تعلم ما حل بها لأنها لا تقرأ الجرائد ولا تسمع الرادّ، ولعل لها أطفالاً يهتفون: ماما... أين

---

(١) يقصد الحافلة كما هو واضح من السياق. ولم يكن جدي رحمه الله يحب هذه المفردة -لسبب أجهله- وقَلّ أن يستعملها في كتاباته، فهو يستعمل كلمة السيّارة ليصف السيارة الصغيرة والحافلة الكبيرة جميعاً، فربما فُهم المقصود من السياق كما هو هنا، وربما التبس على القراء، وأنا منهم، فلا نعرف: أيريد السيارة التي نعرفها أم يريد الحافلة (الباص)؟ (مجاهد).

ماما؟ لا يدرون أن أمّهم على فراش الموت، قد أودى بحياتها وأيتمَ أطفالَها عنادُ سائق أو جَهالته أو حماقته.

وأنا لا أقول إن السائق هو المجرم، ولا أحكم عليه بما يحكم عليه قاضي المحكمة الذي يبحث ويحقق، ولكن أريد أن نتخذ من هذه الفواجع عِبَراً، وأن نحمي أرواح الناس من أخطار الطريق بالتنظيم وإعداد وسائل الوقاية وسد طرق الأذى، وأن نراقب سير السيارات، ونجرّد لذلك حملات من رجال الشرطة الذين لا يعرفون إلا القانون ولا يقبلون شفاعة ولا رشوة، فلا يسرع سائق سيارة عامة فيؤذي الناس، ولا يلهو صاحب سيارة خاصة على حساب الناس.

وأن تفيق البلدية وتمنع أسباب الخطر، وأن تعلم -مثلاً- أن هذا الجسر القائم فوق طلعة الشطّا في المهاجرين[1] تمرّ عليه كل يوم سيارات المدارس في كل واحدة منها خمسون طفلاً، ويجتازه مئات الأطفال على أقدامهم، ولو انحرفت السيارة إصبعاً لسقطت عن الجسر وكانت مأساة تزلزل البلد، فلا يجوز بقاؤه يوماً واحداً بلا حواجز ودرابزين متينة تحمي السالكين والمجتازين.

وأن توسّع مدخل «القنوات» من باب الجابية، فإنه لا يخلو يوماً من صدام وخصام، ولا يحتاج توسيعُه إلاّ إلى هدم ستة دكاكين عتيقة. وأن يُمنَع سير سيارات الجيش والشرطة في سوق الحميدية الذي يحرّم النظام سيرَ السيارات فيه.

---

(١) ترونه في الصورة المقابلة، وهي صورة حديثة. ويبدو أن الدرابزين لم يكن عليه يوم نشر الشيخ رحمه الله هذه المقالة (مجاهد).

وفتشوا -تتمةً للإصلاح وإكمالاً للفضل- عن هذه السيارات التي تلبس الظلام وتخرج كل عشية إلى الصحراء من فوق الهامة وإلى الكورنيش وإلى الشوارع الخالية، أوقفوها وانظروا مَن فيها تَروا عجباً، تروا أناساً كنتم تحسبونهم من الأولياء ونساء كنتم تظنونهن من القديسات ذاهبين إلى ما الله أعلم به.

يا أولياء الأمر، إنا نستغيث بكم: احموا أرواحنا وأعضاءنا وأعراضنا من هذه السيارات، وعجّلوا قبل أن تقع الفاجعة الثالثة والعشرات من بعدها.

* * *



صندوق كتب

هذه حادثة واقعة، لا أكتبها للقرّاء لأنهم يعرفون الكثير من أمثالها ولا يجدون شيئاً غريباً فيها، ولكن أكتبها لمن سيُدَوّن في المستقبل تاريخَنا، ليرى فيها نموذجاً من أعمالنا ويعلم منها لماذا صرنا في ذيل الأمم ولماذا غلبَنا في فلسطين اليهودُ.

الحادثة أن وزارة العدل كانت أوفدت سنة ١٩٤٧ قاضيين من قُضاتها إلى مصر ليتقصّيا أحوال المحاكم فيها ويدرسا ما جَدَّ من قوانين وما أُحدث من نُظُم، وأعطت أحدهما مئتَي جنيه مصري ليشتري بها لمكتبة الوزارة طائفة من الكتب القانونية الجديدة. فاشترى الكتبَ وأرسل بعضها إلى دمشق بالبريد، وترك بعضها لزميله (علي الطنطاوي) فسلّمها إلى المفوضية السورية في القاهرة وأخذ منها وثيقة الإيصال، وتلقَّت وزارة العدلية في دمشق كتاباً رسمياً من الخارجية باستلام المفوضية للكتب.

وحسبنا أن القضية قد انتهت، ومرّت سنتان وستة شهور، وإذا بالقاضي الذي استلم المال[١] (وهو الآن في منصب إداري

---

(١) الأستاذ نهاد القاسم، وكان وزيرَ العدل حينما نُشرت هذه المقالة، قال عنه في الذكريات: "الأخ الوفي والوزير المستقيم رحمة الله على روحه" (مجاهد).

كبير) يتلقى إنذاراً من الخزينة بأن يدفع خلال أسبوع سبعمئة ليرة، بقية ثمن الكتب!

وعجب الرجل وذهب يبحث، فإذا الكتب التي سُلِّمت إلى المفوضية السورية في مصر لم تُشحَن إلى الآن ولم تصل إلى وزارة العدلية، مع أن المفوضية تلقت في هذه المدة مذكرات كثيرة من العدلية تطالب بسرعة إرسال الكتب... ومع أن أكثر هذه الكتب لم يعد له الآن فائدة لأن القصد من شرائها كان الاستعانة بها على وضع القوانين الجديدة في سوريا، وقد وُضع أكثر هذه القوانين... ومع أن المفوضية تقيم في قصر في القاهرة أجرته الشهرية نحو ثلاثمئة جنيه مصري، وللقنصلية دار أخرى بجنبها من أفخم دور الزمالك، وأن موظفيها يأخذون الرواتب الضخمة وبدل الاغتراب وبدل الملابس وبدل ما لست أدري ما هو... ومع أن المفوضية كانت (في وقت من الأوقات) ترسل كل يوم إلى دولة الرئيس فلان (الذي يقيم الآن خارج سوريا)... هل تعلمون ماذا كانت ترسل له يومياً في البريد السياسي وبالطيارة وعلى حساب الأمة؟ أخشى والله ألاّ تصدّقوا إن قلت لكم: صناديق الخضر والفواكه من القاهرة إلى دمشق، لبيت صاحب الدولة وولائمه وأيامه المِلاح!

ومع ذلك كله لم تستطع المفوضية السورية في القاهرة في ثلاثين شهراً أن تنتهي من شحن صندوق كتب!

أعترف بأني -على حدة لساني ومضاء قلمي- عاجز عن التعليق على هذه القضية.

* * *

كراسي وساسة

أنا لا أحاول فهم هذه السياسة ولا أريد أن أكون من أهلها، ولا أعرف من رياض الصلح إلا اسمه من الأفواه وخبره من الجرائد، ولا شأن لي في الهجوم عليه أو الدفاع عنه، ولكني -كلما قرأت حديث هذا العراك الطويل بينه وبين خصومه من لدن الانتخابات الماضية في لبنان إلى اليوم، ورأيت ما بذل من جهد وذكاء ووقت ومال في سبيل الاحتفاظ بهذا الكرسي وما بذل خصومه في سبيل دفعه عنه- فكرت متعجباً في هذه الجهود: أما كانت تنجح قضية فلسطين لو بُذلت في قضية فلسطين؟ أما كان يصلح لبنان لو أُنفقت في إصلاح لبنان؟

فلماذا لا نعمل -في هذا الشرق الأدنى[1]- إلا للكراسي؟ وكيف فقدت كلمة «السياسة» عندنا كل معنى كان لها، ولم يبقَ من معانيها إلا أنها العمل للوصول إلى مقاعد الحكم؟ وما الذي

---

(١) هذا هو الاسم القديم لما صار اسمه اليوم «الشرق الأوسط»، ويبدو من متابعة الوثائق التاريخية أن أول ظهور لمصطلح الشرق الأوسط كان بحدود عام ١٩٠٢، ولكن اسم الشرق الأدنى بقي غالباً حتى نهاية الحرب الأولى، وتنافس الاسمان في الفترة الفاصلة بين الحربين، ثم استقر الاسم الثاني منذ نهاية الحرب الثانية (مجاهد).

نستفيده لو ذهب فلان وجاء فلان؟ وماذا ينفعنا أن يروح زيد ويأتي عبيد؟ أما جربنا تقلب الرجال على المقاعد وتداول الأحزاب الوزارات، فهل رخصت الأسعار، أم استقامت الأخلاق، أم عمرت البلاد، أم سعد العباد؟

إن الميزان مختل، فماذا يفيدنا تبدل الوَزّان إن بقي الميزان؟ إن حالتنا الخلقية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية تحتاج إلى الدرس الطويل والإصلاح الشامل، فماذا ينفعنا رفع الرجال إلى كراسيّ الحكم إذا بقيت حالنا على فسادها؟ وهل تصلح الحال في هذا العهد الجديد الذي هلَّ اليومَ هلاله، أم يتجدد فيه حديث الماضي؟

إنا لنرجو من نوّابنا الخير، ونسأل الله أن يحقق فيهم الرجاء.

* * *

مصائب الجنائز

جاءني رجل يبدو عليه الضر والفقر، فقصّ عليّ أن أمه قد ماتت، فجاء بامرأة فقيرة يعرفها فغسلتها، وأتت لها بكفن فكفنتها، واستأجر نعشاً فحملها به هو وأصحاب له إلى المقبرة لينزلها في قبر جدّه. فاعترضه الحفّار وقال: هات ستين ليرة. قال: أنا أحفر وأنزلها. قال: ممنوع. قال: فخذ أجرة الحفر والتنزيل ليرتين، إنه شغل ساعة وأجرة العامل اليوم كله ثلاث ليرات.

فأبى إلا الستين وأبى هو إلا الليرتين، واحتدم الجدال، فوضعوا الميتة على الأرض وتقاتلوا، وكانت نتيجة المعركة أن صاحبنا غُلب ودفع الستين وأنفه راغم!

هذا والرجل فقير لا يقدر أن يدفع بسهولة، قوي لا يمكن أن يُغلَب بيسر، فماذا تكون حال الناس الذين يشترون حفظ كرامتهم ببذل المال، والذين لا يعرفون المخاصمة وضروب النزال؟

ماذا يَغْرَم أحدهم حتى يوصل ميّته من الدار إلى القبر؟ كم يكلف الغاسل والمكفِّن والنعش والذين يحملونه، والذين يمشون أمامه يضعون على رؤوسهم صواني الحناء التي لا أدري (ولا يدري أحد) لماذا تُحمَل؟ والآس ومن يمشي به... وسائر البدع المنكَرة التي لا يعرفها الدين ولا يقرّها العقل؟

لمّا توفي عمي الشيخ عبد القادر (وكان رجلاً وسطاً، ليس بالغني ولا الفقير) لم يوصله المتعهد إلى قبره حتى أخذ أربعمئة ليرة، وأعرف تاجراً كبيراً توفي من قريب فكلف ورثتَه إيصالُه إلى القبر مئة ليرة عثمانية ذهبية، أخذها هذا اللص الذي يسمى المتعهد.

وهذا غير ما يأخذه قسراً وجبراً هذا الجيش اللجِب من الشحّادين، كلاليب الجنازة، الذين لا يسمعون بميت حتى يطوّقوا الدار وينظموا الهجوم! وما يأتي بعد ذلك من نفقات الصباحية والعصرية واليوم الثالث والخميس والأربعين والسنوية... وأمثال هذه البدع والترّهات.

أي أن الميت يموت مرة وأهله يموتون معه ألفاً، والأوقاف والمحافظة تنظران ولا تعملان شيئاً.

يبيع الحفّار القبور كأنها ملك آبائه، ويعطي من شاء الأرض الواسعة ينشئ فيها المدفن الضخم لأسرته، فلا تقول الأوقاف: ماذا تصنع؟ ويسرق المتعهدون الناس في أحرج الساعات، حين لا يستطيع الرجل من الحزن أن يساوم أو يخاصم، فلا يشكو عليهم أحد.

وفي لبنان جمعيات لدفن الموتى، فلا يفكر أحد في تأليف مثلها في الشام، وفي تركيا قانون لذلك من أفضل القوانين، فلا يخطر على بال أحد أن يسعى بسَنّ مثله.

أفنبقى تحت رحمة الحفّارين والمتعهدين وكلاليب الجنازة؟

* * *

أدوية بلدية

حدثني من أثق به أن مريضاً باليرقان اجتمع عليه الأطباء وحشدوا له أنواع العلاج، فلم تصنع معه شيئاً لأن للمرض مدة لا بد أن يستوفيها، فجاء يعوده رجل مجرِّب فقال له: هل تحب أن تقوم غداً وليس بك شيء؟ قال: نعم. قال: اصنع ما أقول لك، أرسل من يشتري لك «قثّاء الحمار» من أحد العطارين، ودقّها دقاً، وصَفِّها بقطعة من شاش دقيق النسج، ثم انشَقْ منها نشقات في اليوم.

قال: فصنع ذلك فسال من أنفه ماء أصفر كثير، وما جاء الصباح حتى شُفي بإذن الله.

وسمعت أن مريضاً بالتهاب البروستات أعيا الأطباء، عالجوه بالقشر الأخضر الذي يكون على عود الفول، فشُفي. وما زلنا نسمع أن ماء الأنكنار المَغليّ خير علاج لأمراض الكبد، وأن غلي قطعة من لب غصن الموز وشرب كأس منه يشفي السعال، وأن بذر الخلة ينفع للرمل... ومئات من هذه الوصفات يؤكد الناس فائدتها، حتى إنك لا تجد حشيشة في البرّية مهمَلة، تنبت وحدها وتجفّ وحدها، إلا وجدت من يحدّثك عن فوائدها. فلماذا لا يعمد أحد الأطباء الكيميائيين إلى الفحص عنها وتحليلها ومعرفة

ما فيها من العناصر، ويعلّم الناس طريق استعمالها ويحدّد لهم مقدارها، فيخلصهم من المرض ومن دفع الأموال إلى الأجانب ثمناً لدواء ربما كان يغني عنه حشيش من الجبل، ويمنحهم بذلك شفاءَ الأجسام وشفاء الجيوب؟

إنه لا يجوز ترك العامة يستعملون هذه الحشائش على هواهم، لأن اختلاف المقدار الذي يُشرَب منها ومدّة وضعها على النار يَقْلب خيرها إلى شر ونفعها إلى ضر، ولو ثبت أن فيها مادة مفيدة. وهذا هو الشاي يختلف أثره فينا باختلاف صنعه، فإذا وضعته في الماء وغليته على النار حتى يصير أسود وشربت منه الكؤوس الكثيرة، لا يكون كالشاي الذي تضع منه ورقات في المصفاة وترفعها من الإبريق بعد دقائق وتشربه... هذا ينبّه وينشط والأول سم زعاف، والشاي هو الشاي.

بل إن العلاج النافع إذا أخذت منه أكثر من الحاجة انقلب ضاراً، فلا يغترّ أحدٌ بهذه الوصفات التي يسمعها من الناس أو يقرؤها في «تذكرة داود» فيأخذها بلا معرفة ولا فهم، وليقم أحد الأطباء الكيميائيين بهذا العمل الجليل.

* * *

سيّد القوم خادمهم

يا أيها الذين يسوسون هذا الشعب العربي، إنكم لا تعرفون طبيعته ولا تقرؤون تاريخه.

إن هذا الشعب لا يستطيع أن يخضع لزعيم إلا إذا دفع ثمن الزعامة من نفسه ومن ماله، ولذلك كان سيد القبيلة هو فارسها الذي يحميها بروحه إن دهمتها الخطوب، وينفق عليها من ماله إن أصابها الإعسار، ويكون أوفرَها عقلاً وأبلغَها لساناً وأجمعَها للفضائل، ثم إذا حاول أن يترفع عليها -بعد هذا كله- أو يجعل زعامته مغنماً وسيادته تجارة، وثبت عليه فأقامت لها زعيماً غيره. ولذلك قيل (وحق هذا الذي قيل): «سيّد القوم خادمهم».

لذلك كان محمد ﷺ سيد العرب، يجوع إن جاع الناس ويشبع إن شبعوا، ويلبس كما يلبسون ويعيش كما يعيشون، وكان عمر يرقع ثوبه ويعمل بيده وينام على الأرض، وبعث إلى سعد أمير العراق -لمّا بلغه أنه بنى قصراً واتخذ دون الناس باباً- بمَن يكسر ذلك الباب لئلا يكون بينه وبين الناس حجاب.

هذه هي طبيعة هذا الشعب؛ إنه لا يحتمل أن يصعد أحدٌ على أكتافه ويأكل من ماله، ثم لا يفوقه بعقل ولا علم ولا يذبّ عنه بسيف ولا مال ولا ينفعه بقول ولا عمل.

ولكنكم لا تعرفون ما طبيعة هذا الشعب، ولو عرفتموها ما نصبتم كل يوم وزيراً جديداً تريدون أن يدين له الناس بالطاعة ويرضخوا له بالراتب، وهم لا يشعرون له بالإكبار ولا يؤمنون بأن فيه مؤهلات السيادة وشرائط الإدارة، ولمَا بقيتم الشهور الطوال تأخذون الرواتب الهائلة من جيوب الفقراء والمحتاجين ثمناً لدستور يمكن أن يضعه عشرة رجال في شهر واحد، ولمَا أنفقتم قرشاً من مال الشعب على الولائم والحفلات.

لا ، ولمَا أثقلتم كاهل الأمة وكسرتم قلوبها بتدليل الموظفين الكبار على حسابها، فأعطيتموهم السيارات من مالها ليركبوا فيها هم وأهلوهم، ووضعتم في بيوتهم الهواتف على نفقتها ليتكلم فيها نساؤهم وأولادهم! ولما قررتم هذا الجدول العجيب للموظفين الذي يجعل راتب الموظف السوري العامل ربّ العيال ثلاثين ليرة في الشهر أساساً، وراتب الموظف الآخر خمسمئة، وقد كان يكفي أن يزيد عنه الضعف والضعفين، أما أن يزيد عشرين ضعفاً؟!

لماذا يزيد عشرين ضعفاً؟ لماذا؟ أهذا عبدٌ وذاك إله؟ أهذا يأكل خبز الشعير وذاك يأكل الفستق واللوز؟ أولاد هذا شياطين لا يستحقون أن يعيشوا وأولاد ذاك ملائكة؟ لماذا يُعطى الحارس الذي يسهر طول الليل ثمانين ليرة لا تشبعه من الخبز القفار، ويعطى الموظف الكبير نفقات تمثيل (أي ثمن قهوة وشاي لضيوفه) مئة ليرة؟!

يا أيها السادة، إنكم لا تعرفون طبيعة هذا الشعب.

* * *

شكوى

يا أيها العقلاء، أفتوني في أمري: إن سكنت الشوارع الكِبَار سوَّدَت عيني ونغّصَت أيامي السياراتُ والترامات وهاتيك الآفات. وإن قمت في السوق زلزلت قلبي وحطمت أعصابي المكبّراتُ منصوبات عند السمّان[1] والحلاق وبيّاع المرطبات، تُرعد أبداً كأنها ليس في الحي أحد وليس في البيوت مشغول ولا مريض ولا نائم. وإن دخلت الحارات وجدت ما هو شر من المكبر ومن السيارات: الأولاد يفلتهم أهلوهم في الشوارع، فيختلط الحابل بالنابل والصالح بالفاسد والبنات بالصبيان، تُهدَم فيها كل فضيلة يبنيها الأب في البيت والمعلم في المدرسة والواعظ في المسجد والمصلح في الجريدة... تسمع فيها البنت من الصبيان ألفاظَ الخنا، ويتلقى فيها المهذَّب من الفاسد دروسَ الشرور، وتوضع فيها في هذه النفوس أصول الكذب والغش والسرقة والعدوان كما توضع البذور الحية في الأرض الخصبة، فلا تلبث أن تنبت علقماً مُرّاً وسُمّاً ناقعاً يقتل أخلاق الأمة ويُميت فضائلها.

وجاءت المدارس بعد ذلك بما هو أدهى من ذلك كله وأشد، بهذه البدعة الجديدة: بدعة نصب المكبرات تذيع خطب

---

(١) السمّان هو البَقّال بلغة أهل الشام (مجاهد).

المدير وأغاني الطلاب وضجيج الملعب، ولا تستريح أبداً ولا تُريح!

فأين نذهب يا ناس؟ أنهاجر إلى الصحراء؟ إنه شيء لا يطاق! فمتى يفهم صاحب الرادّ أنه لا يجوز له أن يزعج خمسمئة شخص من حوله ليطرب هو؟ وتعرف الأم أنها حين تقذف بولدها إلى الشارع لتتخلص من أذاه فإنها تدمّر أخلاقه وتفسده وتفسد به أخلاق النشء؟ ويذكر مدير المدرسة حين ينصب المكبر أن الحرية لها حدود، وأن حريته تنتهي حيث تبدأ حرية جاره، وأن الإنسانية والذوق والشرع والقانون، كل ذلك يحرم إيذاء الناس؟!

متى؟ متى يعرف كل واحد منا حدّه فيقف عنده؟ متى تمّحي من صفحة حياتنا هذه المزعجات؟[1]

متى؟ إنه والله شيء لا يطاق!

* * *

(١) انظر مقالة «مصيبة الضجيج» التي مَرّت في هذا الكتاب، واقرأ في كتاب «فصول اجتماعية» مقالتَي «ارحمونا من هذا الضجيج» و«صيحة شكوى»، وكلها متصلة بموضوع هذه المقالة (مجاهد).

وثائق النهضة العربية

هل يعلم الناس أن هذه النهضة العربية التي بدأت من أربعين سنة إنما بدأت من دمشق، وأن من أقدم الداعين إليها والعاملين عليها رجلاً مُنزوياً اليوم في القاهرة؟ وأن الأوراق الأصلية للقضية وضبوط جلسات حزب العهد واللامركزية وما كان قبل ذلك وبعده ومذكّرات كبار رجال القضية ورسائلهم بخطوطهم هي عند هذا الرجل، وأنها تملؤ خزانة بستة رفوف؟ وأن الجامعة العبرية في القدس كانت قد حاولت شراءها بمبلغ عظيم فلم تستطع الوصول إلى ورقة واحدة منها، وأنها قد تصل إليها إذا تُوفي أو زال حكمه عليها، أو تضيع أو تُحرَق؟

وأنّ تاريخ القضية الصحيح لم يُكتَب إلى اليوم ولا يستطيع أن يكتبه إلا هذا الرجل؟ وأن من حق هذا الرجل على بلده أن يقضي في ربوعه أخريات أيامه بعد أن عاش أكثر عمره في مصر هارباً من بطش الاتحاديين أولاً ثم من ظلم الفرنسيين ثانياً؟ وأنه قد عاد إلى الوطن كلُّ رجاله الذين خرجوا منه عقب ميسلون إلا هذا الرجل، لم يَرَ وطنه الذي أحبه وكان من أخلص أبنائه له، ولم ينعم بالاستقلال الذي جاهد للوصول إليه أربعين سنة تِباعاً بقلم لا يلتوي وعزيمة لا تلين؟ وأن من حق القضية العربية على

دمشق خاصة أن تؤرّخها وتسجّل حوادثها، وأن المصلحة الوطنية تقضي بدعوة هذا الرجل ليكتب تاريخها؟

فهل تدعوه الحكومة؟ وإذا لم تَرَ دعوته فهل تشتري منه هذه الوثائق وتحفظها في «الظاهرية» أو في المَجْمَع العلمي، أم تذهب هذه الكلمة هدراً ولا يلقي إليها أحدٌ بالاً، ويأتي المؤرّخون بعد أربعين سنة فلا يجدون لهذه الوثائق أثراً، أو يلقونها في جامعة أوربية أو أميركية، يتخذها من شاء من أصحاب الأغراض سبيلاً إلى العبث بتاريخنا وتشويه قضيتنا، ويضطر علماؤنا إلى الاقتباس منهم والرجوع إليهم بعد أن فقدوا المنبع الأول الذي يُستقى منه ويُرجَع إليه؟

وهل تهتم بهذا مديرية الدعاية والنشر، وإذا لم تهتم به فبماذا تهتم بعده؟ وفيمَ تكون الدعاية إن لم تكن لقضية الأمة وماذا تنشر إن لم تنشر تاريخها الصحيح؟

أما اسم هذا الرجل... لا، لن أذكر اسمه إلا حين تسألني الحكومة عنه[١]

* * *

---

(١) هو محبّ الدين الخطيب، خال علي الطنطاوي، وتحدث عنه في «الذكريات» فقال: "وهو أول (أو من أوائل) من دعا إلى إحياء لغة العرب وتاريخ العرب، رداً لفتنة «التتريك» التي جاء بها الاتحاديون، كما أنه كان من أول (أو من أوائل) من دعا إلى تنظيم العمل الإسلامي في مصر، وأنشأ أول جريدة أسبوعية إسلامية هي «الفتح»، ولكن عزلته وابتعاده عن مجتمعات الأدباء وأصحاب الأقلام وأرباب=

= السلطان جعلت الناس يهتمون بمَن هُم أقلّ منه شأناً وأضعف أثراً وينسونه، ولكنْ يعزّيه هو وأمثالَه أن الله لا يضيع عمل عامل، وأن ما عند الله خير وأبقى" (الذكريات: ٢/٣٤٦ من الطبعة الجديدة).

وقال: "طالما قلت إنني أعرف أن عند خالي محبّ الدين الخطيب الوثائق الأصلية للحركة العربية التي قامت رداً على ما ذهب إليه غُلاة الأتراك من الاتحاديين وغيرهم من قبلهم، قبل أن تصير إلى هذه القومية المعروفة. عنده رسائل رجالها، عنده ضبوط جلساتها، وكل ذلك بخطوط أصحابها وتوقيعاتهم. ويا ليت إحدى الجامعات أو الهيئات التي تهتم بتدوين تاريخ العرب الحديث تشتريها أو تأخذ صوراً عنها لئلاّ يضيع شيء منها" (١٥١/٥).

وللأستاذ محب الدين أخبار كثيرة متفرقة في «الذكريات»، وتوفي سنة ١٩٦٩، رحمه الله (مجاهد).

لا تحبسوهنّ ولا تضيِّعوهنّ

قرأت قصة البنت التي يحبسها أبوها في البيت، فيخرج ويتسلى ويتنزه ويمنعها أن تجاوز عتبة الدار ولو معه هو، فهل هذا من الدين؟

إن حبس الفتاة في الدار فلا تخرج منها أبداً لا إلى فرجة ولا إلى نزهة ولا لزيارة قريبة أو صديقة، ومنعها من كل ما ينفّس عن النفس وما ينعش القلب... هذا كله من عمل الجاهلية وليس من آداب الإسلام. ومتى أمر الإسلام بأن تُسجَن المرأة سجناً مؤبداً بلا جرم ولا حكم؟ الذي يصنع ذلك ليس في قلبه رحمة ولا عاطفة.

إن الرسول ﷺ أسند عائشة ورفعها حتى ترى وفد الحبشة لمّا رقص في المسجد رقصة الحرب، وكان يقول: «خيركم خيركم لأهله»[1]، ولما وفد عليه الأعرابي ورآه يقبّل الطفل تعجب وقال: يا رسول الله، لي كذا وكذا من الأولاد وما قبلت واحداً منهم، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: وماذا أصنع لك

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه عن عائشة وابن عباس، وحسّنه الحافظ المنذري في الترغيب وصحّحه الألباني، وتتمته: «وأنا خيركم لأهلي» (مجاهد).

إن نزع الله الرحمة من قلبك؟[1]

لا، لا هذا ولا ما يصنعه أكثر الآباء اليوم، لا إفراط ولا تفريط. لا نحبس البنت حبساً مؤبداً ونحرمها من كل مُتَع العيش ونطرد الخاطبين لها، حتى تمرض أو تُجَنّ أو تهرب فتفسد فساداً لا صلاح بعده. ولا نقول لها: البسي ما شئت واتّبعي الموضات، وامشي أمام الرجال الأجانب عارية الذراعين مكشوفة الصدر[2] وحَمّري شفتيك واغتسلي بعطور باريز، ثم اخرجي وحدك فكلّمي البيّاع وامزحي معه، واذهبي إلى الخياط، الخيّاط المذكَّر لا الخياطة، وامنحيه جسمك يجسّه ويقيسه... وإلى الطبيب الشاب وحدك وتكشّفي له، وادخلي السينمات، وتعرّضي للرجال، وإذا زاد بك التمدن فاحضري الحفلات وراقصي الرجال!

لا هذا ولا ذاك، لا إفراط ولا تفريط، ولكن سبيل الشرع وطريق الدين. وطريق الدين هو طريق الاعتدال وسبيل الشرع هو سبيل الصواب.

* * *

---

(١) أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تقبّلون الصبيان؟ فما نقبّلهم. فقال النبي ﷺ: «أوَ أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟»، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قبّل رسول الله ﷺ الحسن وعنده الأقرع بن حابس جالساً، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «من لا يَرحم لا يُرحم» (مجاهد).

(٢) وقد كانت البنت في أيامنا، قبل ثلاثين أو أربعين سنة، تستحي -أقسم بالله- أن تظهر بهذه الثياب أمام أبيها في الدار.

ولا تعضُلوهنّ

الرسول ﷺ يقول: «إذا جاءكم من ترضَون دينه وخلقه فزوّجوه»[1]، وأطال الترغيب بالزواج وحثّ عليه. فإذا كان في الآباء من يمنع بنته من الزواج بالكفء الصالح كان لها أن ترفع الأمر إلى القاضي، فإذا رأى القاضي أن الأب يمنعها تعنّتاً وعناداً ولم يجد له حجة مقبولة واعتراضاً معقولاً زوّجَها على رغم أنف الأب. وعندنا كل يوم في المحكمة الشرعية حوادث من هذا القبيل.

وفي الحديث أن فتاة زوّجها أبوها برجل لا تريده، فذهبت إلى عائشة الصدّيقة تشكو إليها، فقالت لها: انتظري حتى يحضر رسول الله، فلما جاء الرسول ﷺ وعرف القصة قال: «الأيّم أحق بنفسها من وليّها»[2].

---

(١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خطب إليكم من ترضَون دينه وخلقه فزوِّجوه، إلاّ تفعلوا تكُنْ فتنةٌ في الأرض وفساد عريض»، أخرجه الترمذي، قال الألباني: حسن صحيح (مجاهد).

(٢) «الأيِّم أحق بنفسها من وليها، والبِكْر تُستأذَن في نفسها، وإذنها صُماتها». الحديث أخرجه مسلم ومالك في الموطأ والترمذي والنسائي وأبو داود وأحمد بألفاظ متقاربة (مجاهد).

والأيِّمُ المرأة غير المتزوجة.[1]

وليس معنى هذا أن تنطلق كل بنت على وجهها وتركب رأسها، وتطرح حجابها وتصاحب الرجال، ثم تختار من يميل إليه قلبها ويستقر عنده هواها، وتقول لأبيها: إني أريد هذا فارْضَ صاغراً أو اقعد ساكتاً، فإنه لا رأي لك!

لا، ولكن الحديث في الفتاة العاقلة الراشدة الكبيرة التي تختار الكفء الصالح، ويعارض فيه الأب بغير حجة ولا مصلحة[2].

* * *

---

(١) أي مطلقاً، بكراً كانت أم ثيّباً، و«الأيّم» من الألفاظ المشترَكة بين الذكور والإناث، فالأيّم مَن لا زوج لها من النساء والأيّم مَن لا امرأة له من الرجال، ومن أقوالهم: «الحرب مَأْيَمَةٌ للنساء» (مجاهد).

(٢) قال الترمذي في الحديث السابق (الأيّم أحق بنفسها من وليها): "هذا حديث حسن صحيح، وقد احتج بعض الناس في إجازة النكاح بغير ولي بهذا الحديث، وليس في هذا الحديث ما احتجّوا به لأنه قد رُوي من غير وجه عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «لا نكاح إلا بوليّ»، وهكذا أفتى به ابن عباس، وإنما معنى قوله ﷺ: «الأيّم أحق بنفسها من وليها» عند أكثر أهل العلم أن الولي لا يزوّجها إلا برضاها وأمرها، فإن زوَّجها فالنكاح مفسوخ على حديث خنساء بنت خدام، حيث زوّجها أبوها وهي ثَيّب فكرهت ذلك، فردّ النبي ﷺ نكاحه".

قلت: وحديث خنساء هذا أخرجه البخاري ومالك والترمذي والنسائي وأبو داود، وفيه أن خنساء بنت خِذام الأنصارية زَوّجها أبوها وهي ثَيّب، فكرهت ذلك، فأتت رسول الله ﷺ، فردّ نكاحه (مجاهد).

جرائم الآباء!

لقد قلنا وكررنا، وحذّرنا وأنذرنا، فما سمعتم المقال ولا حفلتم الإنذار. قلنا لكم: أفيقوا أيها النِّيام فهذي أوائل الحريق في دياركم، فما باليتم، وصرخنا فما أفقتم، فجاءت الحياة تخاطبكم بلسان الانتحار.

إن هذه الحادثة عقاب من الله لهذا الأب الذي أرسل بنته إلى المدرسة وأطلقها في الأسواق تلقى الرجال وتخاطب الشبان، حتى إذا أثمرت الشجرة التي غرسها هو بيده، وارتبط القلبان بالخيط الذي فتله هو بإصبعه، وجاء الشاب يخطب البنت من أبيها كما يفعل الرجل الشريف، شخر ونخر وأعرض واستكبر وعدَّها إحدى الكِبَر.

لا، لا أحب أن أزيد الرجل ألماً على ألمه، فحسبه ما تألم، ولكني أحب أن أنذر هؤلاء الآباء مصيراً شراً من هذا المصير إذا هم لم يأتمروا بأمر محمد ﷺ الذي أمرهم إذا جاءهم مَن يرضَون دينه وأمانته أن يزوّجوه.

أحب أن يفهم الداعون إلى الاختلاط أن الغربيين -لطول عهدهم بالسفور- صاروا يميزون الخادمة والسكرتيرة والتلميذة والعاملة من «المرأة»، ومع ذلك لا تكاد تمر عليهم ساعة لا تكون

فيها جريمة عرض، أما نحن فلا نعرف في كل أولئك إلا «المرأة». إن هذه العواطف المكبوتة فينا تنطلق من عقالها انطلاق القذيفة وتدمر تدميرها.

إن محمداً ﷺ لم يكن يكذب ولا يبالغ حين قال إن الشيطان يكون ثالث الرجل والمرأة إذا خلا أحدهما بالآخر[1]؛ بل كان يقول حقاً وصدقاً ويملي القانون البشري الذي يبقى ما بقيت غرائز البشر.

فكيف تريدون أن تقعد الفتاة التي تتفجّر شباباً وتلتهب عاطفة مع الشاب الذي يشتعل شهوة ويتمزق قوة، ولا يدخل بينهما الشيطان؟! يقعدان في الخلوة الناعمة في السينما، وفي الأمسية الحالمة في المتنَزَّه، ويمشيان وحدهما في عتمات العشايا في الطرقات، ويذهبان معاً في الرحلات يُصبحان جميعاً ويُمسيان، ويضحكان جميعاً ويمزحان، ولا يدخل بينهما شيطان؟

أأنتم تحاربون سُنّة الله؟ أأنتم تعطّلون غرائز النفوس؟ أأنتم تغيرون طبائع الناس؟

هذه واحدة سمعتم خبرها، فكم من واحدات لم تعرفوها؟ هذان عاشقان آثرا الموت على الفاحشة فتعاونا على جريمة الانتحار، فنشرت الصحف نبأهما. فكم من عاشقين يفحشون ولا تعرفون أخبارهم، لأنها لا يسمعها الناس ولا تنشرها الصحف؟ كم في ظلام السينما وبطون السيارات ومعاطف الطرقات وأعماق

---

(١) في قوله ﷺ: «لا يخلونّ أحدُكم بامرأة فإن الشيطان ثالثهما»، وقد مرّ تخريج الحديث في مقالة «من هنا ينشأ الفساد») (مجاهد).

المخازن وخبايا الزوايا من أعراض تُنتهَك فلا يدري بها أحد، لأن هذه الحياة المختلطة سَهَّلت انتهاك الأعراض؟

من الذي يستطيع أن يجزم بأن بنته -حين تذهب إلى المعهد أو تنزل إلى السوق أو تمشي إلى الخيّاطة- لا تلتقي بشاب يحبها وتحبه؟ أقسم لقد كنت في مجلس وكان فيه أب عجوز وقور يتكلم في الأخلاق والعفاف، والحاضرون يعرفون أن بنته قد أفسدها ابن الجيران من زمان وأنها كل يوم في مكان! يعرف ذلك الناسُ كلهم إلا الأب المسكين الذي يعتقد أن ابنته أطهر من ماء السماء وأنقى من زنبقة الجبل. فما يدريك أنك لست كهذا الأب؟

يا أيها القراء، يا من عندهم بنات، لا تغترّوا بالسلامة لأنكم لا تدرون: هل سلمتم أم دخل الداء بيوتكم؟ لا تغترّوا بالسلامة، فرُبّ سالمٍ اليومَ واقعٌ غداً.

يا أيها الناس، يا من عندهم بنات: اللهَ اللهَ في أعراضكم، اللهَ اللهَ في بناتكم، تُلبِسونهنّ الثيابَ التي تفتن العابد، وتزيّنونَهُنّ الزينة التي تغري العجوز، وتطلقونهن وحدَهنّ فتنةً للعالمين، ثم تأبون الخاطب الراغب فيهن بالحلال!

ماذا يصنعنَ يا أيها الناس، وماذا يصنع الشباب؟ ومن هو المجرم الأول؟ مَن؟ فكّروا يا أيها الآباء، وإذا لم تهتدوا إليه ففتشوا عنه في مرايا بيوتكم.

يا أيها الآباء: أنتم والله أصل البلاء!

* * *

الأدب العربي بين الطبع والتقليد

كتب إليّ طالب يسألني: هل يحافظ الأدب العربي على طابعه القومي أم يمتزج بتيارات الآداب الأوربية؟ وقال إنه سؤال وُجِّه إلى الطلاب في امتحان عام.

والجواب أن الأدب أدبان: «أدب طبع» و«أدب تقليد». أما أدب الطبع فهو الذي يصوِّر دنيا الأديب كما يبصرها هو من خلال ميوله وعواطفه وحالات نفسه، والذي يعبّر عنه بلغة سليمة وديباجة مشرقة، وهو أثر من آثار عصره وبيئته لا يستقلّ عنهما ولا يخرج منهما. فإن لم يكن كذلك كان أدبَ تقليد، وكان ألفاظاً لا تحرك في النفس عاطفة وليس وراءها صور وعبارات، وكان كلامَ رجل يفكر بعقل غيره لا بعقل نفسه. وليس هذا أدباً البتة.

فإذا كان هذا المرادَ بالطابع القومي فإن كل أديب أصيل في الدنيا يحافظ على طابعه القومي ولا يملك التخلي عنه، إلا إذا تخلى الأديبُ عن حسّه وشعوره، وأغمض عينيه ثم وصف ما لم يَرَه وقال ما لا يشعر به. وأنّى؟ وهل كان ينظم أبو نواس «خمريّاته» لو عاش في عصر عمر؟ وهل كان يؤلف العقّادُ كتبَه لو نشأ في قرية من القرى ولم يجاوزها؟

أما السؤال الثاني ففي الجواب عليه تفصيل: فأنا أولاً لم

أفهم ما هو «تيار الآداب الأوربية»؟ الذي أعرفه أن لها تيارات عدة وسبلاً مختلفة الاتجاه متباعدة المجرى، ما بين أحدها والآخر من الخُلْف أكثرُ مما بين بعضها والأدب العربي. فهل المراد بهذا التيار الأدب الكلاسيكي، أدب كورناي وأرسين في فرنسا؟ أم الأدب العاطفي، أدب موسّه ولامارتين؟ أم الأدب الرمزي وهذه المذاهب الجديدة التي لا تُسيغها أذواقنا؟ وهل المراد أدب فرنسا أم روسيا أم إنكلترا؟ وأين بعضها من بعض؟ أين زولا من فاليري وأين شكسبير من تورجنيف؟

وأنا أرى -ثانياً- أن الحياة الأدبية كالحياة الاقتصادية: مرتبطة متشابكة على اختلاف الألسنة وتنائي الديار؛ كل أدب يؤثر في غيره ويتأثر به ويمده ويستمد منه ما دامت كل أمة تقرأ أدب الأخرى. فما هو الحد الذي ينبغي لأدبنا أن يقف عنده فلا يجاوزه؟

* * *

هذه هي المسألة كما يقول شكسبير وهذا هو لب الجواب، ولولا ضيق المقام لأفضت في الكلام، ولكني مضطر إلى الاختصار:

الأدب لفظ ومعنى وشكل.

أما اللفظ (وأريد به التعبير) فيجب أن يبقى عربياً خالصاً جارياً على سَنَن العرب وقواعد اللغة، لا يشذّ عنها ولا يخالفها، فإن خرج عليها لم يكن أدباً عربياً.

وأما المعنى (وأعني الصُوَر والأفكار) فلا بأس أن نقتبسه من أي أدب، على أن نسلكه في طرق تفكيرنا ثم نُخرجها لا صورة أجنبية ولا فكرة غربية، بل صورة معرَّبة جديدة يكون فيها غِنىً

لأدبنا وقوة له ونماء. وكذلك فَعلَ أجدادنا في العصر العباسي، فأضافوا إلى ما ورثوا من أدب غيرهم صوراً وأفكاراً جمّة، ولكنهم أخرجوها في ثوب عربي قشيب ونقلوها إلى العربية. أما ما يصنع بعض أدباء اليوم -إذ ينقلون الألفاظ العربية إلى الأدب الأجنبي، فتشعر أنك تقرأ أدباً فرنسياً أو إنكليزياً بلفظ عربي، بل تشعر أحياناً أنك لا تقرأ أدباً- فليس بشيء!

وأما الشكل (وأعني به الثوب الذي تتّشح به القطعة الأدبية المؤلَّفة من جسم، هو اللفظ، ومعنى، وهو الفكرة) [1] فهذا مما يجب علينا أن نقتبسه عن الآداب الأوربية ونستكثر منه، كما استحدث المتقدمون الموشَّحات في الشعر والمقامات في النثر وأمثالها.

وكل هذا مشروط ببقاء الأدب عربياً، حتى لو أن بدوياً من الجاهليين بُعث حياً وقرأه لفهمه، وإن لم يقف على حقيقة المراد منه لِما يقتضيه اختلافُ الزمان والتوسع في مدلولات الألفاظ.

وهذا هو الرأي الوسط بين رأيين كلاهما عندي خطأ، إذ لا يصحّ الاقتصارُ على ما عَرف الأولون من صور الأدب وتقليدُهم فيه وتجاهل الآداب الأخرى، ولا أن نبدّل اللغة ونكفر بها ونأتي بشيء لا هو أدب عربي ولا أدب أفرنجي، وليس إلا الهذيان الموزون، كشعر بعض من يُسمَّون شعراء!

* * *

---

(١) وأشكال الأدب هي: المذكرات، والرسائل، والصورة الوصفية، والأقصوصة، والقصة، والمقالة، والقصيدة، والرجَز، والقطعة المسرحية... وما إلى ذلك.

من هو العالِم؟

من الألقاب التي ابتُذلت وادعاها غير أهلها لقب «العالِم». وليس العالِم مَن كوَّرَ عمامته ووسّع جبته وعرّضَ لحيته وأطال سبحته، بل العالم من قرأ كثيراً، وفهم ما قرأ، وعقل ما فهم، وعمل بما علم.

ومِن أمارات العلم تحقيق مسألة من مسائله لم تُحقَّق، أو تصنيف كتاب لم يُسرَق من كتب الأوائل، أو ابتكار أسلوب يقرب العلمَ للناس.

ومن صفات العالم احتمال النقد، وردّ الحجة بمثلها، والبعد عن السفه والطيش والبذاء، والتنزّه عن التزلف إلى العامة بالحشويات وإلى الأمراء بالنفاق.

* * *

ابحثوا وخبِّروني

(١) روى ابن كثير في تفسيره أن النبي ﷺ سُئل: هل يسرق المؤمن؟ فأجاب بأنه ربما وقع منه ذلك ولكنه يتوب ويندم، فسألوه: هل يزني المؤمن؟ فأجاب بمثل ذلك، فقالوا: هل يكذب المؤمن، قال: لا.[1]

فانظروا إلى المؤمنين هذه الأيام، هل يكذبون؟ ابحثوا وخبّروني.

(٢) وفي الحديث الصحيح أن علامات النفاق ثلاث: منها إخلاف الوعد[2]، والذي يخلف الوعد هو في رأي الإسلام ثلث منافق!

فهل في المسلمين مَن يخلف وعداً؟ هل فيهم أحدٌ يعدك

---

(١) في آخره: قال: «لا، إنما يفتري الكذبَ الذين لا يؤمنون بآيات الله». ضعّفَه الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (مجاهد).

(٢) من حديث أبي هريرة وجابر وأنس بن مالك وعبد الله بن عمرو بألفاظ متقاربة أن آية المنافق ثلاث: «إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتُمن خان». وفي رواية أن صفات المنافق أربع، وزاد: «وإذا عاهد غدر»، وفي لفظ «وإذا خاصم فجر»، والروايتان في الصحيحين (مجاهد).

الساعةَ الثانية ويجيء الثالثة؟ هل تُدعَى إلى وليمة ثم يؤخرون تقديم المائدة انتظاراً لغليظ (ثلث منافق) فيعاقبون مَن حضر على الموعد بذنبِ مَن تأخر؟

هل تكون لك دعوى في المحكمة الساعة التاسعة ثم لا يراها الحاكم إلا في الحادية عشرة؟ هل يعدك الخياط بإرسال البذلة الجديدة إلى دارك نصف رمضان لتلبسها بالعيد، ولا تصل إلا ثالث أيام العيد؟ ابحثوا أنتم وخبّروني.

(٣) قال رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح: مَن غشَّنا [١] (وفي رواية: من غَشّ [٢] فليس منّا).

وهذا الحديث -بلسان أهل العصر- مرسوم اشتراعي بطرد مَن يغش المسلمين (أو يغش إطلاقاً) من الجنسية الإسلامية وحرمانه من حقوقها. فهل في المسلمين أحد يغش؟

هل يخلط البائعُ الحليبَ بالماء ويدّعي أنه حليب صاف؟ هل ينقص المتعهد الإسمنت من البناء ويغش الدولة؟ هل يشتغل العامل عندك ست ساعات ويتكاسل ساعتين ويأخذ أجرة اليوم كاملاً؟ هل وهل وهل في المسلمين اليوم أثر للغش؟ إن وجدتم هذا الأثر عند أحد من المسلمين فأبلغوه أنه مطرود من الجنسية الإسلامية بلسان الرسول ﷺ.

---

(١) قال الألباني في الصحيحة: صحيح بمجموع طرقه (مجاهد).

(٢) صحّحه الألباني في صحيح الترمذي وصحيح الجامع وصحيح الترغيب (مجاهد).

(٤) وفي الحديث الصحيح أن أعرابياً كان له دَيْنٌ على النبي ﷺ فجاء يطالبه بشدة وغلظة، فانتهره الصحابة وقالوا: ويحك، تدري مَن تكلم؟ قال: إني أطلب حقي. فقال النبي ﷺ: هلا مع صاحب الحق كنتم؟ هلا مع صاحب الحق كنتم؟ ثم أرسل فاستدان مالاً فوفى الأعرابي دينه، وزاده شيئاً كثيراً. فقال الأعرابي: أوفيت أوفى الله لك. فقال الرسول ﷺ: لا قُدِّسَت أمة لا يأخذ الضعيفُ فيها حقَّه غيرَ متعتع[١].

سمعتم؟ لا قُدِّسَت أمة لا يأخذ الضعيف حقه فيها، فهل يأخذ الضعيف حقه فينا كاملاً؟ وإذا دخل دائرة من الدوائر، هل يعامل معاملة القوي الغني صاحب النفوذ؟ وإذا طالبك الضعيف المسكين بحق له، هل تسرع إلى أدائه حقه كما تسرع إلى أداء القوي الغني؟

فكروا في الجواب الصحيح، فإذا كان الجواب نعم فأنتم أمة مقدسة، وإن كان الجواب لا فأنتم أدرى!

(٥) وفي الحديث الصحيح: لم تظهر الفاحشة (أي الزنا واللواط ومقدماتهما) في قوم إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع، ولم يَنقصوا الكيلَ والميزان إلا أُخذوا بالسنين والشدة وجور السلطان[٢].

---

(١) صحّحه الألباني في صحيح الجامع وصحيح ابن ماجه وصحيح الترغيب. قوله: غيرَ مُتَعْتَع، أي بلا تردّد ولا قلق أو إزعاج يصيب صاحبَ الحق (مجاهد).

(٢) صحّحه الألباني في الصحيحة وفي صحيح الجامع (مجاهد).

من صفات المجتمع الإسلامي أن الفاحشة لا تظهر فيه، فلا يجد الداخل عليه عورات بادية ولا فجوراً معلَناً، وان الأمانة منتشرة فيه، فلا يغشك أحد ولا يزن لك وزناً ناقصاً. فهل مجتمعنا الحاضر مجتمع إسلامي خالٍ من هاتين الرذيلتين؟

ابحثوا -يا أيها القراء- في أحوال المسلمين وانظروا: أين نحن اليوم من دين الإسلام؟

* * *

لن يخدعونا

من أمثال «كليلة ودمنة» أن ناسكاً اشترى كبشاً ضخماً ليجعله قرباناً، فانطلق به يقوده، فبصر به قوم من المَكَرة، فائتَمَروا بينهم أن يأخذوه من الناسك. فعرض له أحدهم فقال: أيها الناسك، ما هذا الكلب الذي معك؟ ثم عرض له الآخر فقال لصاحبه: ما هذا ناسكاً، لأن الناسك لا يقود كلباً.

فلم يزالوا مع الناسك على هذا ومثله حتى لم يشكّ أن الذي يقوده كلب وأن الذي باعه إياه سحر عينيه، فأطلقه من يده، فأخذه الجماعة المحتالون ومضوا به.

* * *

هذا مثالنا مع أمم الغرب؛ رأوا أن هذا الدين الذي جاءنا به محمد ﷺ فأعزّ به العرب جميعاً، مسلمهم ونصرانيهم، والمسلمين كلهم، عربيّهم وأعجميّهم، رأوا أنه مبعثُ القوة لنا، لا نُغلَب إن حافظنا عليه ولا يبلغون منا ما يريدون إن تمسكنا به، فحشدوا حشودهم وساقوا جنودهم من العاملين في إرساليات التبشير (وما قصدهم التبشير بالنصرانية، لأن النصرانية إنما انبثقت من هذه البلاد وخرجت منها، ولكن قصدهم التمهيد للاستعمار) ومن إرساليات التعليم (وما غرضهم تعليم العلم، ولكنْ نشرُ

الدعاية) ومن إرساليات الطب (وما مرادهم شفاء الأجسام بطبّهم، ولكنْ إمراضُ القلوب بدسّهم) فكانوا في اتفاقهم علينا وائتمارهم بنا مثل هؤلاء المكرة مع الناسك.

وكما خُدع الناسك عن كبشه حتى ظنه كلباً من الإعادة والتكرار والإيحاء المستمر (وتكرارُ الحبل يؤثر في صخرة البئر) خُدعنا نحن عن الحقائق الظاهرة فحسبناها باطلاً، وحسبنا باطلهم الذي ما زالوا يكررونه حقاً، وصرنا نردد مقالتهم، فندعو إلى التفريق بين الدين والسياسة وبين الدين والعلم، ونضرب الأمثلة بتاريخ أوربا.

وأنا لا أحب أن أفرض ما أراه على المخالفين فرضاً وألزمهم إلزاماً، بل أحب أن أناقشهم ويناقشوني، حتى نتفق على الحق في هذه المسألة، ونفرغ منها لنشتغل بما هو أجدى علينا وأنفع لنا. وهذه المناظرة المكشوفة خيرٌ من إفساد عقائد الناشئة في رواية خبر أو تلخيص كتاب سخيف لمؤلف جاهل مجهول.

والكلام في ذلك غداً إذا أراد الله[1].

* * *

---

(١) لم أجد الكلمة المتمّمة لهذه الكلمة، وقد ترددت: أأضم هذه إلى الكتاب أم أسقطها منه؟ وغلب على رأيي أن تُدرَج لأن المقصود منها واضح والمعنى مفهوم ولو لم تكمل (مجاهد).

لا تخافوا اليهود

لقد كتبنا نقول إن اليهود يستعدون ونحن نائمون وإنهم يجدّون ونحن هازلون؛ نستثير بذلك الهممَ ونستفزّ العزائم، ولكنا جاوزنا الحد وأربينا على المدى فانقلبت الدعوة شراً وضراً، إذ صار الناس يتوهمون في اليهود قوة وبأساً ويحسبون لهم حساباً. فوجب علينا أن نعود فنكشف لهم عن الحقيقة وندلهم على الواقع.

والحقيقة هي التي ترونها وتسمعونها كل يوم. ألا تسمعون أن جماعات من جند يهود يهجمون بأسلحتهم الحديثة وعتادهم الجديد ومدافعهم الثقيلة على القرى العربية في المنطقة الحرام، فيردّهم أهلها أقبح الرد ويقتلون منهم ويأسرون؟ هذا وهُمْ بدوٌ أو فلاحون جاهلون، ما درسوا فن القتال ولا عرفوا أساليب الحروب، فكيف إن لاقوا الجيش العربي المنظم؟

هذه هي حقيقة اليهود: إنهم لا يزالون أهل الجبن والمذلة، ولا يلقون عرباً في ميدان إلا ظفر بهم العرب، ولو لم تُخدَع الدول العربية يومئذ بخدع أميركا وإنكلترا وتهادن تلك الهدنة لألقي اليهود في البحر.

فلا تخشوا اليهود ولا تظنوا أن السلاح غيّر طبائعهم؛ إن

السيف في يد الجبان عثرة له عند الهرب. وما هذا الذي أقول حماسةً ولا خيالاً، ولكنه الحق الذي وقع أمس وما قبله.

لا تخشوا اليهود، ولا تجزعوا من المال الذي أمدَّتْهم به أميركا والسلاح الذي أعطتهم، فإنهم لا يقومون بهذا كله لدولة واحدة من دول العرب. ولكنْ لا تستهينوا بهم وتقعدوا عن الاستعداد لهم وتطمئنوا إلى شجاعتكم وجبنهم وعزتكم وذلهم، فإن الرجل إن احتقر عدوه فلم يستعدّ له غلبَه العدو، وإن بالغ في خشيته وانقطع قلبُه من خوفه لم يستطع أن يحاربه.

* * *

الطرق

فكرت اليوم في مسألة «فلسفية» صعبة، هي مسألة الطرق: لماذا اخترعها البشر؟ ووصلت -بعد التفكير الطويل- إلى نتيجة عجيبة لا يعرفها أكثر الناس، نتيجة فرحت بها فرح كولومب بكشف أميركا وهو لا يدري، هي "أن الطرق أنشئت ليمشي فيها الناس"!

لا، لا تضحكوا أرجوكم، ولا تقولوا: هذا مسألة بديهية معروفة لا تحتاج إلى كلام. إنها تحتاج إلى كلام طويل ليفهمها الناس، فإن كنتم في شك من ذلك فاسمعوا هذه القصة (بشرط ألاّ تُتخَذ قصتي سبباً لقطع أرزاق الناس، فما أريد ذلك والله. لا أريد إلا الإصلاح والتنظيم، فليذكر هذا كل من يقرأ هذه الكلمة).

والقصة أني كنت أمس مستعجلاً أريد أن أذهب إلى آخر سوق الحميدية، ولا أستطيع أن أركب سيارة ولا عجلة لأن السيارات والعجلات ممنوعٌ عليها هي والدراجات أن تدخل السوق. فشددت نفسي وجمعت همتي ومشيت، فلم أكد أضع رجلي في أول السوق حتى وجدت الطريق مسدوداً بالناس: هنا عربة يد عليها أشكال من البضائع، وبجنبها عربة أخرى، وهناك بياع جرائد وراءه ثلاثة من باعة الجوارب الأميركية قد بسطوها

على الأرض، وفي وسط السوق عدد من بياعي المعاطف، وخلال ذلك كله عشرة صبيان يبيعون الشفرات والأمشاط والمطاط، وحول كل واحد من هؤلاء جميعاً حلقة تساومه أو تخاصمه وتشتري منه أو تدفع له، وأمام بياع الجرائد نفر يحفّون به يدورون معه كلما دار ليقرؤوا أخبار الجريدة من عنواناتها ويوفروا ثمنها! وعند بائع المعاطف رجل يقيس المعطف ويجرّبه، واثنان يتفقدان طوله وعرضه وقماشه، وخمسة ينظرون إليه.

وعلى الرصيفين جماعات من «أكابر» القوم يتحدثون بجد ووقار، أو يتنادرون ويضحكون كأنهم في دورهم، وكل بائع ينادي ويصرخ بأعلى صوت يخرج من حنجرته، فيكون من ذلك مجموعة عجيبة قد اختلط فيها صوت الصبي الحادّ بصوت الشيخ المبحوح، فصارت كأنها برامج إذاعة دمشق في هذه الأيام، فأنت تسمع باستمرار: "النصر.. الجوز بورقة، الجوز بورقة.. البيان الوزاري.. بردى.. بفرنك.. المشط بفرنك.. القبس.. هيئة الأمم.. بورقة الجوز، الجوز بورقة.. دراع المطاط بفرنك.. الأيام.. الشفرات.." ولبيّاع الجوارب صوت نحاسي رنان ونفَس ممتد وهو يصرخ (الجوز بورقة، الجوز بورقة) بمعدل مرة ونصف في الثانية، وتخرج من حلقه الحروف متلاحقةً متلاصقةً كأنها رصاص الرشاش.

وتكون في وسط هذه المعمعة وإذا برجل طويل عريض قد أقبل مسرعاً كالعاصفة التي تهب فتكتسح كل شيء أمامها، فإذا وصل إليك صدمك صدمة دبابة من الوزن الثقيل ومضى، فتلتفّت فتلقى سيارة آتية من خلفك مسرعة كأنها البلاء النازل، فتعجب

كيف دخلت السوق وقد منع دخول السيارات إليه، وتنظر إليها فتلقاها سيارة شرطة تسير بسرعة سبعين ميلاً، تصوت صوتاً يثقب الآذان!

وهذا هو أكبر أسواق المدينة والطريق إلى الجامع الأموي. أفلا ترون -أيها القراء- أننا نحتاج إلى كلام طويل لنُفهم الناس هذه الحقيقة الصعبة التي وصلت إليها بذكائي وعقلي، وهي أن الطرق إنما وُجدت ليمشي الناس فيها؟

* * *

ملاحظة : أكرر القول إني لا أريد قطع أرزاق البيّاعين وطردهم، بل أريد أن يخصَّص لهم مكان آخر يستطيعون أن يبيعوا فيه من غير أن يؤذوا المارّين.

* * *

العدالة الاجتماعية

زارني شرطي دمشقي فقال إن له اثنتي عشرة سنة في الوظيفة وراتبه خمس وخمسون ليرة في الشهر، ويبلغ مع الضمائم وتعويض الأسرة مئة وخمساً وخمسين، وله امرأة وثمانية أولاد، وقد نُقل إلى اللاذقية. وسألني: كيف يمكن أن يعيش فيها؟ من أين يأتي بأجرة الدار وثمن الطعام واللباس والدواء وتكاليف المدرسة؟

كيف يمكن أن يعيش؟ أأنا الذي يُسأَل عن هذا؟! إنما تُسأل عنه الحكومة، إنما تُسأل عنه السلطات التشريعية التي وضعت قانون الموظفين وحددت المراتب والرواتب.

كيف يمكن أن يعيش؟ ألا يتنازل أحدٌ من أهل الحلِ والعقد فيفكر فيه؟ ألا يلتفت إليه أحد؟ أليس بشراً؟ أليس سورياً؟ أليس له على هذا الوطن الذي يخدمه ويحمي أمنه وراحته حق السكنى والطعام واللباس له ولأسرته؟

والحارس الذي يبقى في الطرقات في تلك الليالي الباردات، على حين نأوي نحن إلى دورنا الدافئات، والذي يسهر الليلَ كله ليدفع عنا الأخطار ونحن نيام، ألا يحق له أن يحيا الحياة التي يتمتع بها الدواب: يأكل وينام؟ فهل يكفيه راتبه ليجد هو وأهله

كوخاً ينامون فيه وطعاماً يشبعون به؟ وآذن المحكمة، وخادم المدرسة، وموزع البريد، والدركي، وجندي الإطفاء، ومراقب الإنتاج، وممرض المستشفى... كيف يعيشون؟

وكيف يكونون أعفّةً أمناء لا يسرقون أموال الدولة ولا يبتزون أموال الناس؟ لقد نُشر في الجريدة الرسمية من نحو سنة أن أقل أجرة للقميمي (الذي يقعد على الزِّبْل ويشتغل بوقود الزبل) مئة وعشرون ليرة، فإن أعطاه الحمّامي أقلَّ منها كان له أن يدعي عليه في المحكمة ويطالبه بالفرق، فخبروني: على مَن يدعي الموظف الذي تعطيه الحكومة أقل من الراتب الذي حددته للقميمي؟ وإلى أي محكمة يرفع شكواه؟ ومن هو الذي ينصفه ويدفع عنه ظُلامته؟

ومتى تفرغ الحكومة لإصلاح الملاكات، فتلغي الوظائف الكبيرة التي لا ضرورة لها، وتزيد الرواتب الصغيرة التي لا يُصبَر عليها، حتى لا يكون في الدولة موظف لا عمل له، ولا يكون فيها موظف لا يكفيه راتبه؟

وبذلك نكون أمة ديمقراطية، ويكون فينا عدالة اجتماعية.

* * *

مزاح أم إجرام؟

ما هذه العادة القبيحة التي تسربت إلينا، فأخذناها على غير وجهها وأجريناها غير مجراها؟ عادة الترامي بالثلج التي تكون -في بلاد الناس- بين الأصدقاء والخلطاء الذين يألفون المزاح والمباسطة، وبالثلج الهش الخفيف الذي لا يؤذي، فحولناها نحن همجيّةً ووحشيةً وعدواناً على الرجل العاجز والمرأة المسكينة والفتاة المحتشمة والمريض المتألم، حتى صارت شوارع الشام -أمسِ- كساحات القتال؛ لا يأمن المرء فيها على رأسه أن يشجه حجر ملبَّس بالثلج، ولا على ثيابه أن يصيبها الثلج المخلوط بالوحل وبالأقذار يؤخَذ من أرض الشارع ويُرمى به الناس.

ولقد شاهدت كتلة من الثلج فيها حجر ألقيت على الترام فكسرت النافذة وجرحت وَجْنة الراكب أمامها وأصابت ثلاثة بأذى، ورأيت جماعة من الشبان مرابطين في أول شارع خالد بن الوليد يكبسون الثلج كتلاً ضخمة بحجم البطيخة وكلما مر مارٌّ ضربوه بواحدة منها ضرباً، ولقد رأيتهم ضربوا فتاة على ظهرها فانكفأت على وجهها، فأقبل رجل ليرفعها فضربوه حتى وقع فوقها! وضرب شبابٌ سائقَ الترام فاضطرب حتى كاد أن يفلت منه المقود فيخرج عن الخط أو يصطدم بسيارة آتية أو بجدار قائم وتكون فاجعة!

فما لهؤلاء الشباب؟! أوَما كان خيراً لهم لو أنهم وقفوا عند المفارق والمنعطفات يساعدون العاجز ويأخذون بيد الطفل ويسعفون المريض؟ أوَما كان أفضل -عند الله والناس- لو أنهم جمعوا جموعهم من طلاب ومن كشافين فداروا على الفقراء ينظرون ما فعل الله بهم في هذا البرد، ثم داروا على الأغنياء يأخذون لهم منهم بعض حقوقهم في أموالهم؟

لا. إن المسألة خرجت عن المزاح ودخلت في الإجرام، وصار نزول الثلج باباً لكل سفيه وخبيث ليعتدي على الفاضلات من النساء، ويسيء إلى الأفاضل من الرجال، ويعبث بالأمن والحريات!

* * *

ما أضعفَ الإنسان!

أخي الأستاذ وديع،

أرجو أن تعتذر عني للقراء لأني لا أستطيع أن أكتب اليوم الكلمة ولم أستطع الذهاب إلى عملي، لقد شُغلت عن ذلك بنفسي بشيء يُشغل عن الكتابة والعمل والطعام والشراب، بنَوْبة رمل أعاذك الله منها ولا عرّفك بها.

بيَدٍ من الحديد أحس أنها تقبض على جنبي، وبمثل طعنات الخنجر الحامي تتوالى عليّ على عدد الثواني، وبنفَسي يضيق حتى لكأني أختنق، وببطني ينتفخ حتى لكأنه ينفجر، فأنا أتلوّى وأتقلّب لا أقدر أن أستقر دقيقة ولا أكفّ عن الصراخ لحظة.

وليس يستطيع الطب أن يسعفني إلا بحقن «السيدول» التي لا تذهب بالمرض فتشفي من الوجع، بل تقتل الحس وتميت الشعور فتُنسي الألم. والسبب كله... أوَ تعرف يا سيدي ما السبب؟

إنها حبة رمل لا تكاد تدركها العين. هذه هي التي فعل بي الأفاعيل.

فيا لغرور الإنسان! اخترق الجبال، وخاض البحار، وركب السحاب، وأنطق الحديد، وسخر النور والكهرباء، وحاول أن

يخترق بعقله حجب المستقبل، وظن أنه شارك الله في ملكه، فأدّبَه الله بحبّة رمل لا تكاد تدركها العين، تصرعه وترميه وتسلبه قدرة عقله وبطش يده، وتجعله يصرخ كالقط الذي قُطع ذنبه. وبكأس ماء إن حُرِمَها شراها بنصف ملكه إن كان ملكاً، وإن مُنع خروجَها من جسمه شرى إخراجها بالنصف الثاني.

ألا ما أضعفَ الإنسان!

* * *

القليل يصنع الكثير

حدثنا الأستاذ الحوماني أن جامعة عليكرة في الهند إنما أنشئت بآنة، و«الآنة» أصغر قطعة من النقد الهندي. وذلك أنهم اتفقوا على أن يعطي صاحب الدار ضيفَه آنة بدلاً من فنجان القهوة أو حبة السكر، وهذا يضعها في صندوق مُعَدٍّ لذلك، فاجتمع من هذه الصناديق المالُ الذي أقيمت به جامعة عليكرة، أكبر جامعة في ديار الإسلام ومن أكبر جامعات الأرض.

قال أحد الحاضرين: "على أن لا يكون المفتاح مع صاحب البيت"! وقصّ علينا قصة موظف استحل الرشوات وتعوّد أخذ المال الحرام، فوضعوه في عمل لا يستطيع معه أن يحتال على الناس، فعلّق في غرفته صندوقاً كتب عليه «صندوق فلسطين» وصار يُلزم كل مراجع أن يلقي فيه شيئاً، ثم يلقي هو آخر النهار كل شيء في الصندوق في جيبه.

* * *

ونحن -إذا أمِنّا السرقات ووثقنا من نظافة الأيدي التي تجمع- استطعنا أن نحقق أعظم المشروعات، ونجعل سوريا في عشر سنين دولةً من دول أوربا في حضارتها وعمرانها بلا جهد ولا تعب.

ولقد كتبتُ قديماً في «الرسالة» أن جمعيةً تألفت في السويد (على ما أذكر) اسمها جمعية أكاليل الجنائز، عملها أن تقنع من يريد أن يقدّم إكليلاً لجنازة بأن يدع تقديمَه ويعطي الجمعية ثمنه، فاجتمع لها من ذلك أموال أقامت بها عشرات الملاجئ للفقراء[1].

وكتبتُ من سنتين في «النصر» أدعو إلى إبطال تقديم السكاكر -في العقود والأعراس- في هذه العلب الفخمة، وتقديمها في قراطيس، وجمعِ أثمان العلب للبِرّ والخير، وحسَبتُ ما يجتمع من ذلك في دمَشق فظهر أنه يمكن أن يُبنى به -في كل سنة- مستشفى كمستشفى المواساة![2]

وما أكثر الأموال التي ننفقها جزافاً والوطن يحتاج إلى جزء منها: الأموال التي تُنفَق على الزهر والورد الذي يلقى بعد يومين على المزابل، والأموال التي تُصرف على بدلة العرس وهي لا تُلبَس إلا مرتين أو ثلاثاً ثم تعلق في الخزانة حتى تَصْفَرَّ ويأكلها العث، وهذه التحف التي توضع في غرف الجهاز فتجعل غرفة الاستقبال كدكان بائع الموبيليا وتدل على ذوق سقيم، وهذه الثريّات البلورية الجديدة التي ننفق فيها كل سنة أكثر من مليون وثلاثمئة ألف ليرة، تذهب إلى أيدي الأجانب ثم لا تكون عاقبتها إلا الكسر، مع أن الثريات النحاسية التي تُصنع في بلادنا أبهى منظراً وأطول عمراً، وما ينفق على أدوات الزينة...

---

(١) انظر مقالة «بطون جائعة وأموال ضائعة»، وهي في كتاب «في سبيل الإصلاح» (مجاهد).

(٢) انظر مقالة «اقتراح» في كتاب «مقالات في كلمات» (مجاهد).

ولو أن الأمة تنبهت وتيقظت وتألفت فيها جمعيات كجمعية أكاليل الجنائز، تقصر كل جمعية جهدَها على وجه واحد من هذه الوجوه الكثيرة، لاستطاعت كل جمعية أن تعلّم كل سنة ألفَ أمّي، أو تداوي ألف مريض، أو تضم إليها ألف متشرد.

فهل جاء الوقت الذي تستجاب به هذه الدعوة، أم أنها سابقةٌ أوانَها؟ أظن أنها سابقة أوانها!

* * *

احترموا عقيدتنا ودِيننا

أحب أن أمهّد لما سأقوله اليوم برجاء القراء أن يسألوا مَن ذهب إلى أوربا أو أميركا من إخوانهم عن حال الكنائس فيها، وكيف تمتلئ يوم الأحد بكبار القوم ووجهائهم، وأن يسألوا مَن درس الفلسفة وتاريخ العلم عن الفلاسفة العظام والعلماء الأكابر وعن إيمانهم بالله واستمساكهم بالدين، وأن يسألوا مَن كان حضر حفلات تتويج ملك الإنكليز أو قرأ وصفها كيف كانت تفتتح بالصلاة وكان يتصدرها رجال الدين، وأن يرجعوا إلى الصحف أو يقرؤوا في «المختار»[1] كيف كان الملوك وكبار رجال السياسة يدعون الناس -أيام الحرب الأخيرة- إلى الرجوع إلى الله، وأن يبحثوا عن قوة الكنيسة (في بلاد القوم) وسيطرتها على نفوس الناس وإكبار الناس لرجالها.

أسوق هذا كله لأقول لمَن لا يرى الحق حقاً إلا إن جاء

---

(١) مجلة «المختار من ريدَرْز دايجِسْت»، صدرت طبعتُها العربية الأولى بين سنتَي ١٩٤٣ و١٩٤٧، ثم صدرت الطبعة الثانية عن دار أخبار اليوم أول سنة ١٩٥٦ وتوقفت غداة حرب حزيران ١٩٦٧، ثم عادت إلى الظهور في طبعتها الثالثة في الشهر الأخير من سنة ١٩٧٨ عن دار النهار في بيروت، واستمرت حتى شهر نيسان ١٩٩٣ (مجاهد).

من الغرب ولا يرى الخير إلا إن كان عليه دمغة الغرب، أقول: إن التمسك بالدين والمحافظة على مظاهره وإقامة شعائره ليس رجعية، ولا جموداً ولا منافياً للحضارة ولا مخالفاً للتمدن، وإن دستورنا أوجبَ التمسك بقواعد الإسلام ومنعَ إعلان المخالفة له والخروجَ عليه.

لذلك أطلب من الحكومة -وقد جاء رمضان- باسم جماعة العلماء وباسم جمهرة الناس، أن تحافظ على مظهر الصيام وأن تمنع المجاهرة بالفطر، وألاّ تسمح لمطعم أن ينصب الموائد مكشوفةً على قوارع الطرق، ولا لموظف أن يشرب القهوة أو السيكارة علناً أمام المراجعين، وأن تحترم وزارةُ المعارف أحكام الدين وكرامة الصائمين فلا تجعل الامتحانات نهاراً يُقدَّم فيها الماء البارد ويدخَّن فيها الدخان، والصائمون من التلاميذ والمراقبين يرون ويتألمون.

لتكن الامتحانات ليلاً، ما الذي يمنع أن تكون ليلاً؟ وكيف يستطيع الطالب المسلم أن يجمع ذهنه ليكتب وهو يرى ما يثير أعصابه من العدوان على دينه ومن الازدراء بشخصه؟

إن الديمقراطية هي حكم الأكثرية، وإن الكثرة الكاثرة من السوريين من الصائمين. فلا يجوز في دين الله ولا في قواعد الذوق، ولا في شرعة الديمقراطية ولا في حكم الدستور، أن تعدوَ القلّةُ على الكثرة وتؤذيها في دينها وكرامتها.

إننا لا نقول لغير المسلمين: "صوموا معنا"، ولكن نقول: "لا تعلنوا فطركم أمامنا". على أنّ من الإنصاف أن أقرر أن إخواننا

المسيحيين كانوا دائماً على درجة عالية من اللطف والذوق، وأن الأذى إنما كان يأتينا ممن يدّعي بأنه مسلم وهو في الحقيقة عدو للإسلام بعيد عن الإسلام.

إنني أطلب من الحكومة باسم العلماء، وباسم الجمعيات الإسلامية، وباسم جمهرة الناس تطبيقَ أحكام الدستور، واحترامَ عقيدة الشعب، ومنعَ المجاهرةِ بالفطر والخروجِ على أحكام الصيام.



حساب النواب

رتبت اليوم مكتبي وجمعت أوراقي، فإذا بين يديّ عشرات من بيانات المرشحين وصورهم ووعودهم: مَن أراد أن ينصر الفلاّح ويحمي الضعاف ويقلل الضرائب ويفتح في كل شارع مدرسة ويشق في كل حي شارعاً، ومن وعد (إي والله) بأن يوزع الخبز مجاناً إذا صار نائباً ويزوّج كل شابة وشاب، ولم يبقَ عليه إلا أن يجعل سوريا كالجنة التي وعد الله للمتقين، فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين!

وهممت بأن ألقي هذه الأوراق في السلة، ثم فكرت فعدلت واحتفظت بها، وذهبت فاشتريت دفتراً جديداً كتبت اسم كل نائب في صفحة منه وكتبت برنامجه ومشروعاته ووعوده، وعزمت على تسجيل كل ما سيعمله هذا النائب في المجلس لتحقيق هذه الوعود، حتى إذا جاءت الانتخابات القادمة نشرتها على الناس، ليميزوا بين الصادق والكاذب والطيب وغير الطيب.

* * *

بقي شيء واحد لا أملكه أنا، هو أن الإذاعة تنقل إلينا كثيراً من الحفلات الخطابية والغنائية أو تنقل الصلاة والخطبة من الجامع، فلماذا لا تنقل جلسات المجلس النيابي (إلا السرّي

منها) ليسمع كل واحد -وهو في بيته- ما يجري في المجلس، ويسجل على كل نائب الحسنات والسيئات، ويعرف من يقول خيراً ومن يقول شراً، ومن هو أخرس لا ينطق ولا فرقَ بينه وبين الكرسيّ إلا أن له يداً تُرفع عند اللزوم... و«تُمَدُّ» عند اللزوم!

فهل تستجيب الإذاعة لهذا الطلب؟ وهل يتخذ كل واحد دفتراً مثل دفتري؟

* * *

في الاقتصاد

كنت أعتقد دائماً أني أجهل الناس بأمور الاقتصاد وأبعدُهم عن معرفة طرق التدبير ووجوه التوفير، وكنت أجِد[1] -لذلك- في نفسي وأتألم. فلمّا كانت هذه الحرب الأخيرة ورأيت ما كنا عليه وما كان عليه الناس رأيت أني من علماء الاقتصاد وأئمة التدبير بالنسبة إلى مَن كان في أيديهم الأمرُ والنهي وخزانة الدولة، وصرت أعزّي نفسي وأسليها.

اجتاحت هذه الحربُ بلادَ الناس[2] وأصابتها بالخراب ورمتها بنقص الأموال والثمرات، فكانت عليهم جحيماً وكانت لنا نعيماً، إذ سلمنا من شرورها ونلنا من خيراتها فزادت في أيدينا الأموال ونشأت الصناعات واتسعت التجارات. فماذا صنعوا وماذا صنعنا؟

---

(١) من الوَجْد، وهو الحزن. نقول: وَجَد يَجِد وَجْداً: حزن. ومَوْجِدةً: غضب. ووجوداً ووجداناً: أدرك ضالّته وعثر على مفقوده.

وأشير -بالمناسبة- إلى خطأ فاشٍ على الألسنة والأقلام، فإنهم يقولون لشيء ضاع: عليك إيجاده. والصواب "العثور عليه"، أما الإيجاد فإنه إنشاء الشيء من عدم. ويقال: أوجدتُكَ مطلوبَك (بمفعولين) أي جعلتك تجده وتظفر به (مجاهد)

(٢) يريد الحرب العالمية الثانية التي استعَرَتْ في أكثر الأرض المعمورة، ولم يلحق بلادَ الشام فيها أذى يُذكَر (مجاهد).

صبروا عليها وضيّقوا على أنفسهم وأمسكوا من الجوع بطونهم، فلا يأكلون إلا بقدر ولا يلبسون إلا بقدر، كي يوفروا المال ليشتروا به النصر. فلما نالوه لبثوا يحرمون نفوسهم ويضيّقون عليها، ليبيعونا من الكماليات ما يسترجعون به المال الذي اشتروا به النصر، وانطلقنا نحن نفتش عن نافذة نلقي منها أموالنا ونبددها ونضيعها.

كان ملك إنكلترا أثناء الحرب يعتذر عن تقديم الحلوى في الحفلات لضيوفه لأن جرايته منها لا تقوم بذلك، وكنا نحن ننصب هنا وهناك مائدة طولها ثلاثون متراً في كل شبرين منها صحن حلو من «مطعم الأمراء»[1] مرصوص رَصّاً كأنه البناء المشيد، لا يقل ثمنه عن خمس وثلاثين ليرة. وها هي ذي إنكلترا لا تزال إلى اليوم تعيش على نظام الجراية وتحشد كل ما تستطيع من جهود وقوى لزيادة التصدير، ونحن لا نزال نتسابق إلى استيراد ما ينفع وما لا ينفع، ونتفنن في وجوه البذخ والتبذير، حتى صارت الآلاف من نساء أغنياء الحرب في بلادنا والوارثين وكبار الموظفين تلبس -بيقين- أثمن وأغلى مما تلبسه ملكة بريطانيا العظمى!

فكانت النتيجة أن ضاع (أو كاد يضيع) كل ما اكتسبناه أيام الحرب، ونزلت أثمان أسهم الشركات التي ألّفناها، وقلّ المال في أيدينا، وأوشك أن يصير مثلنا ومثل الإفرنج كذلك الذي ركب في المسعى بين الصفا والمروة حيث يمشي الناس فأذلّه الله حتى

---

(١) كان مطعماً مشهوراً في أول سوق الحميدية، ولا أدري ما صنعت به الأيام (مجاهد).

مشى على جسر بغداد حيث يركب الناس.[1]

وهذا خطر على أموالنا تستطيع الحكومة أن تدرأه عنا حين تمعن في إنجاز مشروعاتها الإصلاحية، وحين تعلم الناس أن يقلدوا الإفرنج (إذا قلدوهم) في مثل هذا، لا في اللهو والإلحاد والمذاهب الهدامة والعادات المؤذية.

* * *

(١) في العقد الفريد (٢/٣٥٤): قال العُتبيّ: "رأيت مُحْرزاً مولى باهلة يطوف على بغلة بين الصّفا والمروة، ثم رأيته بعد ذلك على جسر بغداد راجلاً، فقلت له: أراجلٌ أنت في مثل هذا الموضع؟ قال: نعم، إني ركبت في موضع يمشي الناس فيه، فكان حقيقاً على الله أن يُرَجِّلَني في موضع يركب الناس فيه" (مجاهد).

خاطبوهم بلغة المدفع

هذي أول مرة -مذ بدأت حرب فلسطين- استطعت فيها أن أرفع رأسي الذي أحناه الخجل وأثقله الألم. هذي أول مرة وضع فيها قادة العرب أقدامهم على الطريق، بعدما كانوا يتيهون في الفلاة ويمشون على غير الهدى. هذي أول مرة تقرر فيها الجامعة قراراً، فيقول العرب: "صحيح"، وكانت من قبل تقرر فلا يرضى عنها أحد. هذي أول مرة تدرك فيها الحكومات أن ساحة المعركة ليست في نيويورك، وأن سلاحها ليس الخطب ولا المذكرات، ولكن المعركة -كما كان يقول الأستاذ فارس خوري- هنا: في فلسطين، والسلاح هو الدم والنار والحديد.

هذا هو الطريق، قد وضعتم الآن أقدامكم عليه فسيروا قدماً. اضربوا ضربة الحق ودعوا اليهود يشتكون هم إلى مجلس الأمن، فلقد كنا في المدرسة نحتقر التلميذ الذي لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الشر فيذهب باكياً إلى المعلم، فيقول بصوت رخو وعين دامعة وشفة مقلوبة: أستاذ، هاد ضربني!

وكان شاعرنا الجاهلي يقول:

بُغاة ظالمين وما ظلمنا ولكنّا سنبدأ ظالمينا

ونحن لا نريد أن نظلم أحداً، فقد أذهب الله عهد الجاهلية

وحرّم الظلم، ولكنا لا نريد أن نكون كعير الحي ولا الوتد، ولا كالشاة بين أنياب الذئب. إننا نحب أن نتأدب بأدب القرآن الكريم، جلّ من أدب، ونأخذ بقول الله عز وجل، تقدّس من قول: ﴿ومَنِ اعْتَدى عَليكم فاعتَدُوا عليه بمِثْلِ ما اعْتَدى عليكم﴾.

مَن ضربكم بالمدافع فاضربوه بمثلها، لا تضربوه بالكلام. ومن أخذ الإبل فاستردّوا منه الإبل وأدّبوه، لا توسعوه شتماً وأودى بالإبل! وإن صادر اليهود أموالكم فصادروا أنتم أموال اليهود، وإن طردوكم من منازلكم فاسترجعوا أنتم -على الأقل- هذه المنازل، واطردوهم منها كما طردوكم.

﴿وأعِدّو لهُمْ مَا استَطعتُم مِن قوّة﴾، صدق الله العظيم. ودعوا الكماليات ووفّروا المال، واشتروا السلاح وانشروا نظام الفتوة وافتحوا معسكرات التدريب. درِّبوا الرجال على القتال، وعلموا النساء اتقاء الغارات، واجعلوا البلد كلها ثكنة كبيرة.

الآن وضعتم أقدامكم على الطريق، فسيروا قدماً، فإنه والله ما خنس اليهود وأبلسوا، ولا كان هذا القرار الرباعي إلا لأنكم أفهمتم الدنيا أنكم مستعدون للضرب وأنه مضى عهد الكلام.

إن اللغة التي يفهم بها البشر اليوم هي لغة المدفع، والحق على شفار السيوف وحدّ الأسنّة، لا بأطراف الألسنة ولا بصحائف الكتب. فلا تتكلموا بعد اليوم إلا بلغة المدفع!

* * *

في نقد الإذاعة

شرعت أكتب هذه الكلمة وما أدري: أتُنشَر أم تؤثر «الأيام» المجاملة فتُطوى ويذهب عنائي في كتابتها هدراً، لذلك أسطر فيها طرفاً مما ينبغي أن يقال، وأدع الباقي ليوم آخر.

وليثق القراء أني ما أكتب عن «الإذاعة» بغضاً بمن فيها، ولا حقداً عليها، ولكني أكتب للمصلحة العامة. وتحت يدي كتب ورسائل كثر تفيض بالشكاة المُرّة وبالألم والحسرة على ما انتهت إليه إذاعتنا، وتقول إن إذاعة إسرائيل لا تزال تحفز الهمم وتشدّ العزائم، وتعدّ قومَها لليوم الأسود وتوجّههم وجهة الجِدّ والحماسة، وإذاعتنا تخدر الأعصاب بهذه الأغاني الماجنة الرخوة.

وإذا هي جاوزت إلى تلاوةٍ ذكّرت السامعين بحديث: «رُبّ تالٍ للقرآن...[1]» لأنها لا تكاد تجيئنا إلا بقارئين يُغنّون بالقرآن غناء، ويقفون حيث لا يجوز الوقف، ويتلون آيات العذاب بالنغمات اللطاف وآيات النعيم باللحن القوي، ويقرؤون أولَ

---

(١) رواه الغزالي في الإحياء بلفظ «رُبّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه» وبلفظ «رب قارئ...»، وليس بحديث، بل هو قولٌ مَرويّ عن ميمون بن مهران، ومعناه واضح (مجاهد).

الآية بالقرار الخافت الذي لا يُسمَع، ثم يَثِبون في آخرها إلى الجواب العالي الذي لا يُدرَك، ومنهم من يقطع القراءة في وسط الآية ويقف عند مبتدأ لا خبر له أو فعل لم يأت فاعله لأن الوقت انتهى!

وإن أسمعَتنا الإذاعة أحاديث كان أكثرها فيّاضاً باللحن القبيح المزري. وأذكر -على سبيل المثال- الحديث الذي أذيع صباح الجمعة الماضية، وهو ليس إلا سرداً لقصة تاريخية مشهورة، ومع ذلك لم يعرف المحدّث كيف يقرؤها، فقرأ: "جدٌّ لما جئنا له" وأعادها مرتين وهو يجعل «جد» اسماً مرفوعاً ولا يدري أنه لا يبقى لها بذلك معنى، وإنما هي «جُدَّ»، فعل أمر من الجِدّ. وقرأ «الفضل بن عياض»، وأطفال المدارس يعلمون أنه «الفضيل»، وقال: «بر» بضم الباء وهي بالكسر[1]، وقال عليٌّ بن أبي طالب (بالتنوين) مع أن القاعدة (التي تُقرأ في الصف الأول الثانوي) أن كل عَلَمٍ وُصف بابن لا يُنوَّن.

وهذا مثال صغير من اللحن في الأحاديث، أما اللحن في الأخبار فلا يمكن إحصاؤه. والأخبار لا يُراعى في سردها مصلحة قومية ولا وعي وطني، بل ربما جاء فيها ما هو مُنافٍ للمصلحة القومية، كخبر إعطاء جائزة للدكتور بانش ومدحه والثناء عليه مع أن موقفه في فلسطين معروف (والجائزة لم تُعطَ له إلا بفعل اليهود كيداً للعرب وإيذاءً لهم).[2]

---

(١) البِرّ (بكسر الباء) الخير، والبُرّ (بضمها) حَبّ القمح.

(٢) كان الكونت برنادوت (السويدي) أولَ وسيط أممي في فلسطين، وقد اغتاله اليهود في القدس سنة ١٩٤٨ لأنه اقترح وضع حد للهجرة=

والجلسات التي تُعقد للطلاب أقل ما يقال فيها إنها لا ترضي العلم ولا اللغة، ولا يمكن أن ترضيهما ما دام يقوم عليها مذيع عادي ولم يوسد أمرها إلى أستاذ كبير مشهود له بالعلم والبيان.

إن الإذاعة هي ترجمان الأمة ولسان الوطن، وإنه ينبغي أن يكون عليها أديب ضليع قوي المشاركة في العلم، موثوق من إيمانه ومتانة أخلاقه وإخلاصه للوطن.

* * *

= اليهودية وعارضَ ضَمّ بعض الأراضي الفلسطينية للدولة اليهودية المقترَحة في قرار التقسيم، فخلَفه المبعوث الدولي الأمريكي رالف بانش وخالَفه في منحاه، فمنح اليهودَ أكثرَ مما يريدون ومنحهم ما لا يستحقون، فاستحق جائزة نوبل للسلام! (مجاهد).

أثر الإيمان

من أعظم الكتب التي قرأتها أثراً في النفس وجلباً للسعادة كتاب «دع القلق وابدأ الحياة» الذي ألّفه ديل كارنيجي وترجمه عبد المنعم الزيادي.

فيه فصل قيِّمٌ عن أثر الإيمان في سعادة الإنسان، روى فيه عن وليم جيمس (فيلسوف أميركا الذي كان أستاذ الفلسفة بجامعة هارفارد) قوله: "إن أعظم علاج للقلق هو الإيمان". اشتمل هذا الفصل على قصص واقعية كثيرة لرجال معروفين في أميركا، عانوا أشد الأزمات النفسية حتى أشرفت بهم الحال على الجنون أو الانهيار، فلم ينقذهم إلا الإيمان.

قال فيه (والعبارة بلفظ المترجم): أعرف رجالاً ينظرون إلى الدين نظرتهم إلى شيء مقصور على النساء والأطفال والوعّاظ، ويتباهون بأنهم «رجال» يسعهم أن يخوضوا المعارك بلا سند ولا معين، فما أشدَّ الدهشةَ التي تتولاهم حين يعلمون أن معظم «الرجال» (أي الأبطال المشهورين) يضرعون إلى الله كل يوم أن يساندهم ويؤازرهم. ثم قال: لقد أدرك هؤلاء الأبطال الحقيقة التي قالها وليم جيمس: "إن بيننا وبين الله رابطة لا تنفصم، فإذا نحن أخضعنا أنفسنا لإشرافه -سبحانه- تحققت كل أمانينا".

وكثيرون من هؤلاء «الأبطال» قد تحققوا بأنفسهم من صدق قول الدكتور ألكسيس كاريل، مؤلف كتاب «الإنسان ذلك المجهول» وأحد الحائزين على جائزة نوبل؛ قال: لعل الصلاة هي أعظم مولّد للنشاط عُرفت إلى يومنا هذا، وقد رأيت -بوصفي طبيباً- كثيراً من المرضى فشلت العقاقير في علاجهم، فلما رفع الطب يديه عجزاً وتسليماً تدخلت الصلاة فأبرأتهم من عللهم. إننا نربط أنفسنا -حين نصلي- بالقوة العظمى التي تهيمن على الكون، ونسألها ضارعين أن تمنحنا قبساً منها نستعين به على معاناة الحياة. بل إن الضراعة وحدها كفيلة بأن تزيد قوتنا ونشاطنا، ولن تجد أحداً ضرع إلى الله مرة إلا عادت عليه الضراعة بأحسن النتائج.

وبعد أن روى قصصاً يدلل بها على ما ذكر قال: ترى لماذا يجلب الإيمان بالله والاعتماد عليه سبحانه الأمان والسلام والاطمئنان؟ سأدع وليم جيمس يجيب عن هذا السؤال: إن أمواج المحيط الصاخبة لا تعكر قط هدوء القاع العميق، وكذلك الإيمان لا تعكره التقلبات السطحية، فالرجل المتدين حقاً عصيٌّ على القلق، محتفظ أبداً باتزانه، مستعد دائماً لمواجهة ما عسى أن تأتي به الأيام من صروف. فلماذا لا نتجه إلى الله إذا استشعرنا القلق؟ ولماذا لا نؤمن بالله ونحن في أشد حاجة لهذا الإيمان؟

* * *

نظامٌ يحتاج إلى إصلاح

نحن نشكو دائماً من كل شيء ونطلب الإصلاح الشامل الكامل، فإذا لم يتمّ دفعةً واحدة (ولا يمكن أن يتم) لم نصنع شيئاً، مع أن المعقول أن نباشر بالإصلاح الجزئي، وأن ننزع حجراً حجراً من هذا البناء المتداعي ونأتي بأحجار أمتن وأقوى.

سقتُ هذه المقدمة الطويلة لئلا يقول أحد إن هذا الرجل يتكلم عن «المختارين» والبلاد تتكلم عن الوزارة والأزمة الوزارية. سقتها لأقول بأن الإصلاح لا يبدأ من فوق، من الشرفات والقباب، ولكن يبدأ من تحت، من الأساس والدعائم. ونظام المختارين -الذي يُعمَل الآن على تعديله- أسخف نظام وأغربه وأبعده عن روح العصر ومطالب الزمن.

«المختار» -سواء أكان معيّناً تعييناً كما هو الآن أم منتخباً انتخاباً كما يريدون أن يكون- رجل لا يكون على الغالب إلا عامياً، لا يُشترط فيه علم ولا دراسة ولا سن، وليس فوقه مراقبة فعليّة، وليس لعمله أسلوب واضح، وهو مع ذلك المؤتمَن على أعراض الناس وأموالهم وأخلاقهم! مَن أراد أن يتزوج احتاج إلى تصديق المختار والإمام، ومن أراد أن يطلق، ومن شاء أن يبيع عقاراً، ومن ابتغى أن يدخل وظيفة، ومن ماتت له بنت

أو وُلد له مولود... كل ذلك مردّه للمختار. ومِن المختارين مَن يتحكم في حيّه تحكم الجبارين، فيشاركهم في مهر المخطوبة وثمن البيت ليضع لهم خاتمه الكريم، ومنهم من هو في وظيفته هذه من أربعين سنة، لا يُنقَل ولا يُعزَل ولا يُبدَّل.

أمّا حوادث المختارين فكثيرة كثيرة، لا تتسع لها عشرٌ من هذه الكلمات. وآخرها ما صنعه مختار حي من الأحياء، فقد جاءته امرأة وخبّرته أن زوجها قد مات وهي ترجو أن يشهد لها، فحوقل واسترجع وأخذ المبلغ وكتب لها. وأخذت الشهادة إلى الشرطة فصادقت على صحتها، ودارت بها حتى وصلت إلى النفوس، فسجل الموظف وفاة عزيزة بنت فلان. قالت: أنا عزيزة، وأنا لم أمت وإنما مات زوجي. قال: كذابة، الميت عزيزة. قالت: أنا عزيزة! قال: هل أصدقك وأكذّب شهادة المختار وتحقيقات الشرطة؟

وذهبت المسكينة تمشي من مكان إلى آخر لتثبت أنها ليست هي الميتة ولكن الميت زوجها، وذلك لأن المختار كتب اسمها في شهادة الوفاة، والشرطة صدقت على الشهادة!

* * *

إنه إن لم يكن بُدٌّ من نظام المختارين فليكونوا شبه موظفين، وليكن لهم مِلاك، وليوضع لهم نظام يبين أعمالهم ويحدد أجورهم ويوضح تبعاتهم ويسهّل ملاحقتهم. أما هذا النظام الحاضر فمن العار على سوريا أن يبقى فيها سنة ١٩٥١.

* * *

نحن في حرب

يا أيها الناس: ألم تشعروا -بعدُ- أننا في حرب مع أعداء الله، اليهود؟ فهل سمعتم أن أمة تعيش الحرب كما كانت تعيش السلم، لا تدع شيئاً من لهوها ولعبها وسرفها وترفها؟ هل سمعتم أن أمة تعطي مالَها لعدوها، تعينه به على نفسها، وتشتري له به السلاح ليوجّهه إلى صدور أبنائها؟

فما لكم ما نقصتم شيئاً من لهوكم ولعبكم؟ ما لكم تعطون أموالكم عدوكم، تشترون بها ما لا ينفعكم ولا يفيدكم؟ لِمَ لا تستغنون عن الكماليات لتشتروا بأثمانها السلاح؟ لِمَ لا يبذل أغنياؤكم مِن حُرّ أموالهم ما يهدون به الطيارات والدبابات والمدافع إلى جيش البلاد، فتسمّى الطيارة أو الدبابة باسم مُهديها، فتبقى له ذكراً وفخراً، وتكون له للآخرة ذخراً، وينال بها عند الله أجراً؟

إن أبا بكر تبرّع للجيش بماله كله، فقالوا له: ماذا تركت لأهلك؟ فقال: تركت لهم الله ورسوله. وعمر تبرع بنصف ماله، وعثمان أعطى الشيء الكثير، وما من الصحابة إلا من بذل وأعطى. وإنّ أغنياء الإنكليز اليوم والأميركان يعطون الحكومة أكثر من نصف ما يدخل عليهم، فما لكم لا تقتدون بسلفكم

الصالح ولا تتشبهون بالقوم المتمدنين؟ أتقلدونهم في الرقص والشراب والاختلاط وما يَشْكون هم منه ويتمنّون الإقلاع عنه، ولا تقلدونهم فيما ينفع ويفيد؟

❊ ❊ ❊

أناشيد

قرأت في «الأيام» أمس في باب «جلسة المجلس النيابي» نبأ عريضة للعلماء يحتجّون فيها على الإذاعة لأنها أبطلت ما سَمّوه بالأناشيد الدينية، وقد كانت تُذاع بعد صلاة الجمعة. فرأيت من الواجب عليّ بيان حقيقة الأمر في نظر الإسلام.

الإسلام ليس فيه أكليروس وليس لأحد وحدَه حق التكلم باسمه، بل إن لكل مسلم عَرَف دليلَ مسألة أن يردّ فيها على علماء الأرض لو قالوا بعكسها بلا دليل.

والحقيقة أن هذه الأناشيد ليست دينية ولا أصل لها في الإسلام، وأن أكثر ما كان يذاع منها نصفه كفر وشرك لأنه سؤال المخلوق مما لا يقدر عليه إلا الخالق، ونصفه قلّة أدب مع الرسول لأنه تغزّلٌ به -صلى الله عليه وسلم- وذكرٌ لجماله وعيونه ودلاله وطلب لوصاله. ولو قيل مثل هذا «العَلْك» لمدير ناحية أو لرئيس مخفر لَعَدَّه وقاحةً وأمر بصاحبه إلى السجن أو مستشفى المجانين، فكيف يُقال لسيد الخلق؟ ثم إن ألفاظه عامية مبتذلة وأنغامه رخوة مخنثة.

والحق كان مع الإذاعة في إلغائها وليس مع العلماء المحتجّين على إلغائها ذرّةٌ من الحق، وهذا كلام لي عليه من الأدلة الشرعية ما لا يقبل نقضاً ولا رداً.

* * *

القاضي الشهيد

رجعت الآن من جنازة الزميل الشيخ عادل العلواني، وقعدت لأكتب هذه الكلمة وأنا لا أزال مشدوهاً مقسَّم الذهن لا أكاد أصدق أنه مات ولا أدري ماذا أكتب عنه.

ما الذي تَسَعُه هذه الزاوية الصغيرة من إخاء عشرين سنة؟

ماذا أقول عن الرجل الذي عرفته رفيقاً في كلية الحقوق جنبي في المقعد إلى جنبه، ثم عرفته قاضياً في المحكمة الشرعية قاعتي مقابلَ قاعته، والذي رافقته أمداً يملؤ حديثي عنه تاريخاً؟ إني والله لا أدري ماذا أقول، فاعذروني، فإني لا أزال في روعة الصدمة الأولى.

ولقد سمعت الناعي في الهاتف يقول لي: إن الشيخ عادل قُتل، فما صدقت وحسبتها مزحة ثقيلة، وما ظننت أن من الممكن أن يُقتَل قاضي دمشق وسط دمشق. وغدوت أسأل فإذا الخبر صحيح، فذهبت إلى الدار أدبّر أمر الجنازة، فلم أرَ في الدار إلا امرأة حَيرى وأطفالاً تسعة أيتاماً، وإذا القاضي الذي كان مستوراً بالتجمّل لم يخلف بعده ما يكفي لإيصاله إلى القبر.

ولقد يكون في هذا الذي أقول إيلام لأسرة الفقيد، ولكني أقوله بإكبار وإعجاب، وأحني هذا الرأس الذي ما انحنى قط لغير

الله أمام نعش الرجل الذي استطاع أن يكون قاضياً نزيهاً أميناً، وهو يكابد الفقر عمرَه كله ويتجرعه ويصبر عليه، حتى عاش شريفاً ومات شهيداً.

وتولى القضاةُ والمحامون نعيَه وإخراجه، ومشت الجنازة صامتة رهيبة على السنّة؛ لا صراخ ولا نشيد ولا آس ولا أكاليل، وأَبَّنْتُهُ وأنا لا أعلم ماذا أقول، لأن أطفاله كانوا أمامي، فكان يشغلني التفكير في مصيرهم عن صَوغ آيات البيان.

كنت أفكر فيهم فأخشى أن لا تفيَ هذه الأمةُ للرجل الذي وفى لها، وأن تدع أولاده يحتاجون من بعده لأن ضميره ودينه منعاه من أن يدّخر لهم مالاً يجمعه من حرام، وأن تضيق خزانة الدولة فلا تَجود بالمال لمن جاد بالدم، وأن تتمسك بحرفية قانون التقاعد وتعطي أسرة الفقيد ما لا يكفيها ثمن الخبز... حتى يرى ذلك القضاةُ فلا يبقى فيهم قاض نزيه.

وبعد، فإني والله لا أزال في روعة الصدمة الأولى، فاعذروني اليوم[1].

* * *

---

(١) قُتل القاضي الشيخ عادل العلواني غيلةً، وتسبب مقتله بضجّة ورجّة في دمشق. اقرأ قصته في الحلقة ١٢٣ من الذكريات (٤/٣٣٥) وهي بعنوان «القاضي الشهيد» (مجاهد).

الكماليات

حدثني صديق أديب أقام شهراً يتنقل بين أنقرة وإسطنبول وإزمير أنه لم يُبصر في هذه الأيام كلها إلا عشراً من السيارات الخصوصية الفخمة التي نرى العشرات من أمثالها كل يوم، تحمل أغنياءَ الحرب إلى مخازنهم وأولادَهم إلى مدارسهم، وتحمل نساءهم إلى الاستقبالات والأعراس.

وقصّ عليّ قادم من تشيلي (كان قطنها عشرين سنة) أن التجار فيها محرم عليهم تحريماً استيراد الكماليات كلها من البلاد الأجنبية، فلا فرو يُباع بوزنه ذهباً، ولا أحمر للشفاه تضيع في ثمنه الآلاف، ولا عطر نادر، ولا شيء من مثل ذلك. وما لم يُستغنَ عنه من هذه الكماليات صُنع في البلاد وكان ربحه لأبنائها.

ونسمع عن بلاد الناس أن الحكومات فيها تعمل على حفظ ثروة سكانها ومنعها أن تذهب إلى بلاد الأجانب ثمناً لتوافه لا ينفع وجودها، ولا يضر عدمها. فما لنا نحن خاصةً -دون عباد الله- نضيع ثروتنا في هذه الكماليات، في السيارات الفخمة والفراء وأدوات الزينة ووسائل الترفيه؟ حتى السكاكر [1] صرنا نأتي بها من إنكلترا وأميركا، ولعبَ الأطفال وعلبَ الدخان!

---

(١) السكاكر -في لغة الشام الدارجة- هي الحلوى (مجاهد).

من أميركا التي كان من صادراتها إلينا دولة إسرائيل!

إن هذه الأموال التي يأخذونها منا يصنعون بها المدافع والقنابل فيرسلونها إلى إسرائيل. وإن هذه الكماليات التي يعطوننا إياها يأخذون بها منّا رجولتنا وقوتنا ويحوّلون بها هذا النشء الجاد المكافح المناضل إلى نشء رخو ضعيف، همه زينته وغايته لذاته.

يا أيها الناس: إن البطل الذي يمشي حافياً وينام على الأرض ويسكن في الكوخ خيرٌ من المخنَّث الذي يلبس الحرير ويسكن القصور ويركب سيارات الرولزرايس.

* * *

في الناس خير

حدثني سَمِيِّ، الأستاذ علي الطنطاوي القاضي، قال: أقمت على قضاء النبك قرابة عام[1]، ما كنت أكلف أحداً من أهلها مالاً يبذله لوجه من وجوه البِرّ إلا لبّى، على فقر أهل النبك وقلّة ذوات أيديهم.

وما ذلك إلا لأنهم وثقوا أن ما نجمعه نؤديه ولا نحتجزه، ونقرّ به ولا نجحده، ونسلمه إلى أربابه لا ننسى شيئاً منه في زوايا جيوبنا! وما وثقوا بنا لأنا أعدنا الخُطَب عليهم وكررنا القول لهم وزكّينا لهم أنفسنا بألسنتنا (كما تنظف القطة نفسَها بلسانها، أو كما يفعل المرشَّحون يوم الانتخاب!) بل لأنهم رأوا ذلك منّا بعيونهم: كان يوم الفقير من أيام سنة ١٩٤١ الذي ابتدعته الحكومة ذلك الوقت عوناً للفقير وتفريجاً عنه، أو دعاية لها وتثبيتاً لكراسيها، وأيّ ذلك كان فقد كان فيه خيرٌ للفقيرِ كبيرٌ.

وأَحبَّ قائم المقام أن يكون جمعاً نظيفاً فوكلني به -حسنَ ظنّ منه بي- فعمدت إلى طريقة يستحيل أن يدخل عليها زيف

---

(١) أقام جدّي رحمه الله في النبك قاضياً لها نحو أحدَ عشر شهراً من سنة ١٩٤١، وأخباره فيها في الجزء الرابع من الذكريات، في الحلقتين ١١٤-١١٥ (مجاهد).

أو تُمكن معها سرقة: جمعنا الناس في رحبة البلد وجئنا بصناديق مقفلة لها في ظهورها شقوق يُلقى منها المال، فحمّلناها أولاداً من أولاد المدرسة، وعمدنا إلى أكياس كبيرة وضعناها على ظهور دوابّ من دواب القرية، وسيّرنا ذلك أمامنا وسرنا مع ذلك الحشد.

وجعلت أمام الموكب من ينادي: "هاتوا قليل، هاتوا كثير... هاتوا قمح، هاتوا شعير... كله مليح للفقير، كله عليه أجر كبير". فكان مَن يأتي بمال يرميه في الصندوق ومَن يجيء بحَبٍّ يلقيه في الكيس. ودرنا في الأسواق وجزنا البيوت، حتى إذا أكملنا طوافنا عدنا إلى الرحبة فقعدنا ووقف الناس من حولنا وبسطنا بساطين، فطرحنا الحب على بساط والمال على بساط، وكِلْنا وعدَدْنا ومئاتُ العيون من حولنا ترقب العَدّ والكيل. وكنا قد كتبنا أسماء الفقراء على درجات فقرهم في صحيفة، فقسمنا المال والحَبّ عليهم، فجعلت أنادي الفقير فأدفع له وآخذ خَطّه بما استلم، حتى نفد كل ما جمعنا[1].

هذا ما وثّق الناس بي. ومن قبلُ رأى الناس في سنة ١٩٣٠ أسلوب الأمانة في التبرع لأطفال الصحراء، أبناء الثوار اللاجئين يومئذ إلى وادي السرحان، وكانت قد قامت به «الأيام» أيامَ كنت أعمل فيها[2]، وكان يقوم عليها الأستاذ عارف النكدي، فكان ينشر أسماء المتبرعين وصور الإيصالات في الجريدة، فيعرف

(١) قصة هذا المشروع في الجزء الثاني من الذكريات، الحلقة ٤٤ (مجاهد).

(٢) راجع الذكريات (٤/٢٢٥) (مجاهد).

الناس طريق المال من منبعه إلى مصبِّه، فيُقبلون على الدفع إقبالاً عجيباً. ولو غيرُ النكدي تولاه أو على غير هذا الأسلوب جرى فيه لما أقبلوا عليه.

وأنا ما قلت هذا (يقول صديقنا القاضي) فخراً بنفسي ولا مدحاً للأستاذ النكدي، بل لأبيّن أن الناس لا يزال فيهم خير ولا يزالون مستعدين للبذل في سبيل الله، بشرط أن يثقوا بأن أيدي الجامعين أيدٍ نظيفةٌ، وأن المال يصل إلى وجوه الخير التي يُجمَع من أجلها.

ونحن مقبلون على الشتاء، والدين الأخلاق والإنسانية، كل ذلك يوجب على كل حي من أحياء دمشق إعانةَ فقرائه على دهرهم. والناس إذا وثقوا بأنّ من يجمع المال لا يسرقه يعطون الكثير، فألِّفوا في كل حي لجنة من المعروفين بالأمانة واجمعوا للفقراء، فإنه لا يجوز أن يأوي الأغنياء غداً إلى بيوتهم الناعمة وغرفهم الدافئة ويتركوا الفقراء واللاجئين لبرودة المساجد وشقاء الأكواخ.

* * *

كونوا مثل عمر

روى الإمام ابن عبد الحكم -في سيرة عمر بن عبد العزيز- أن عمر كان يأمر أصحاب البريد أن يحملوا إليه كل كتاب يُدفَع إليهم، فخرج البريد (الرسمي) من مصر يوماً، فدفعت جاريةٌ اسمها «فرتونة السوداء» مولاة رجل يسمى «ذا أصبح» كتاباً تذكر فيه أن جدار منزلها قصير وأنه يُقتحم عليها منه فيُسرَق دجاجها.

فكتب إليها عمر: "بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح. بلغني كتابك وما ذكرت من قصر حائطك وأنه يُدخل عليك فيه فيُسرق دجاجك، وقد كتبت إلى أيوب بن شُرحبيل[1] آمُرُه أن يبني لك ذلك حتى يحصّنه مما تخافين إن شاء الله. والسلام".

فيا أيها القراء، سألتكم بالله: هل تتصورون أن يكون في الدنيا شخص أهون على الناس وأدنى منزلة فيهم وأقل شأناً من هذه الجارية؟ وهل تتصورون أن يكون في الدنيا رجل أسمى

---

(١)هو أيوب بن شُرَحْبيل الأصبحي، أميرٌ من الصلحاء، ولي مصر لعمر بن عبد العزيز أول سنة ٩٨ وحسنت أحوالها في أيامه، واستمر بها سنتين ونصف سنة إلى أن توفي سنة ١٠١؛ انظر «الأعلام» للزركلي: ٢/ ٣٨ (مجاهد).

مكانة وأكثر شغلاً وأعزّ وأكرم من عمر، الذي كان يحكم وحدَه ما بين حدود فرنسا وحدود التُبَّت، لا رادّ لحكمه ولا ناقضَ لإبرامه، وليس فوقه إلا الله؟ وهل تتصورون أن يكون في الدنيا موضوع أتفه وأسخف من جدار فرتونة ودجاجها؟

ومع ذلك لم تمنع عمرَ بنَ عبد العزيز جلائلُ الأمور من أن يهتم بشَكاة فرتونة، ويكتب بشأنها إلى والي مصر وقائدها العام أيوب بن شرحبيل، وأن يجيبها مطمئناً ومخبراً.

هذا خبر من آلاف الأخبار التي يطفح بها تاريخنا أسوقه إلى رجلين: رجل يزهد في تاريخنا ويحقره ويولي وجهه تلقاء الغرب في كل شيء، يظن أن الخير لا يأتي إلا منه وأن النور لا ينبثق إلا من جهته، وينسى أنها من الشرق تشرق الشمس ومن الغرب تأتي الظلمات. ورجل ولي ولاية أو نال وزارة، فتكبر وتجبر وطغى وبغى وحسب أنه ساد الدنيا، فلم يعد يردّ على كتاب ولا يحفل بشكاة ولا ينظر إلى أحد... لعله يتنازل فيرضى أن يكون بمنزلة عمر الذي كانت الدولة السورية كلها ضَيعةً واحدة في دولته، ثم لم يمنعه ذلك أن يهتم بحائط فرتونة السوداء ودجاجاتها، وأن يشغل والي مصر وقائد جندها بشأنها، وأن يردّ بيده على كتابها!

ألا تتنازلون -يا سادتي- من معاليكم فتكونوا مثل عمر؟!

* * *

مثل الساعة!

لما وصل الترام ذات يوم إلى المرجة أخرجتُ ساعتي -على عادتي- لأضبطها، وقلت لجاري: كم الساعة من فضلك؟ فنظر إلى ساعة المرجة وقال: سبعة ونصف. فقال الآخر: بل هي سبعة ونصف وخمس دقائق.

فنزلنا من الترام ونظرنا، فإذا وجه الساعة الذي يواجه فندق أمية يختلف عن وجهها المقابل للمحافظة (ولم أنظر علامَ يدلُّ وجهها الثالث!) فقال أحد الوقوف: قبّح الله هذه الساعة! قلت: وما لها؟ قال: إنها سبقت المنافقين. إن المنافق بوجهين ولسانين، وهذه بثلاثة أوجه وثلاثة ألسنة!

قلت: إنك تتكلم عن منافقي الزمان الماضي، وقد ارتقت الدنيا اليوم وتقدم الناس، وصار من المنافقين مَن له خمسون وجهاً، يختار كل يوم الوجهَ المناسب كما يختار رباط عنقه! وله خمسون لساناً يركّبها عليها ويبدّلها -كلما تبدل الحكام- كما يغير ثيابه كلما تغير الجو! وما أكثر ما تغيّر الجو من أيام الأتراك إلى أيام الفرنسيين إلى أيام الاستقلال والعهود التي جاءت بعده، وهم -أبداً- جماعة كل عهد وأحباب كل حاكم.

وكيف لا تكون هذه الساعة علَمَ الفوضى وقد أقيمت

لتكون شارة الضبط والنظام؟ ألا ترى وجهها الغربي سابقاً لأن في الغرب الشوارع الفِساح وأحياء الأغنياء التي جعلتها المحافظة تسبق وتتقدم وتأخذ الذي لها والذي لغيرها، والوجه الشرقي يدل على التأخر لأن في الشرق المدينة القديمة الفقيرة التي لا تهتم بها المحافظة؟

قال الرجل: إنك تظلم المحافظة. وما للمحافظة يدٌ في فساد الساعة، إنما هم الكناسون يجيئون الفجرَ متأخرين فيدفعون عقرب الساعة بذنَب المكنسة.

قلت: الآن حزرت؛ إنه ذنَب المكنسة! ولكنه ذنَبٌ طويل يصل إلى كل ساعة في المحافظة وفي غير المحافظة فيفسدها، ويضر الناس كلهم أبلغ الضرر ليجلب نفعاً قليلاً لفردٍ واحدٍ منهم. إنها أخلاقنا -يا صاحبي- سَرَتْ عدواها إلى الساعة، فلم يعد للوقت قيمة ولا ضابط، ولم يبقَ مِن دافع إلى الصدق ولا مانعٍ من الكذب، وصار النفاق فضيلة، وغلبت مصالحُ الأفراد مصلحةَ الأمة.

إنها عدوى سرت إلى الساعة وهي حديد، فكيف لا تسري في النشء وهم من لحم ودم؟!

* * *

وظِّفوا الأصلح

أحب أن أرجع اليوم إلى هذه الكتب التي سمّاها أعداؤنا «الكتب الصفراء» لينفّروا منها شبابنا ويصرفوهم عنها، لا حباً بهم بل خوفاً منها، فهم يعلمون أن في هذه الكتب ثروة لا تفنى من الفضائل والقوى، وهم لا يريدون أن نقوى، وفيها أقوى الدوافع إلى اليقظة والجهاد، وهم لا يحبون أن نتيقظ ولا أن نجاهد.

في هذه الكتب قاعدة من قواعد ديننا اشتمل عليها هذا الحديث الجليل؛ هي أن من ولّى أحداً أمراً عاماً من أمور المسلمين -وفي الأمة مَن هو أصلح له وأقدر عليه- فقد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين. أي أن الحاكم الذي يعيّن موظفاً في وظيفة من الوظائف قبل أن يفتش ويبحث وينظر: هل في الأمة من هو أصلح لها منه؟ أو يعيّنه قبل أن يعلن الأمر ويدعو الراغبين فيها الصالحين لها إلى المسابقة، والذي يجعل من أسباب الترجيح والتقديم القرابةَ والصداقة والرابطة الحزبية، والمنتخِب الذي ينتخب للنيابة رجلاً وفي المرشحين من هو أحسن منه، والرئيس الذي ينتقي للوزارة رجلاً وعنده من هو خير منه... كل أولئك ينطبق عليهم هذا الحديث.

والمسلم ليس الذي ينطق بالشهادة ويصلي ويصوم ويحج

فقط، بل الذي يكون في أخلاقه ومسلكه متّبعاً ما جاء به الإسلام، واقفاً عند أمره ونهيه، مُؤْثراً أحكامَه على شهوات قلبه وميول حزبه. وإن للمسلم موازين ومقاييس يُعرف بها: هل هو مسلم حقاً أم هو مدّعٍ منافق؟ فإذا كان من أولياء الأمر وسُمّي له رجلان لوظيفة، أحدُهما نكرة مجهول لا صلة له به، بل ربما كان عدوَّه وخصيمه، وثانيهما صديق معروف، له عليه فضل المعونة في الانتخاب وحق المشاركة في الحزب، وكان الأول أفضل منه بوزن شعرة واحدة ثم اختار الثاني للوظيفة فإنه يكون خائناً.

أقول هذا وأنا لا أريد وظيفة ولا أطلبها لصديق ولا قريب. ما أقوله إلا لأن على العالم أن ينصح وعلى الكاتب أن يبين، فإذا سُمعت هذه النصيحة فإن الحمد لله، وإن مَرَّتْ كأنها نسمة في صحراء فإنّ حسبي أني قد بلّغت.

* * *

التلميذة الخالدة

لقد سأل الأصدقاء عني: أين كنت؟ وعن كلمتي الصغيرة يوم أول أمس: لِمَ لمْ أكتبها؟ فيا أصدقائي: إنني كنت في رحلة.

رحلة نسيت فيها الجريدة والبيت والمحكمة وهذا العالم الأرضي الذي أعيش فيه. رحلة عدت منها بشباب جديد وهمّة جديدة، ورجعت وكأنه قد رُدَّ عليّ ما أخذَتْه الأيامُ من نشاطي وآمالي. رحلة ليست إلى سهل ولا إلى جبل، ولا إلى بَرٍّ ولا إلى بحر، ولكن إلى عالم مسحور من عوالم العبقرية نقلتني إليه بنتٌ اسمها حواء.

بنت عبقرية في الأدب، تتحدث عن أم عبقرية في العلم، حديثاً لم يصنعه الخيال ولكنه يزري بكل ما يصنع الخيال، ولم يجاوز التاريخ ولكنه يفوق كل ما يبدع الأدب. إنها قصة «التلميذة الخالدة» لإيف كوري[1]، أروع قصة قرأتها للجهاد في سبيل العلم والإخلاص له، والصبر عليه والظفر به.

وإني لأجدني مسيئاً إلى هذا العمل العظيم إذا أنا شوّهته بتلخيص أو عرض أو اقتباس، فيا أيها الطلبة والطالبات: اقرؤوا قصة «التلميذة الخالدة».

---

(١) وإيف بلغتهم هي حواء.

اقرؤوها فلعلها تثير في نفس واحد منكم موهبة كامنة قد تهز الدنيا، ولكن صاحبها لا يدري بها. اقرؤوها فلعلها تُخرِج من بينكم عالماً من علماء المستقبل، لا يعرف نفسه فهو يضيّعها في سفاسف الأمور ويغرقها في خضم العمل. اقرؤوها لتفتشوا بعدها عن قصص الجهاد العلمي في تاريخنا وفي تواريخ الأمم، فإن العلم لا وطن له، والعبقريات لا تخضع لقوانين الجنسيات.

وستجدون في تاريخنا مئات ومئات من الرجال صبروا صبر مدام كوري وجاهدوا جهادها، وطلعوا على الدنيا بأروع ثمرات هذا الصبر، وكانوا من بُناة العلم، ولكن الله لم يقيّض لهم مَن يتقصّى أخبارهم ويقصّ سيرهم.

وستعلمون أن السّرَخْسي أملى «المبسوط»، أعظم كتاب في الفقه، وهو محبوس في جُبّ في بطن الأرض، وابن تيميَّة كتب أمتع رسائله وهو سجين في قلعة دمشق، والشيخ المرصفي شرحِ «الكامل» وهو على حصير في غرفة مقفرة، وأمامه كتبه وحول الحصير خط من الدبس يحيمه من هجمات البق. وأنها أُلِّفت على أضواء السُرُج وفي غمرات الفقر والقر والضرّ أجلُّ المؤلفات التي تزخر بها المكتبة العربية ويفخر بها أهلها على الأمم. وسترون في الدنيا لذة أكبر من لذائذ الطعام والشراب والنساء وأبقى وأنقى، هي لذة البحث العلمي.

يا أيها الطلاب الجامعيون والطالبات: اقرؤوا «التلميذة الخالدة».

* * *

العلاج حق للناس

هل يسمح لي القراء أن أتحدث اليوم عن نفسي؟ إن فيكتور هوغو كان يقول: "إذا أنا وصفت آلامي في الحب وصفت آلام كل محب"، وأنا في كلامي اليوم عن نفسي أتكلم عن كل موظف مثلي.

أنا مريض أُمْلي هذه الكلمة وأنا في الفراش، ومرضي من حصاتين في الكُليَتين لا بد لهما من عمليتين، ولكني لا أقدر عليهما، لا لخوفي منهما بل لعجزي عن دفع نفقاتهما، لأن الراتب لا يكاد يجيء بالطعام واللباس والمسكن، فمن أين آتي بهذه النفقات التي تعدل رواتب خمسة أشهر؟

هذا وأنا قاضٍ، ومرتبتي عالية، وراتبي كبير. فماذا يصنع الموظفون الصغار؟ وماذا يعملون إذا اضطروا إلى عملية لهم أو لولد من أولادهم، أو تعسّر الوضع على واحدة من نسائهم ولم يكن لها بُدّ من الجرّاح، أو قدّر الله عليهم الأمراض والأدواء وحكّم فيهم الصيادلة والأطباء؟

أما فكّر فيهم من وضع قانون الموظفين؟

إن في بلاد الناس مستشفيات حكومية للموظفين يجدون فيها هم وأولادُهم الراحة والعلاج، وإن هم احتاجوا إلى ما

ليس فيها أدخلوهم غيرها من المستشفيات الخصوصية على نفقة الحكومة، وأنا طلبت «سلفة» لنفقات العملية تقتطع من راتبي، ورأيت من وزير العدلية ومن رجال وزارتي العدلية والمالية كل اهتمام، ولكنهم لم يستطيعوا إجابة طلبي لأن القانون يمنع السلفة عن الموظفين!

فماذا أعمل الآن؟ بل ماذا يعمل الموظفون الصغار؟! هل أوجب عليهم القانون أن يَبقوا هم وأسرهم أصحّاء لا يمرضون أبداً؟ أم فرض عليهم -إن مرضوا- أن يحملوا أمراضهم ويمشوا بها؟ أم سمح لهم أن يسرقوا ليتداووا؟ وهل تظنون أن كل موظف يعرف الطرق الفنية التي يسرق بها ما يشاء ويبقى مبجلاً محترماً؟

فما العمل إذن؟

أجيبوا أيها المصلحون من رجال الحكم، واعلموا أن الجائع قد يصبر يوماً عن الطعام ويبقى حياً، أما المريض فربما مات إن صبر ساعة عن الدواء.

* * *

الوفاء لأهل الفضل

هل يصدق القراء أن رجلاً بلغ أعلى ما يبلغه الرجال في السن والفضل والمال، وكان من أعلام السياسة والاقتصاد والعلم ولا يزال يُعَدّ من عيون الناس في هذا البلد، جاءني فأفضى إليّ -بعد تردد طويل- أن حاله قد ساءت وأن موارده قد جَفَّت، وأنه يتوسل إليّ أن أجد له وظيفة من الوظائف؟

أحلف لقد شُدهت لما سمعت هذا وكذّبت أذني، ولو أني ذكرت اسمه للقراء لصُعقوا، ولكن الرجل أكرمُ في نفسه وأعز عليّ من أن أدل عليه أو أشير إليه. وإن له أمثالاً -وإن لم يبلغوا مكانته- من أهل العلم ومن رجال الأدب، وممن افتقر بعد غنى وذل بعد عز، ممن شاخ في خدمة هذا الوطن وعجز عن التكسب، لا يجدون ما يعيشون منه ولا يستطيعون أن يعملوا ولا يريدون أن يسألوا، فماذا يصنع هؤلاء؟ ومن هو المسؤول عنهم؟

وإذا كان عُمَر قد مَرّ بيهودي عجوز يسأل الناس فرأف به وأشفق عليه، وقرر هذه القاعدة الإنسانية النبيلة التي صارت -من بعد- قانوناً حين قال: "ما أنصفناه، أخذنا منه الجزية شاباً وأهملناه شيخاً"، وفرض له راتباً من بيت مال المسلمين. أفلا تعامل حكومتنا الفقراء من علماء الوطن وأدبائه ممّن قعدت بهم

السن وأحاطت بهم الفاقة معاملة عمر لليهودي؟

إن أمثال هذا الرجل لا يبلغون مئة في دمشق كلها، فهل تعجز الخزانة (التي تنفق باليدين وتنثر المال في الجهتين) أن تقوم بنفقتهم ونفقة عيالهم، إكراماً للسنّ وللعلم، ولاسم هذا الوطن ألاّ تكون هذه خاتمة أهل العلم فيه؟!

إني أرفع هذه الكلمة إلى الحكومة، إلى ضميرها وإلى نبلها وإلى إنسانيتها.

* * *

كلمة في الكذب

كتب إليّ سائل يسألني: هل يجوز الكذب إن كان فيه مصلحة؟

والجواب ما رواه البخاري ومسلم من حديث: «ليس الكذّاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً، وفي الحرب لأن الحرب خدعة، وحديث الرجل امرأته والمرأة زوجها». وروى مسلم عن أم كلثوم أنها قالت: «ولم أسمع رسول الله ﷺ يرخّص في شيء مما يقول الناس (تعني الكذب) إلا في هذه «الثلاث».

والمعنى أن الكذب يجوز في ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن تُصلح بين صديقين متخاصمين، فتقول لأحدهما: ليس لك حق في هجر فلان (أي الآخر) وهو يحبك ويمدحك ويثني عليك، وقد قال عنك كذا وكذا. وتنقل له أشياء ترضيه عنه وتلين عليه قلبه وتقربه منه. وهذا معنى "أن الكذب في الإصلاح جائز".

والثانية: الكذب على العدو لخديعته. فهو جائز، بل هو مطلوب، لأنه من وسائل التقوّي، والله أمرنا أن نعد لهم ما استطعنا من القوة. ومن جملة القوة قوة الدعاية، وقوة الجاسوسية

التي تُعرف بها أسرار العدو، ولا يتوصل إلى ذلك إلا بالخديعة والتضليل والإيهام.

والثالثة: أنه يجوز للرجل أن يقول لامرأته أنه يحبها ولا يفضل أحداً عليها ولا يرى في الدنيا امرأة أجمل منها، وأشباه هذا الكلام، أو أن يشتري لها الثوب أو الهدية بعشرة ويوهمها أن ثمنه عشرون، ويجوز لها مثل ذلك.

هذا فقط وأمثاله الذي يجوز أن يكذب فيه أحد الزوجين على الآخر، لا أن تذهب لزيارة من لا يسمح لها بزيارته وتقول له: كنت عند الخياطة. أو تذهب إلى السينما وتقول: كنت عند أختي لأنها مريضة مسكينة وحرارتها تسع وثلاثون! ولا أن يسهر هو في الملهى أو في النادي الخبيث ويقول لها: كنت في اجتماع أو تأخرت في الشغل... هذا كذب صريح لا يجوز ولو كان بين الزوجين.

وهناك حالات يجب فيها الكذب وجوباً: كأن يهرب أحدٌ من ظالم سلاحُه بيده يريد قتلَه، فيختبئ منه ويسألك عنه وأنت تعرف مكانه، فهل يجوز أن تدلّه عليه؟ لا، ويجب أن تكذب. وكذلك إن كان في المسألة ضياع مال أو هتك عرض، وهذا كله من قبيل «ارتكاب أخف الشرّين»، وهي قاعدة شرعية وعقلية.

والأحسن -في هذه الحالات كلها- التورية والتعريض، وأن تقول كلاماً مبهماً ليس فيه كذب صريح، ومن هنا قالوا: "إن في المعاريض لمَنجىً من الكذب".

الكاذب هو من يقول شيئاً يعتقد أنه غير صحيح، والعبرة

بالمعنى الذي يفهمه السامع لا الذي تنويه أنت بينك وبين نفسك.
ولم ينهَ النبي ﷺ عن شيء كما نهى عن الكذب، فإذا اقترن الكذب باليمين (كما يفعل أكثر البيّاعين) فهو من أكبر الكبائر وصاحبُه يستحق غضب الله. روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين ليقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها فاجر (أي حلف كذباً) أتى اللهَ وهو عليه غضبان». فلينتبه التجار الذين يحلفون عن الشيء أن رأس ماله كذا وأنه لا يربح إلا كذا وهم كاذبون!

ومن أشد الكذب ضرراً بالناس وأكبره مقتاً عند الله: شهادة الزور. روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين. وكان متكئاً فجلس فقال: إلا وقول الزور، ألا وقول الزور... فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت!

فمن حاول التوبة عن تلك الآفات وصدَق النية في هذه التوبة، وتجنّب أصدقاء السوء الذين يدفعونه إليها، فإن الله يعينه ويقوّيه ويسدد خطاه ويهديه. علينا المحاولة والهداية من الله.

* * *

بلادنا التي فقدناها

حديثي الليلة -أيها السادة والسيدات- عن قطعة من بلادكم تملكونها ولا تعرفونها، عن كنز لا تعدله الكنوز، عن «الحمّة». ماذا تعرفون عن الحمة أيها السامعون؟ لقد كنت -مثلكم- أسمع عنها ولم أرَها، فكنت أتخيلها بركة آسنة في قَفرة حارة ملتهبة، فلما رأيتها رأيت جنة على الأرض، رأيت كنزاً، رأيت شيئاً لا مثيل له في الدنيا.

تصوروا -يا أيها السادة- متنزّهاً جميلاً جمال وادي الزبداني، دافئاً في الشتاء الذي تقضقض فيه العظام من البرد، فيه الغرف الأنيقة وفيه المسالك الساحرة، وفي غُرَفه الماء الساخن صباحاً ومساءً. كيف تكون رغبتكم فيه وإقبالكم عليه؟ فكيف إن كان الماء الساخن يجري فيه دائماً؟ وكيف إن كان قد أذيب في هذا الماء من الأدوية والعقاقير ما هو شفاء لعصي الأمراض: لحصوات الكلى والمرارة والمثانة وللناصور والتهاب الأعصاب والنقرس وآفات الجلد؟

* * *

لقد كنت أتمنى أن أرى «الحمة» من زمان طويل فكانت تمنعني موانع الحياة، حتى تفضل فأخذني إليها الإخوان الأساتذة:

نهاد القاسم وأنيس الملوحي ومصطفى الزرقا ومرشد عابدين[١].

سلكنا إليها طريقاً معبداً مررنا فيه على القنيطرة، وعلى القرى الشركسية الأنيقة البهية المنظر، حتى إذا جاوزنا «فيق» نظرنا، فإذا تحت أقدامنا منظر من أروع ما خلق الله من منظر. مشهد يستهوي الفؤاد جمالاً ولكنه يملؤ القلب لوعة وأسى: منظر بحيرة «طبريّا» والبلاد من حولها والقرى على سفوح الجبال المطبقة بها. منظر بلادنا التي صارت لغيرنا، وقد كانت لنا، بنينا بأيدينا بيوتها وحرثنا أرضها، وفيها بقايا من أجسادنا وفيها رفات أجدادنا. في كل شبر منها ذكرى لنا وقطعة من قلوبنا.

وكان حولنا أطفال من أطفال اللاجئين، ينظرون إلى بيوتهم التي أُخرجوا منها فصار حراماً عليهم دخولُها، وأموالهم التي تركوها فيها وحرموا منها حتى صاروا يشحذون بعدها! ينظرون إليها من عَلٍ كما ينظر النسر الجريح على الذُّرى إلى طعامه تأكله الكلاب.

إنه ليس في تاريخ البشرية مَظلمة أشنع منها ولا أبشع. كلا، ولا الأندلس. إنها ديارنا نحن من ألفَي سنة نُخرَج منها ويؤتَى بناس ما هي بديارهم ولا ديار آبائهم، لا يعرفونها وليس لهم فيها أثر ولا لها في قلوبهم ذكرى؟

ولكن الله عادل والظلم لا يدوم. إننا سنستردّها بإذن الله، إلاّ نحن فأولادنا.

إننا سنلقّن أبناءنا في المهد أنشودة الثأر، ونرضعهم مع

---

(١) انظر الصورة في الصفحة ١٨٧ (مجاهد).

اللبن بغض الغاصبين. إنه يستحيل أن تشتعل نار صهيون وحولها بحر زاخر من العروبة، ويستحيل أن يغلب مليون يهودي سبعين مليون عربي. ستنبت أجنحة النسر وينقضّ على الكلاب، سنسيطر مِن هذه الذرى على مَن في الحضيض، وإلا لم نكن من أصحاب المعالي.

لقد كان في تاريخنا أزمات أشد وأنكى، لقد عاشت للصليبيين الأوربيين الغاصبين دولٌ استمرت أكثرَ من مئة سنة وحسب الناس أنها لن تزول، فأين هذه الدول؟ إن إسرائيل ستذهب كما ذهبت. إني لا أشك في ذلك، وإلا لشككت في سلائق العرب وفي صدق محمد ﷺ وفي عدل الله!

❊ ❊ ❊



الحمّة، شتاء ١٩٥٠، وتبدو هضبة الجولان في الخلف.
(الأسماء مكتوبة على الصورة بخط الشيخ رحمه الله)

ثورة الإيمان

قرأت في برقيات أمس أن فرنسا قد عادت إلى طيشها وبطشها في الجزائر، وإلى بطولتها في اقتحام البيوت وترويع النساء واعتقال الأبرياء وإيذاء المساكين، ففرحت وأيقنت بقرب الخلاص ودنوّ الفرج.

ذلك لأن في أعماق نفوسنا -معشرَ العرب- بطولة عجيبة لا تظهرها إلا المحن الشداد، وكلما حاق بها الخطر صفا جوهرُها وظهر معدنها. وهذه سوريا سامها الفرنسيون الخسف بعد ميسلون وحملوها على المكروه، فأرت الدنيا من البطولة والبذل ما سارت به البُرُد واهتزت الأسلاك[1]، وكان حديث أهل الأرض يوم قمنا على فرنسا القوية المظفّرة التي انتصرت على الألمان، ووقف لها عند جسر تورا حارسٌ عامّي منا اسمه حسن الخراط، فلم تستطع فرنسا بعددها وعتادها ومدافعها ودباباتها أن تجتاز النهر الذي عرضه خمسة أمتار إلا بعد ثلاثة عشر شهراً!

---

(١) البُرُد جمع بريد، والأسلاك كناية عن الهاتف الذي كان ينقل الأخبار. لم تُعرَف في تلك الأيام الموجات الدقيقة (مايكرو-ويف) التي تحمل الإشارات الهاتفية كما هي اليوم، فكانت تنقلها الأسلاكُ الممتدة بين المدن وعبر البلاد، فإذا عصفت العواصف تقطّعت الأسلاك وانقطع الاتصال حتى يُعاد وصل ما تقطع منها (مجاهد).

وما انفكت سوريا كلما أخمد الظلم بحديده وناره ثورة لها أشعل الإيمانُ أخرى. ما كلّت ولا ملّت ولا وَنَتْ، حتى جلا عنها آخر جندي فرنسي وعاد لها حقها في الحرية والاستقلال.

وهذه الجزائر لا تزال تناضل وتصاول كأنما لم تحكمها فرنسا ولم تدأب أكثرَ من مئة سنة تسخّر ذكاءها وعلمها وقوتها وحمقها لتقتل فيها روح النضال وتمحو من نفوسها حب الاستقلال، وستظل تجاهد حتى تنعم بالجلاء كما نعمت به ديار الشام[1].

أبشروا، فستستقل الجزائر ويتحرر المغرب كله، وتُستنقذ فلسطين، وننجو من إنكلترا وأختها كما نجونا من فرنسا. وإن كان الإنكليز أشرّ وأدهى، لأن الفرنسيين بحمقهم وطيشهم يأتون كالثور الهائج فتغلق دونه الباب أو تستعد له، وهؤلاء يجيئون كالحية الناعمة المزخرفة التي تدخل من تحت اللحاف فتلدغك وأنت نائم.

كلهم عزرائيل، ولكن أولئك يهجمون بالسيف وهم يسبون ويشتمون، وهؤلاء يقتلون بالسم يقدَّم في قطعة شكلاطة، والله المستعان عليهم جميعاً.

* * *

---

(١) لم تكن الجزائر قد استقلّتْ بعدُ يوم نُشرت هذه المقالة، كان عليها أن تنتظر إحدى عشرة سنة، أمضَتْها في جهاد وتضحيات تعبَتْ في إحصائها وتدوينها صحائفُ التاريخ (مجاهد).

هذه الحرب، فماذا أعددتم لها؟

ما أدري والله: هل فقدت أنا عقلي، أم الناس جميعاً قد فقدوا عقولهم؟ وإلا فخبّروني: كيف أرى الشيء أسودَ مظلماً ويرونه هم أبيض مثل الثلج؟ وكيف أتألم وأتحرق كلما رأيت الخطر الداهم والعدو المتربص والغفلة واللهو واللعب، ويضحكون ويصفقون، كأن هذا هو المعقول وأن هذا هو الواجب؟!

الإنكليز والفرنسيون يحومون ببوارجهم وقواتهم من حول القناة، يرعدون ويبرقون، ينتظرون غفلة منا ليطبقوا علينا، والفرنسيون -ومعهم قوى حلف الأطلنطي- يسوقون عُدَد الموت إلى إخواننا المجاهدين في الجزائر؛ يطلعون بها عليهم من البحر ويأتون بها من البر وينزلون بها من السماء؛ يقتلون الأبرياء ويذبحون النساء، ويدمرون القرى ويعدون على الأعراض، واليهود... حتى اليهود الأذلة المساكين تشجّعوا وغدوا يبدؤوننا القتال ويهجمون علينا ويقتلون منا، ونحن... ماذا نصنع نحن؟

هل نبذنا الخلاف الحزبي بيننا وأجَّلْناه حتى تنكشف هذه الغُمّة؟ وهل وضعنا لأنفسنا خطة التقشف والتوفير وترك السرف والتبذير، لننفق هذا الوفر في الاستعداد للحرب؟ هل وضعت الحكومة موازنتها على هذا الأساس؟ هل تركت الإنفاق في

الكماليات والإيفادات والرحلات والحفلات والمؤتمرات، وإقامة النصب وإضاعة الأموال فيما لا ضرورة له ولا جدوى منه، ولا يدفع عدواً ولا يستجلب نصراً؟

والشعب، هل صدّق الشعب بأننا على أبواب حرب؟ هل نقص استيراد السيارات الفخمة والعطور والثُرَيّات والخمور؟ إننا في مطلع السنة المدرسية، فهل عزم والدٌ على إخراج بنته من الفرنسيسكان أو ابنه من الفرير أو اللاييك؟

هل عرف الآن أننا لا نستطيع أن نحارب فرنسا ونحن نسلم أبناءنا وبناتنا إلى المعلمين الفرنسيين والمعلمات الفرنسيات، ليجعلوا منهم أحباء لفرنسا وأعداء لنا؟ وهل يصنعون غير ذلك؟ بل هل تصنعون أنتم غيره لو جُنَّ الفرنسيون يوماً وأرسلوا أبناءهم إلى مدارس يعلم فيها مشايخ المسلمين، كما ترسلون أنتم أبناءكم إلى «الفرير» حيث يعلم قسوس الفرنسيين؟

هل عقلنا وفكرنا أن النصر لا يكون إلا بالإخلاص والرجولة والبعد عن الفساد والفجور؟ وأن فرنسا (وهي أقوى منا) لمّا فسدت أخلاقها وغلبت عليها شهواتها ذلّت حتى وطئتها نعال جنود الألمان ثلاث مرات، من سنة ١٨٧٠ إلى الآن؟ هل حاربنا الفجور المنتشر؟ هل استجاب أحد للصرخة التي صرختُها في «الأيام» لما قلت أن قانون العقوبات لا يعاقب على الزنا، وطلبت أن يعدَّل قانون العقوبات؟

هل من الاستعداد للحرب إنفاق الأموال على الفرقة الراقصة الهنغارية والفرقة الروسية والفرقة الفرنسية والفرقة التي لست

أدري ما هي... حتى لم تبقَ أمة في الدنيا لم ترسل إلينا راقصاتها وقَيناتها لمّا رأت أن سوق اللهو رائجة فينا؟ هل انتصرت أمة بالرقص وباللهو حتى نكون مثلها فنجعل اللهو والرقص سبيلاً إلى النصر؟

هذا ما أتألم منه ويذوب قلبي حسرة عليه ولا أجد من يبالي به أو يحفله، فهل جننت أنا أم جُنّ الناس؟

يا ناس: نحن في حرب، واليهود الذين هجموا بالأمس على الأردن يهجمون غداً علينا، وليس في الدنيا أمة تعيش في الحرب كما تعيش في السلم، وإذا لم نستعد للبركان قبل أن ينفجر لا ينفعنا الاستعداد بعد الانفجار.

فأين حَمَلة الأقلام وأرباب المنابر وكل ذي رأي مسموع وكلمة نافذة، ليدعو الأمة إلى اليقظة والانتباه والرجوع إلى الله؟ فإن الله يقول: ﴿وأعِدّوا لهم ما استطَعْتُم مِن قُوّةٍ ومن رِباط الخيل﴾ ولكن ذاك ليس للنصر بل هو شيء ﴿تُرهبون به عَدُوَّ الله وعَدُوَّكم﴾، والنصر ليس بالسلاح وحده: ﴿وما النّصرُ إلا مِن عند الله﴾. فسلحوا النفوس بالإيمان وبالأخلاق ينصركم الله ويثبت أقدامكم.

* * *

تزوَّجُوا بنات بلادكم

كتبَتْ إليّ آنسةٌ تقول إنه كان قد خطبها معلم في المعارف، وإنه ماطل في عقد العقد حتى ذهب في رحلة مدرسية إلى الديار التركية، فرأى بنتاً أعجبته، فتزوجها وعاد بها، وترك هذه بعدما عضلها وأضاع عليها فترة شبابها التي تُرغب الخاطبين فيها، وأنه ذهب يشنع عليها ليبرر انصرافه عنها.

قرأت كتاب الآنسة، فجاوزت ما فيه من تفصيلات، ولكني وقفت عند مسألة واحدة لا يجوز المرور بها ولا بد من الكلام فيها، مسألة الزواج بالأجنبيات.

إننا نبعث بالشاب إلى أوربا أو إلى أميركا ليعود بالعلم، فيعود بامرأة وبشهادة، فتكون هذه الامرأة هي الأم لأولاده وتكون هذه الشهادة هي العلم الذي يقدمه إلى بلاده. وماذا يجد لعمري في نساء القوم؟ ولماذا يُؤثرهنّ على نساء أمته؟

أهُنّ أجمل؟ إنّ أكثر مَن عرفنا من الزوجات الأجنبيات متوسطات الجمال. أهُنّ أشرف نسباً وأمجد أباً وجداً؟ إن أكثر المتزوجين بالأجنبيات إنما عادوا بعاملة في مخزن أو موظفة في شبّاك سينما. ما سمعنا بمن تزوج بنت لورد أو كونت أو بنت أستاذ جامعة كولومبيا أو رئيس محكمة تمييز باريس!

أفهي أعلم علماً وأحذق فناً؟ إن في بناتنا المتعلمات الحاذقات حاملات الشهادات، وأكثر من عرفنا من الأجنبيات لا علم عندهن ولا فَنّ، وما رأينا فيهنّ مدام كوري ولا كونتس دوناي. أفهي أطوع للزوج وأخلص له؟ إنه ليس في نساء الدنيا كلها -بلا استثناء- من هُنّ أشد طاعة للزوج وإخلاصاً له من نسائنا.

فلماذا إذن يتهافت الشباب على نساء الأجانب؟ ألأن إنكلترا وأميركا أقوى منا وأغنى وأسبق في طريق الحضارة، وأن من تزوج بنتاً من هناك صار -بالمصاهرة- قريب تشرشل ونسيب ترومان، وصار له في البيت الأبيض مكان؟! أم لأن المولودة في أوربا وأميركا كالبضاعة الأصلية والمرأة العربية كالبضاعة المقلدة؟!

* * *

إن الزواج بالأجنبيات جريمة وطنية وإفساد للنسل، إذ كيف نحارب دسائس هذه الدول ومطامعها في بلادنا إذا كان بناتها هنّ ربات بيوتنا وأمهات أولادنا؟ وكيف نضع في نفس الولد أن أميركا -مثلاً- عدوتنا لأنها تنصر اليهود علينا، وأن إنكلترا هي خصيمتنا لأنها تلعب بنا وتسخرنا لغاياتها ولا تزال عادية على استقلال بعض أقطار وطننا الأكبر، وأن روسيا هي ضدنا لأنها تريد -إن غلبت على أرضنا- أن تسلبنا ديننا وإيماننا وحريتنا وتقيم بيننا وبين الدنيا سداً من الحديد؟ كيف، إن كانت أم هذا الولد أميركية أو إنكليزية أو روسية؟ هل يمكن أن نكرّه إليه أمه حتى يبغضها؟

إن كل بنت أجنبية تدخل البلد تزاحم بنتاً من بناتنا وتزيد

الكساد وتنقص الزواج وتنشر الفساد، أفلا يكفينا ما نجده من كساد البنات ومن رواج الفاحشة؟

وإذا كانت الحكومة ترى أن من الواجب عليها حماية منتجات الوطن بسدّ الباب دون المنتجات الأجنبية، فإن أوجب من ذلك حماية بناتنا من البنات الأجنبيات: زوجات وفنانات وعاملات، لأن في الأولى ضياع أموالنا وفي الثانية ذهاب أعراضنا، ولا يفضل المال على العرض رجل له شرف.

إنّ تزوّج الخلفاء بنات العجم والترك المسلمات أضاع الإمبراطورية العربية وهي في عزها، فماذا ترونه يصنع بنا الآن زواج الإنكليزيات والفرنسيات والأميركيات؟

فكروا يا أيها الناس!

* * *

العربية في خطر

كان مما يُعاب به الواحد منا -ونحن طلاب في الثانوية- أن يتكلم في الملأ فيلحن أو يقف أو يتلعثم، وكان يقوم ثم يُقترَح عليه الموضوع لم يستعد له ولم يحتشد ولا علم له به. أما اللحن في المقروء فلم يكن يتصور أن يقع من طالب علم، لأن الذي لا يعرف القراءة الصحيحة لا يكون إلا عامياً سوقياً.

هذا ما كنا عليه في الأيام التي مضت. أما الآن، وقد كثرت المدارس وانتشر العلم وفُتحت كليات الجامعة... أما الآن فقد صار اللحن في الخطب وفي المحاضرات وفي أحاديث الإذاعة هو الأصل وهو القاعدة، وصار الغريب النادر أن يتكلم خطيبٌ بلا لحن.

ولقد سمعت من ليالٍ حديثاً في الإذاعة في التعليم، فسمعت أفكاراً عاميةً مما يتحدث به الناس في القهوة والترام في أسلوب متفكك متخلع، ورأيت المتحدث لا يستطيع أن يحرك حرفاً، فهو ينطق بالكلمات سواكنَ الأواخر، ثم إنه يلحن في بناء الكلمة وفي إعرابها، ولا يدري من اللغة شيئاً ولا من النحو ولا من الصرف. فأغلقت الرادّ (الراديو)، حتى إذا ظننت أنه انتهى فتحته، فسمعت من المذيع أن المتحدث هو أستاذ في كلية الآداب، وفاتني الاسم فلم أسمعه.

أستاذ في كلية الآداب لا يستطيع أن يقرأ كلاماً كتبه هو واستعدّ له وضبطه، وهو يقرؤه منفرداً لا تراه عين ناقد ولا يَروع فؤادَه سوادُ جمهور، ونحن الطلاب كنا نرتجل الكلام ارتجالاً فلا نلحن فيه؟!

أنا لا أعرف إلى اليوم من هو المتحدث ولا أريد أن أقف عليه أو أعرّض به، إنما أريد أن أنذر هذه الأمة خطراً داهماً سيهوي بالثقافة إلى قرارة واد عميق كما هوى بالأخلاق، وأن أعلن أن كل ما بنيناه من مطلع فجر هذه النهضة -من خمسين سنة- يوشك أن ينهار، وأنها ما دامت مناصب التدريس في الجامعة وفي غير الجامعة تُنال بالشهادات ولو كانت شهادات زور لا علم معها، وكان الأستاذ يلهو قبل الشهادة في فرنسا أو أميركا ويلعب ثم يأتي بها، وكان يلهو بعد الشهادة ويلعب ويعتمد عليها وحدها، وما دام لم يقبل على العلم صغيراً ولم يشتغل به كبيراً... فكيف يصير عالماً وكيف يخرّج علماء؟

إن كل ما بَنَتْه النهضة ينهار، فتداركوه. انهيار في الأخلاق، انهيار في الثقافة، انهيار في الاقتصاد.

انهيار، انهيار!

* * *

شجعوا الزواج

كادت تُجمِع الكلمةُ على أن العلاج لهذا الداء الفتاك الذي أصاب الأخلاق في هذا البلد هو الزواج. ولكن طالب الزواج يلقى دونه عوائق تقطع طريقه عليه وتمنع وصوله إليه، وأكثر هذه العوائق من صنع الآباء، وأقلها من عمل الحكومة.

أما الآباء فهم بإهمالهم تربية البنات والقيام عليهن وتنشئتهن على الكرامة والعزة والإيمان بالنفس أولاً، ثم بطلب المهر الضخم والتقيّد بهذه العادات السخيفة في الخطبة (الكتاب) والعرس والهدايا والجهاز، إنهم بهذا يمنعون البنت من دخول بيت الزوجية ويدفعونها دفعاً (من غير قصد منهم) إلى ولوج أبواب الفساد.

فالأب هو المسؤول الأول عن هذا الانهيار الأخلاقي الذي عرانا، وأنا ما فتئت -من أكثر من عشرين سنة- أدعو في خطبي ومقالاتي إلى تقليل المهر المعجَّل ترغيباً في الزواج وزيادة المهر المؤجَّل ترهيباً من الطلاق، وإلى التحرر من قيود هذه العادات التي لا معنى لها ولا جدوى منها، إلا أنها تخرب بيت الخاطب وبيت المخطوبة وتدخل الفساد على موازنات خمسين أسرة تُدعَى نساؤهم إلى العرس، فتُشترى له الثياب الجديدة الغالية التي لا يُحتاج إليها لولاه.

والناس جميعاً يرون في هذه الدعوة خيراً ونجاحاً ودرءاً لمفاسد كثيرة، ولكن كل واحد منهم يخاف أن يكون البادئ بمصادمة العادة والخروج عليها، ولا بد من أن يَفتح لهم البابَ رجلٌ له عقل وجرأة ووجاهة فيسير أمامهم ويمضون هم على أثره[1].

أما الحكومة فهي مسؤولة من وجوه: مسؤولة لأنها وضعت من سنين قليلة ضريبة على عقود الزواج لم تكن من قبل، فصار الناس يؤخرون الزواج خوفاً منها، أو يكتبون في العقد مهراً أقل من الحقيقة ليقللوا الضريبة، فيضيع بذلك حق المرأة وتنشأ مشكلات تشغل المحاكم وتزعج الناس. ومسؤولة لأنها لم تفكر بوضع ضريبة على القادر على الزواج الممتنع عنه، ولم تقلل من راتب الموظف العزب لتزيد «التعويض العائلي» زيادة تشجع على الزواج وتكفي الموظف نفقات أسرته.

ومسؤولة عن هذا القانون الذي وضع للجرائم الأخلاقية أخف العقوبات، حتى أنه جعل جزاء الرجل الذي يزني بابنته أو بأخته شهرين! وجعل أكثر حوادث الزنا معفوة من العقاب. وقد أخذت هذا القانون من فرنسا ونسيت ما صنع بفرنسا في الحرب

---

(١) ضرب جدي رحمه الله بنفسه المثل، فكان الداعي إلى تيسير المهور وكان المُجيب. كانت له يومَ نشرَ هذه المقالة بنتان، ثم رُزق بعدها بثلاث، فلما كبِرْنَ زوجَّهُنّ بأيسر مهر زُوِّجت به بناتٌ قط. ثم صارت هذه سُنّة في حفيداته بعد بناته، فتزوجت أنا ابنةَ خالتي بمهر قدره عشر ليرات سورية (وكانت تساوي أقل من ثلاثة دولارات يوم تزوجت) وبنحو ذلك تزوجَتْ سائرُ حفيداته (مجاهد).

الماضية. ومسؤولة عن تقصيرها في مكافحة البغاء السري مكافحة مستمرة في البيوت والشوارع والنوادي.

ومسؤولة لأنها لا تجرد هذا الجيش من المدرسين الذين يأخذون الرواتب من صندوق الإفتاء لوعظ الناس وحضهم على الزواج وتنفيرهم من الفسوق. ومسؤولة لأنها تقيم العراقيل في طريق طالب الزواج من الجنود والشُّرَط والدرك من غير ضرورة، مع أن الزواج أوجب عليهم منه على غيرهم. ومسؤولة لأنها لا تضع لمدارس البنات برامج خاصة، ولأنها أقرت هذا الاختلاط المفاجئ في الجامعة ولم تُراعِ وقع هذه الصدمة في أعصاب الفتيان والفتيات الذين لم يألفوا الاختلاط في بيوتهم ولا في مجامعهم.

فلتدفع الحكومة هذه «المسؤوليات» عن نفسها، ولتهتم بهذه المسألة الأخلاقية مثل اهتمامها المشكور بالمسألة الاقتصادية، فإن المال ليس أثمن من العرض. وماذا ينفع المال إنْ قَلَّ النسل وانتشرت الأمراض وفترت همم الشباب إلا في طلب اللذات وبلوغ الشهوات؟

* * *

هجوم على الأطباء

وقعتي اليوم سوداء (كما يقول إخواننا أهل مصر) فأنجدوني يا أيها القراء، لأني سأخاطر بروحي وأهجم على الأطباء. والهجوم على الوزراء والكبراء سهل، أما الهجوم على الأطباء... فيا ستّار! ونحن من غير أن ننال منهم لم نَنْجُ من أيديهم، فكيف إذا قرؤوا هذه الكلمة؟

ولكن ليثق كل واحد منهم أنه ليس هو المقصود، وبذلك تضيع التهمة وتُحفظ الدعوى لجهالة المتهم.

الحكاية -يا سادتي- أني مصاب بآلام في المفاصل، قد تخف وقد تشتد وقد تخفى وقد تظهر، كانت تتنقل من مفصل إلى مفصل، ثم استقرت في ركبتي وفي فخذي، حتى إني لأفيق من أعماق نومي -إن تحركت أو مَسّها برد- كما يفيق من تلمسه عقرب. وأحلف لقد راجعت ثلاثة وثلاثين طبيباً بالعدد، في الشام وبيروت وبغداد ودير الزور والبصرة وكركوك والقاهرة، واستعملت عشرات الأدوية (حتى لا يكاد يوجد علاج للروماتزم لم أعرفه ولم أجربه) وأجريت أنواع التحليلات، والألمُ مع ذلك يشتد ويزداد. أفلا يحق لي -بربك أيها القارئ- أن أهجو الأطباء؟

دلّوني على طبيب يستطيع أن يداويني. دلوني -أيها الناس-

ولكم الشكر. لقد قصدت الأطباء الكهول المجربين والشباب المطلعين على الطب الجديد، بل لقد أخذت بوصفات العجائز وأدوية العوامّ، فما استفدت شيئاً.

قالوا: لا تأكل اللحم ولا البيض ولا الحبوب ولا السبانخ ولا الملوخية ولا اليبرق ولا الدهن ولا تشرب القهوة ولا الشاي ولا الكاكاو ولا الشكلاطة... قلت: طيب، فماذا آكل إذن؟ هل أكتفي بـ«أكل الهواء» النقي؟

ومع ذلك فقد جربت هذه الحمية، فما استفدت شيئاً. وقالوا: أكثِرْ من الرياضة، فأكثرت من الرياضة فما استفدت شيئاً. فهل النقص في الطب نفسه، أم العجز من الأطباء؟

وبعد، فماذا أصنع؟ وهل تدلونني على طبيب يعالجني أو أخاطر بروحي وأسلط قلمي على الأطباء وأصنع بهم كما صنع شيخنا الجاحظ بالمعلمين، وليكن ما يكون؟!

هذا إنذار، والمهلة ستة أيام ونصف يوم[١].

* * *

(١) انظر مقالتَي «هجوم على الأطباء» و«دفاع عن الأطباء» في الجزء الرابع من «الذكريات» (مجاهد).

في الغَيْرة

إلى «زوج بائس»:

تسألني رأيي في الغَيرة. أمّا الغيرة التي تمنع من مواقعة المحرمات وكشف العورات، وتدفع إلى الاحتشام والتصوّن والعفاف، وتجعل الرجل ينكر من امرأته أن تتخذ من الأزياء ما لا يقر الشرع ولا يألف البلد، أو تنزل إلى السوق فتكلم الرجال بلا ضرورة، فهذه هي الغيرة المحمودة التي يُمدح بها الرجال، والتي وردت بها الآثار وتواردت عليها الأفكار، حتى قالت العامة: الذي لا يغار حمار!

ومقياسها الشرع، فما أنكره الشرع أنكرناه وما جوزه قبلناه. أما الغيرة التي تجعل الرجل يُجَنّ جنونه إن غابت امرأته ساعة في زيارة والدتها أو عيادة جارتها، يستنطقها استنطاق المحكمة ويحقق أمرها تحقيق القاضي، يظن أنها ما غابت إلا لزيارة صديق أو لقاء عشيق، ويطبق البيت على رأسها إن رأى في البيت صور مقطوعة من مجلة، ويمضي الليل يبحث: من أين جاءت وكيف دخلت؟

وأما الغيرة التي تجعل الزوجة تظن الظنون كلما نطق زوجها باسم امرأة ولو كانت ليلى الأخيلية، تحسب أنه متيَّم في هواها

وأنه قتيل حبها، وتقيم القيامة إن وصف امرأة بجمال أو نعت أنثى بحسن، تظن أنه مشغوف بها عاشق لها، وتخسف الدار إن سمعت أنه قابل امرأة، ولو جاءته مشترية في الدكان أو موكلة في المكتب أو مريضة في العيادة، تظن أنهما ما اجتمعا إلا للخطبة والزواج.

... فهي الغيرة المذمومة، غيرة الجاهلية التي تنغص حياة الرجل وتسوّد عيش المرأة، وتقلب البيت ناراً مسعَّرة أو مارستان مجانين، ولا تنشأ إلا عن سوء الظن وضعف الثقة.

والمرأة إذا اطمأنت إلى دين زوجها وخلقه لم تُحصِ عليه أنفاسه وتعدّ عليه كلماته. والرجل إذا وثق من عفاف امرأته ودينها وميلها إليه وتعلّقها به لم يتبع خطاها ويرصد حركاتها. وقد رأيت -من تجربتي- أنه لا يغار هذه الغيرة من النساء والرجال إلا مَن كان في ماضيه من أهل الشر أو كان مستعداً في طبعه للشر، أما المستقيم الصالح فلا يظن ذلك بغيره لأنه لا يتمناه لنفسه.

على أن هذه الغيرة مرض يحتاج إلى علاج وليست جرماً يحتاج إلى عقاب.

هذا رأيي في «الغيرة».

* * *

وزراء اليوم

إن من صور الماضي صوراً تستقر في النفس وتنطبع في الذاكرة حتى لا تمحوها الأيام ولا يصل إليها النسيان. ومن الصور التي لست أنساها أني كنت يوماً نازلاً في الترام إلى المدرسة، فرأيت أستاذنا المسيو صالح الجزائري -رحمه الله- ينزل ماشياً مرفوع الرأس بارز الصدر، فامتلأ قلبي هيبة له وغبطة وإكباراً، وأحسست أنه يعظم في عيني حتى يملأ عليها رحاب الأماني، فلا أجد أمنية لي في الحياة أكبر من أن أكون أستاذاً في التجهيز.

ثم كرَّتْ الأيام وكبرنا، وصرنا ننظر إلى الدنيا بعيون الشباب لا بأبصار الأولاد، فنرى في البلد ميزاناً للرجال، ونرى لهم أقداراً ومراتب تتسلسل كأنها صف الناس أمام باب الدائرة الحكومية، لا يسبق أحد دوره ولا يقفز من فوق رأس الذي أمامه، ولا يدع الباب ويدخل من الشباك.

يبدأ الموظف حياته موظفاً صغيراً، ثم يكبر كلما كبر عمله وكبرت تجربته حتى يصير رئيساً أو مديراً. أما الوزارة فكانت لأركان البلد وبَواقع الرجال، وأهل الحل والعقد وأصحاب التجربة والعلم والسن. ولا يُسلَّم وزيرٌ وزارةً لا خبرةَ له بشؤونها ولا معرفةَ بخفاياها. وكان المعلم لدرسه والموظف لديوانه

والتاجر لدكانه والطبيب لعيادته، وكان للسياسة أهلها الذين انقطعوا إليها وبرعوا فيها وارتضتهم الأمة نائبين عنها ناطقين بلسانها.

فماذا جرى اليوم حتى فسد الميزان وانقطع النظام واضطرب الصف وتبدلت مقاييس الرجال؟ وما لي لا أرى للوزير اليومَ في نفسي مثل الهيبة التي وجدتها للمسيو صالح؟ هل تبدل نظري وضعفَ حسي، أم كان معلم الأمس أعظمَ من وزير اليوم؟

وما للوزارة سَهُلَ طريقها وفُتح بابها، حتى صار الوصول إليها أهونَ من الوصول إلى منبر التدريس أو قوس القضاء أو مكتب رئيس الديوان ومساعد المحكمة؟

وما للكهول من رجالات البلد انصرفوا عنها وزهدوا فيها، وآثروا الاضطجاع في حمى المدافئ وشرب القهوة والشاي، والتسلي بأحاديث الماضي عن الاهتمام بأمور الأمة في أخطر عهد عرفه تاريخها؟

إني أسأل وأنا أعلم أن سؤالي سيبقى بلا جواب.

* * *

الإيمان أهم من الجدران

ارتاع المسلمون في مشرق الأرض ومغربها لمّا سمعوا خبر تصدع بناء المسجد النبوي، وانطلقت صيحات أقلامهم حتى ملأت الجو وأيقظت النيام.

وحق للمسلمين أن يرتاعوا لانهيار قبر نبيهم، وأن يروا شَدّ أركانه وإقامة بنيانه من آكد الواجبات عليهم، ولكن هل علم هؤلاء المسلمون أن صاحب هذا القبر لو كان حياً لارتاع لتصدع بناء الدين في القلوب وانهيار صرح الأخلاق في الأمة أكثرَ مما ارتاعوا لهذا الخبر؟

إن انهدام مساجد الإسلام كلها حتى ما يبقى منها حجر على حجر أهون في نظر الإسلام نفسه من دخول الإلحاد على قلب شاب مؤمن أو وصول الأذى إلى عرض فتاة مسلمة. والإسلام لبث ثلاث عشرة سنة من غير جامع، ولكنه لا يبقى ساعة بغير إيمان ولا أخلاق.

فكيف -إذن- يهتم المسلمون بأمر أعمدة الجامع ولا يهتمون بأن يُحكموا بقوانين تخالف ما أنزل الله، وبأن تشيع الفاحشة بينهم وينتشر الإلحاد؟ ذلك لأن الناس قد بعدوا عن مفهوم الإسلام الحق وصاروا يبالون بالظواهر أكثر مما يبالون

بالجواهر، ويحرصون على عمارة جدارن المساجد وقبابها ومآذنها أكثر من حرصهم على عمارة المساجد بالعبادة والذكر والعلم، ويُكْبرون أن ينزع العالم عمامته ويحلق لحيته ولا يكبرون منه أن يكذب أو يغتاب... مع أن الكذب حرام وحلق اللحية مكروه، والمساجد إنما تكون مساجدَ بالعبادة والذكر لا بالزخرف والعمارة.

هذه هي أحكام الإسلام، ولكن قد بَعُدوا عن مفهوم الإسلام الحق.

وأرجو ألاّ يفهم أحدٌ من كلامي أني أهوّن خطب المسجد النبوي أو أرى التهاون بإصلاحه. معاذ الله، فهو منبع النور ومبعث الهدى ومهبط الوحي، ومطلع شمس الحضارة على الدنيا. وهو الجامع، وهو الجامعة، وهو البرلمان، وفيه قبر سيد العالم محمد عليه الصلاة والسلام، ولكنني أقرر حقائق ثابتة في الإسلام.

* * *

أساس الإصلاح

أمام مجلس الوزراء الآن مشروعان أشهد أنهما من أحسن المشروعات، واحد على وشك الوصول إليه وواحد على وشك الخروج منه: مشروع مكافحة الأمية، ومشروع أئمة القرى. ومثلهما، أو خير منهما، المشروع الذي أقره مجلس المعارف الكبير ومشروع الدروس الدينية في المدارس.

إذا استطاعت الحكومة إحالة هذه المشروعات إلى قوانين، ثم أحسنت تنفيذ هذه القوانين، كان لها في تاريخ هذه الأمة فصلٌ عنوانُه المجد والفخار، وكان لها في حياتها أثر خالد لا تمحوه الأيام، لأن تهذيب النفوس بالدين وتنوير العقول بالعلم هما من الإصلاح كالجذع من الشجرة؛ إن قام قامت به الفروع كلها، وإن قُطع لم ينفع بعدَه فرع.

وما دامت الأمية منتشرة فينا، وما دامت الجهالة غالبة علينا، وما دام الناس لا يتبعون إلا هوى نفوسهم وشهوات قلوبهم، فإن كل محاولةِ إصلاح صراخٌ في واد ونفخٌ في رماد. وليس يفيدنا مع هذه العلل قانونٌ نسنّه ولا مقال نزخرفه، ولا طريق نسويّه ولا بناء نعلّيه. والأمم لا تقاس حضارتها بجمال أرضها ولا بكثرة مالها ولا بضخامة بنيانها، ولكن تقاس حضارة الأمم بشيئين:

كثرة المتعلمين فيها، وقلة المجرمين منها. تقاس بامتلاء المدارس وفراغ السجون.

فاعملوا -قبل كل شيء- على ألاّ يبقى في البلاد أمّي، فإن من العار على سوريا (وهي هي في ماضيها وحاضرها وما تأمُل في مستقبلها) أن يكون فيها رجل واحد لا يستطيع أن يفك الخط أو امرأة لا تقدر أن تكتب لزوجها إن غاب عنها إلا بمعونة «العَرْضَحَالجي»! وارصدوا لذلك الأموال الكثيرة وابذلوا فيه المبالغ الوفيرة، ولا تضنوا عليه بشيء، لأن محاربة الجهل والفسوق واجبة وجوبَ محاربة اليهود، ولأن ما تدفعونه تشترون به أدمغة وعقولاً وعبقريات.

ولعل في أُجَراء الخبازين وصبيان اللحامين وأولاد الأزقة المتشردين (الذين سيكونون لصوصاً مجرمين أو يكونون شحاذين) مَن لو تعلم لكان عبقرياً في الأدب أو نابغة في العلم أو باقعة في السياسة، ولأكسب أمته مجداً لا يقوّم بثمن، ولأكسبها -مع هذا المجد- قوة ومالاً.

واعملوا على رد الناس إلى الدين، فإنه لا يدفع هذه الشرورَ ولا يدرأ هذه المفاسدَ ولا يمنع هذا الفساد إلا الدين.

إن الذي يخاف القانون وحده يخافه ما بقي الشرطي واقفاً، فإن ذهب الشرطي رتع الرجل. فهل تستطيعون أن تقيموا على كل رجل شرطياً يراقبه؟ وإذا كان الشرطي نفسه يحتاج هو أيضاً إلى مراقب؟ أما الذي يخاف الله فإنه يعلم أنه يراه دائماً وأنه مطّلع عليه في سرّه وجهره وهو معه أينما كان، فيمنعه خوفُه اللهَ من أن يسرق

أو يزني أو يظلم أحداً أو يعتدي على أحد. وها أنتم هؤلاء جربتم ترك الدين والبعد عنه والزهد فيه، فماذا وجدتم؟

أنا أقول لكم ماذا وجدتم. هذه الدعارة التي انتشرت حتى شكا منها الطالح قبل الصالح والفاسق قبل الناسك، وهذه السرقات، وهذه الجرائم. وإذا كنتم لا تدرون فادخلوا المحاكم وخالطوا الناس وانظروا واسمعوا.

تقوية الجسوم بالصحة وتنوير العقول بالعلم وتهذيب النفوس بالدين. هذا هو الأساس في صرح الإصلاح.

* * *

العلاج بالزواج

كلما نشرت كلمة من هذه الكلمات تلقيت سيلاً من التعليقات والردود، أنشر منه ما أنشر وأحفظ ما أحفظ، وهذا تفضل من القراء تعودته منهم من عشرين سنة، من يوم «فتى العرب» مع الأستاذ معروف الأرناؤوط رحمه الله، إلى عهد «اليوم» مع الأستاذ عارف النكدي، إلى أيام «الرسالة» مع الأستاذ أحمد حسن الزيات.

ومن التعليقات على كلمة «فتاة اليانصيب»[1] (التي أشكر لمديرية الشرطة إسراعها إلى إزالة المنكر الذي أنكرتُه فيها) كتاب طويل جداً حافل بالأسماء والحوادث، تكلم فيه مرسله عمّا في الأسواق وفي المصانع التي فيها عاملات، والمكاتب التي فيها سكرتيرات، والبيوت التي فيها خادمات، وسرد قصصاً وروى وقائع يقف لها شعر من كان في قلبه حبة خردل من دين أو من شرف، وطلب مني أن أكتب وأن أستصرخ الحكومة وأثير المصلحين، وأستنزل غضب الله على أهل هذه البلدة التي لا تنكر منكراً.

ولكني لن أفعل، لأني أعلم -مع الأسف- أن هذا أمر لا

(١) الكلمة منشورة في كتاب «مقالات في كلمات» (مجاهد).

تنفع فيه الخطب ولا تفيد المواعظ، وما مثل الواعظ فيه إلا كمثل من يجيء إلى الجوعان وأمامه الأطباق فيها من أطايب الطعام، من كل حلو وحامض وحار وبارد، فيعظه ألاّ يأكل منها ثم لا يأتيه بغيرها.

كلا. إن الله ما حرم شيئاً إلا أحلّ شيئاً يُغني عنه ويقوم مقامه: منع الربا وأباح البيع، وحرّم الزنا وأحل الزواج. فلماذا تريدون منا أن نخالف طبيعة الله التي طبع البشر عليها وشريعته التي دلّ الناس عليها؟

كلا. إنه لا دواء إلا الزواج، الزواج. هذه هي الحقيقة، وأنا سأظل أعلنها وأكررها حتى يستجيب الناس إليها، أو ينبري القلم في يدي، أو تغلق «النصر» بابها دوني. وأرجو أن أكون في ذلك من المجاهدين وأن أمحو بذلك بعض ذنوبي وتفريطي في جنب الله.

ولقد بِتّ أعتقد -بعدما تلقيت من كتب إخواننا الشبّان في الرد على ما كتبته وما وجدت فيها من سوء الفهم ومن السب والشتم- أن كثيرين منهم لا يريدون الزواج ويؤثرون عليه هذه الحياة، التي يتذوقون فيها لذة «الزواج» ولا يحملون تكاليفه، فهم لذلك يحتجون بهذه الحجج الواهية التي تنطق بها شهواتهم لا عقولهم.

يقولون: السكن والنفقات وتكاليف الحياة الزوجية. وهذا (وإن وجب علاجه وإصلاحه) لا يمنع من الزواج. وكل شاب يجد بنتاً ترضى به، بشرط أن يراعي الكفاءة ويفتش عن الموافَقة في المشرب وفي الغنى وفي المكانة الاجتماعية. فمَن كان لا

يجد إلا مئة ليرة في الشهر يستطيع أن يخطب بنت رجل من طبقته يعيش بمئة ليرة في الشهر، فترضى به وتألف عيشه لأنه مثل عيشها في دار أبيها. ومن كان يسكن غرفة بالكراء عند جيران طلب بنت أسرة تعيش عند جيران في غرفة بالكراء.

مهما بلغ من فقر الشاب يستطيع -إذا صدق الطلب- أن يتزوج بنت رجل فقير مثله، ولكن أكثر الشباب لا يريدون الزواج ويجزعون منه ويأتون بهذا الكلام الفارغ، كأن مشكلة الزواج صارت مجالاً لوظائف الإنشاء تنشر في الصحف، وطريقاً لكل محب للشهرة من أولاد المدارس ليفرح برؤية اسمه مطبوعاً في الجرائد.

وما أدري والله ماذا يريد هؤلاء الشباب؟! ولو أنا قبلنا منهم وأعفيناهم من تكاليف الزواج، فهل يريدون أن نبني لهم أديرَة في الجبل نجعلهم فيها رهباناً، أم نسلطهم على بنات الناس؟

منكم يا أيها الآباء أريد الجواب؛ أنتم يا مَن في بيوتهم بنات كاسدات، يا من يغارون على العرض ويحرصون على الشرف. الخطاب لكم والكلام معكم، والبلاء إن وقع واقع عليكم، فما لكم ترون ولا تفكرون وتسمعون ولا تعملون، ألا تخافون على بناتكم؟

يا أيها الآباء: اللهَ الله في أعراضكم وفي عفاف بناتكم.

* * *

رجعية!

قال لي صديق: يقول التقدميون إنك رجعي.

قلت: نعم، أنا رجعي.

قال: أستغفرُ الله، ما هذا ما أردت.

قلت: استغفرِ اللهَ على كل حال، ولكن هي الحقيقة، فهل تحب أن تفهم أنت ما الرجعية؟

قال: وما الرجعية؟

قلت: أن ترجع هذه الأمة إلى سلائقها: سلائق الفطنة والعقل والعزة والنبل. وأن تعود إلى خلائقها: خلائق الجهاد والبذل، والصدق في القول والصدق في الفعل، وإلى ما صنع أجدادنا، فنرفض كل جديد (لا حاجة إليه) يُفسد علينا لساننا أو يخمد فينا إيماننا، ونأخذ كل جديد نافع في العلم والسياسة والأدب وفي طرائق الفكر وفي أسلوب العيش، كما أخذنا -من قبل- الخيرَ كله من تفكير اليونان وتأمل الهند وحياة فارس، وقبسنا من كل أمة أحسن ما لديها، ولكنا بقينا عرباً في لساننا، مسلمين في عقائدنا وأفعالنا.

الرجعية أن نرجع إلى ديننا لترجع لنا أمجادنا، ولتعود راياتنا

خفاقة على الدنيا وحضارتنا باسقة على الأرض.

إنها رجعية، ولكنها رجعية الذي مرضَ إلى الصحة، والذي افتقر إلى الغنى، والذي ذلّ إلى العز، ورجعية الكون إلى بياض نهار جديد بعد ليل عاصف شديد الإظلام.

لا نريد أن نرجع إلى ركوب الخيل ونترك السيارة، ولا إلى القنديل ونهجر الكهرباء، ولا إلى السيف وندع القنبلة، ولا نكتفي بـ«تذكرة» داود الأنطاكي عن كتب الطب الحديث، ولا بالمعلقات العشر عن روائع الأدب الجديد. لا، ولا نريد أن نرجع إلى جهل الماضي وخرافاته وأوهامه، فإن الحضارة قد تتقد وتخبو وتتقدم وتتأخر، ولكن الفكر يتقدم أبداً، ونحن نعرف قيمة الفكر.

إنما نريد أن نرجع إلى عقولنا وأسس ديننا ومقومات عروبتنا، فنحكّمها في كل جديد يعرض علينا، فنأخذ أخذ العاقل البصير، لا نقلد تقليد الطفل الغرير.

هذه رجعيتنا.

* * *

أغاني الميوعة والفجور

سمعت عبد الوهاب (الذي يعدّونه أكبر مغنّي العرب اليوم) يردد من الإذاعة أغنيّة يكاد لحنها ينكبّ على وجهه من الضعف، ويدخل بعضه في بعض من التخاذل، يقول فيها: "الدنيا سيكارة وكاس".

إي والله، أحلف لكم لتصدقوا. ويرددها لتستقر في الأذهان؛ أذهان الصغار الخالية التي تنتظر كل ما يُلقى إليها ليستقر فيها، أذهان أبنائنا وبناتنا، ثم يعطي الحكم في الصاحين العاقلين بأن لهم الويل: "ويلٌ لمن ليس له كاس، يا ويله، يا ويله"!

يقول الإسلام: "الويل للشاربين"، ويقول هذا الفاجر: "الويل لمن لا يشرب"، ويعلن ذلك في مصر المسلمة، بلد الأزهر الشريف.

الدنيا سيكارة وكاس؟! أهذه الدنيا؟ وأين دنيا المكارم؟ وأين دنيا البطولات؟ أنُنهض هذا الشعبَ ونحاول أن نثير في دمه إرث الماضي، وفي نفسه ذكريات النصر، وفي رأسه العقل النيّر الحرّ ليحرر أرض الوطن الأكبر من أوضار إسرائيل وأرجاس الاستعمار، ويقيم صرح المجد، ويسترد من الدهر الدَّين الذي دِنّا به التاريخ، حتى يصل اليرموك وحطين بالمعركة المرتقبة في

تل أبيب، ويُرجع عهد الوليد والرشيد... أنصنع هذا كله بسيكارة وكاس يا أيها الناس؟!

سيقول قوم: وماذا يؤثر هذا الهراء في النفوس؟ إنْ هي إلا أغنية نستمتع بلحنها (إن كان فيه متعة) ونغضي عن ألفاظها. وأنا أسأل هؤلاء: هل يستطيعون أن يفرقوا بين الكلام واللحن؟ هل يقدرون أن يفصلوا بين اللفظ والمعنى؟ من يقول: «سماء» ولا يتصور مدلول السماء؟ أو يسمع اسم الكأس ولا يتصور الكأس؟ وأسألهم: ما أثرها في نفوس الصغار؟ ما أثرها؟ إذا كانوا لا يعرفون فليرجعوا إلى علماء التربية وإلى النفسيين، ليعلموا أنها ستكون في نفوسهم كصندوق الديناميت إذا وضعته بين أحجار البناء، تنسف هي وأمثالُها من الأفلام والمجلات كل مبادئ الخير والرجولة والعفاف.

إن كل كلمة تُلقى في الأذن تكون في النفس كبذرة تُلقى في الأرض، إذا هي لم تنبت اليوم تنبت غداً، أو تنحلّ في الأرض فتبدل تركيبَ تراب الأرض. لا تظنوا أن شيئاً يمضي من غير أثر، ولكن من الآثار ما نحس به، ومنها ما يستقر في العقل الباطن.

إن هذه الأغاني ليست أنغاماً فقط، ولكنها كلمات، كلمات إيحاء. فكيف يتعاون خطيب الجامع وكاتب المجلة ومعلم المدرسة، وكل عاقل في الدنيا على نشر هذه الحقيقة، وهي أن السكر شرّ وأن للشارب الويل، فتأتي الإذاعة -وهي أقوى منهم جميعاً وأعلى صوتاً- فتقول: بل الويل لمن ليس له كاس؟ أي أن الويل للأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين، وللكثرة الكاثرة من أهل الأرض!

أما إذا لم تمنعوا تلك الأفلام التي صارت سبّة لمصر (أعز الله مصر) وعاراً عليها، ولم تقطعوا ألسنة هؤلاء المخنثين، فامنعوا -على الأقل- هذا الهذَر وأمثاله، لأنه كفر بالدين وبالأخلاق وبالرجولة وبمجد مصر، والسلام.

* * *

ماذا يصنع اليهود؟

حدثني صديق من الأدباء قال:

سافرت من عشر سنين إلى القدس[1] أنا وفلان (وسمّى رجلاً ممن يشتغل بالسياسة) فأحببنا أن نرى الجامعة العبرية، فذهبنا إليها على غير وعد سابق، وجعلنا نُطيف بأقسامها وكلياتها فنرى أمراً عظيماً وشيئاً هائلاً، حتى وصلنا إلى المكتبة، فوجدنا فيها قدراً كبيراً من الكتب ما كنت أظن أنه يجتمع مثله إلا في مكتبة لندن أو برلين، ورأينا الفهارس العجيبة التي يصل بها المطالع إلى الكتاب الذي يريده في لحظة.

وسألنا القيّم عن المراجع العلمية لموضوعات سياسية واقتصادية واجتماعية، فكان يفتح أدراجاً في المكتبة ويعطينا عن كل موضوع أسماء كتب كثيرة في كل اللغات، حتى تبين لنا أن من يواظب على هذه المكتبة شهراً لا تخفى عليه بعدَها خافيةٌ من أحوال الدول العربية المحيطة بفلسطين، في تجارتها وصناعتها وتاريخها وجغرافيتها وخلائق أهلها وصفاتهم وعاداتهم. فأرَينا القيّم إعجابنا، ومدحناه فاستدرجناه، فأطلعنا على شيء أعجب:

---

(١) الذي حدّثني بهذا هو أستاذنا شفيق جبري، وكان سفره إلى القدس قبل إنشاء دولة إسرائيل.

درج فيه بطاقات (فيشات) مرتبة على الحروف، فيها تراجم كل من له ذكر من رجال العرب. قال: وسألني عن اسمي. فقلت: فلان. فمَدّ يدَه فأخرج بطاقة فيها سنّي ومولدي وأصلي ودراستي وكتبي وميولي الأدبية والسياسية، على غاية الضبط والصدق والإيجاز، وأخرج بطاقة مثلها باسم رفيقي!

قلت: قد سمعت مثل هذا الحديث عن الجامعة العبرية من غير هذا الصديق وتواترت به الأخبار، وسمع به علماء العرب وباحثوهم وأساتذة جامعاتهم ومديرو مكتباتهم، فهل عملنا مثله أو قريباً منه لنستعين به على حرب اليهود كما استعانوا به على حربنا؟[1]

هل نعرف نحن اليوم حقائق كاملة مضبوطة عن أحوال اليهود وعن رجالهم، وعن ميول هؤلاء الرجال وكفاياتهم ومواهبهم؟

---

(١) وجدت على ظهر الورقة التي لصق عليها جدي -رحمه الله- هذه الكلمة تعليقاً بخط يده كتبه عام ١٩٧٣، هذا نصه: ألقيت في تلفزيون عمّان ليلة ٢٧ رجب من هذه السنة (١٣٩٣) كلمة عن الإسراء قلت فيها ما معناه: "إن اليهود ولو لبثوا في القدس مئة سنة سيخرجون، لأن كل ما يخالف طبائع الأشياء لا يبقى، وليس من طبائع الأشياء أن تبقى ملايين ثلاثة أو أربعة وسط بحر من أعدائها عددُه سبعمئة مليون يمتد على مدى ثلث محيط الأرض"... إلى آخر ما قلت. والغريب أن نشرة الأخبار من «إذاعة إسرائيل» أشارت إلى هذه الكلمة وأعادت كلماتها بعد ساعات. وتكلمتُ مرة من تلفزيزن جدة فردَّتْ عليّ. وكلما تشكلت وزارة في بلد عربي كان أسرع من يبادر إلى التعريف برجالها، مولدهم ودراستهم وتاريخهم، محطة إسرائيل! (مجاهد)

هل نعرف أسماء الكتب التي يؤلفها اليهود وأصدقاؤهم بكل لسان ليحاربونا بها، فضلاً عن أن نقرأها أو نردّ عليها؟ ومن شاء الاطلاع على هذه الكتب فمِن أين يصل إليها ومَن يدله عليها؟

كيف يكون التكافؤ بين متبارزَين، أحدُهما واقف في النور تُرى حركاته كلها وسكناته، والآخر مستتر في الظلام يَرى ولا يُرى ويَرمي ولا يُرمى؟ كيف نرضى لأنفسنا أن لا نعرف شيئاً عنهم وهم يعرفون كل شيء عنا؟ وحتّامَ نتسلى بالخطب الحماسية والكلام الفارغ والعدو يستعد؟

ألا يفهم حكام العرب في كل بلد أن الحرب تكون بالقلم قبل أن تكون بالمدفع، وتكون في الجامعة قبل أن تكون بالميدان؟ فلِمَ لا يفعلون مثلما يفعل اليهود؟ إني والله كلما فكرت فيما يفعلون وما نفعل أمسك قلبي بيدي خشية أن يصدعه الألم أو يودي به اليأس.

* * *

نحن في حرب، فاستعدوا للحرب

أحلف بالله ليصدق القراء أن ما أكتبه اليوم قد وقع البارحة، وأنه ليس خَيالة من خيالات الأدباء.

أنا رجل أشتغل بالقانون وبالأدب وأعمل للوظيفة وللجريدة، ولكني أقسم لها وقتي ولا أقسم لها نفسي، فإذا كنت في المحكمة نسيت الأدب وفرغت ذهني منه وألقيت عني رداءه، وإذا كنت في دنيا الأدب خلعت ثوب القضاء وخليت فكري من مواد القانون. أما هذه الكلمة فإني أفكر فيها إذ أضع رأسي على الوسادة، وأختار موضوعها، وأكتب في ذهني أول جملة منها، ثم أنام. فإذا صحوت أجدها قد اختمرت في عقلي الباطن ونضجت، فأكتبها دفعة واحدة، لا أقف فيها إلا ريثما أغط[1] القلم أو أبدل الصحيفة.

ونمت البارحة وفي ذهني موضوع الاستعداد للحرب والتيقّظ له، وما يجب على الحكومة وما ينبغي للشعب. وكانت ليلة حارة من ليالي الصيف، فجرّتْ عليّ حرارتُها ما أطار مني نومي ونغّص عليّ ليلتي، وأقامني الآن خائر الجسم دائر الرأس ثقيل الأجفان: جاءتني بعوضة، كلما أغمضت عيني تحوم علي وتطنّ في أذني،

---

(١) أغط: من العامي الفصيح.

فأنهض وأفتش عنها وأستعد لها، فلا أراها، فأقول: انصرفت لا رُدَّت. وأحاول المنام فتعاود التحويم والطنين، واستمرت على ذلك الليلَ أكثره إلى مطلع الفجر، فكدت أعتذر من صاحب الجريدة وأدع الكتابة اليوم، ثم قلت: لماذا لا أصف حالي مع البعوضة، فأكون قد دخلت في موضوعي وأنا لا أشعر؟ وإذا كانت بعوضة واحدة قد طردت النوم عني وسهّدت عيني، فكيف -لعمري- ننام ويهود في فلسطين لا تزال تطن إذاعتها في آذاننا؟

هذا هو الموضوع.

* * *

قلت أمس في خطبة الجمعة التي أذاعتها محطة دمشق أننا في حرب، أن كل دولة عربية في حرب ما بقي في فلسطين يهودي واحد، وأننا قد خسرنا الجولة الأولى. نقول ذلك بلسان الرياضي الذي ينهزم ولكنه يعلم أن أمامه جولات، وأن عزمه لمتين وأن عضلاته لقوية وأن الظفر في يديه. ونحن نرحب بالحرب، فنحن بنو الحرب ونحن رجال الجلاد، ونحن لا نخشى الغارات ولا تطير قلوبنا شعاعاً عند أول قنبلة تُلقى، ولكنا لا نريد -مع ذلك- أن نتلقى الضربات تلقّي الغنم ضربةَ الذئب.

إن علينا أن نعد وأن نستعد. وإني أجمل هنا المنهج الذي أراه، لعلي أعود إليه -بعدُ- بالتفصيل والبيان.

يجب -أولاً- أن توضع الموازنة على أسلوب جديد، فتُمحَى منها كل نفقة يُستغنى عنها، ويلغى كل مصرف لا ضرورة إليه ولا لزوم له، ويُشترى بذلك كله السلاح والعتاد.

ويجب ثانياً: أن يكون عند كل مدرسة ملجأ يعلّم الطلاب سبيل اللجوء إليه إن كانت غارة، وفي كل حي ملاجئ، وأن يدرَّب الناس على ذلك. ولا يقُلْ أحدٌ إن الحرب لم تقع بعد، فإنها واقعة بيننا وبين اليهود حتى نطردهم -إن شاء الله- من بلادنا، إن لم يكن اليوم فغداً.

ويجب ثالثاً: أن تعنى الحكومة بالدعاية والحرب الأدبية، وإلا فما معنى أن لنا محطة إذاعة من أقوى محطات العالم، إذا كانت الجرائد كلها قد نشرت أمس نبأ العدوان على القرية العربية وحرقها ولم تذع ذلك الإذاعةُ، مع أن إذاعة إسرائيل... اسمعوا: إذاعة إسرائيل قد أذاعت الخبر!

ويجب رابعاً: تعميم الفتوّة على المدارس كلها وعلى الجامعة، وتدريب الناس جميعاً (من شاء منهم) فنون الحرب، ونشر روح الصبر والاحتمال والحماسة في الأمة. ويجب خامساً: محاربة كل مظهر للرذيلة وللخنوثة، لأن ذلك كله إضعاف لنا وتقوية لليهود.

* * *

إن بعوضة طنَّتْ في أذني جعلتني لا أستطيع المنام، فهل تستطيعون النوم -يا ناس- وإسرائيل تطن إذاعتُها في آذانكم، وإسرائيل تتربص على حدودكم، قد سلبتكم أرضاً من أرضكم وقتلت إخواناً من إخوانكم؟

مَن نام على عدوه فما أقرَّ الله عينَه بمنام.

* * *

الأمة العاقلة لا تسرف

روت الصحف أن أول ما صنعه جلال بايار بعدما صار رئيس الجمهورية التركية أن فَضَّ الموكب وصرف الحاشية، واستغنى عن تلك السيارات وذلك الحرس، واكتفى بسيارته تمضي به وحده، يحرسه عدله وماضيه ومنزلته في نفوس الناس.

وروى التاريخ أن عمر بن عبد العزيز لمّا بايعه الناس خليفةَ المشرق والمغرب، وسيد المملكة التي تحكم ما بين الصين وفرنسا، وخرج لينصرف، رأى المواكب الضخمة والمراكب عليها سروج الذهب والألوية والشارات، فقال: ما لي ولهذا؟ نحّوه عني وقربوا لي بغلتي. وركب بغلته إلى داره (في موضع السميساطية) لا إلى الخضراء قصر الخلافة[1].

فما ضَرَّ جلالاً أن اكتفى بسيارة واحدة وهو رئيس؟ وما ضَرَّ عُمَرَ أن اقتصر على بغلته يركبها ويسير بها في طرق دمشق وحيداً، وهو الحاكم المطلق في تسع وعشرين دولة من دول اليوم، وهو الذي إن قال "لا" لم يكن على ظهر الأرض من يجرؤ على أن يقول "نعم"، وإن قال "نعم" لم يقل بشر "لا"؟ هل قلّ

---

(١) قصر معاوية وخلفائه في موضع القباقبية ومصبغة الخضراء اليوم.

بذلك قدرُهما وهبط مكانهما، أم ازدادا بذلك رفعة وقدراً وصارا بذلك مثلاً خالداً للمجد الخالد؟

فما للعرب، لا يسمع «كبارهم» ولهم تضرب هذه الأمثال؟ ما لهم: همهم المظهر لا الجوهر، والإطار لا الصورة، والكأس لا الشراب؟ أما لنا في باكستان عبرة، وهي الدولة ذات الثمانين مليوناً، ودوائرها تحت الخيام لأنها تريد أن تبني المصانع والقلاع قبل أن تشيد القصور والمغاني؟

وماذا يضر الوزير والموظف الكبير أن يركب الترام مع الناس، وقد كان مركبَه قبل الوزارة وإليه معاده بعدها؟ وماذا يضر النائب أن يضرب من نفسه المثل فيقرر لها أربعمئة ليرة بدل الثمانمئة؟

وماذا يضر هذه الأمة لو عقلت فتركت الترف وهذا السرف، وأخذت بأحد المثلين: المثل العربي في أول الزمان، أو المثل التركي في آخر الزمان؟

متى نعقل؟!

* * *

مرحباً بالغارات

حدثني الأخ السيد عمر الحكيم، الأستاذ في كلية الآداب (وقد كان في ألمانيا أواخرَ الحرب الماضية، وفرّ منها مع ابنته فراراً يشبه خبرُه -على غرابته- الأساطير) قال:

"كانت تُغير على برلين خمسة آلاف طيارة، تضربها ضرباً يزلزل الأرض ويرجّ الجبال، حتى لكأن القيامة قد قامت وجهنم قد فتحت أبوابها. فإذا فرغت أحمالها وصبّت رزاياها وانصرفت سكتت مدافع الطيارات، وخرج الناس من الملاجئ، ودارت السيارات الحكومية تقرع الأجراس، ومعها صفائح كبيرة من الأخشاب والورق المقوى ومسامير، فكل من هُدم جداره أو ضرب بيته أخذ من هذه الصفائح، فجعل منها جداراً مكان الجدار الذي انهدّ وبيتاً بدل البيت الذي سقط. فلا ينتهي من البناء حتى تعود الغارة ويعود الناس بعدها إلى العمل، ويتكرر ذلك مرات في اليوم".

ونحن قد مرت بنا طيارة واحدة ضربت الشام بخمس قنابل، فجزع الناس وفزعوا وهرب منهم مَن هرب، فلم يعد يستطيع مقاماً. فما الفرق بيننا وبينهم؟ أنحن مخلوقون من الطين وهم مصبوبون صَبّ الحديد؟ لا، ولكنها العادة والمران ومكابدة

الأهوال وممارسة الخطوب. إن الألمان ليسوا أصفى منا جوهراً ولا أطيب أصلاً ولا أقوى أعصاباً، ولكن حياة الدعة والخمول والقعود عن الحروب كادت تُفقد العرب أجمل سلائقهم وأحسن سجاياهم: الصبر والجَلَد واحتمال الشدائد ومقارعة العِدا[1].

إن العرب اليوم سبعون مليوناً والمسلمين أربعمئة مليون، وخيرٌ من هذه الـ«أربعمئة مليون» أولئك الأربعون الذين كانوا في دار الأرقم، لأن أولئك عاشوا للجهاد وللدعوة، ففتحوا الدنيا، وشادوا المجد الذي نطح النجم وزحم الدهر، ونحن عشنا للدعة والأمن واللذات، فتركنا كلاب اليهود تفتح بلادنا.

اقرؤوا سيرة النبي محمد ﷺ، مَن كان سيد العرب وخير البشر، تَرَوْها نضالاً مستمراً وجهاداً في سبيل الله، ما استراح يوماً ولا استسلم إلى الخفض واللين.

فافرحوا إن شمرت الحرب عن ساقها، ورحّبوا بالشدائد فإنها امتحان الرجال. إن عشر غارات على دمشق تنقّيها من كل

---

(١) ذلك ما كان من حالنا وحال الألمان، ثم دار الزمان نصف دورة، فصرنا حيث كانوا في الأخطار والأهوال وصاروا حيث كنا في أمان. لو مرّت اليوم في سماء سوريا طيارة فضربت المدن السورية بخمس قنابل فحَسْب لأقام الناس عيداً، فإن طاغية الشام المجرم الجبان يقصفهم في اليوم الواحد بمئات القنابل والصواريخ والبراميل المتفجرة، التي أحالت المدنَ إلى ركام وأهلَها إلى مشردين وقتلى وجرحى وأيامى وأيتام، وما يزال أهل الشام صابرين صامدين حتى يأتي فرج الله ونصر الله (مجاهد).

خَوّار ضعيف، وتنفي عنها الجبناء المخانيث كما تنفي النار النحاس عن الذهب الخالص. إن عشرين مليون عربي، كلهم رجال وكلهم أبطال، وكلهم مساعر حرب وأبطال جلاء، خير من هذه الملايين السبعين التي لا تصنع شيئاً.

فمرحباً بطيارات اليهود وأهلاً، إنها بداية الهوان لهم وبداية العز لنا!

* * *

نحن واليهود

عدنا إلى اللجان والوفود والبحوث والدراسات. لم يكفِنا أنّا اشتغلنا بالمؤتمرات والتصريحات واليهودُ يستعدون، وأنّا عقدنا الهدنة ونحن يومئذ الغالبون، حتى جئنا اليوم نوفد الوفود ونتسلى بالكلام وفلسطين يملكها الصهيونيون.

هم أوقعوا الأمر ونحن رضينا بـ«الأمر الواقع»، وهم أخذوا ديارنا قسراً ونحن نطلب منهم «السماح» لنا بالعودة إلى ديارنا، وهم «جمّدوا» أموالنا غصباً ونحن «نسألهم» أن يعيدوا إلينا أموالنا، وهم عصَوا هيئة الأمم ونحن أطعنا، وهم فعلوا ونحن قلنا، وهم نجحوا ونحن خذلنا. وهم أقل من مليون من نفايات الأمم، ونحن سبع دول فيها أكثر من أربعين مليوناً!

كأننا نحن اليهود أهل الذلّة والمسكنة وهم العرب أولو العزة والإباء!

ولكن لا. لا والله ما ذل العرب ولا عزت يهود، وإنّا -على ما عرفَنا التاريخ- أمة البذل والإقدام والبطولات، ما فقدنا سلائقنا ولكن فقدنا قادتنا؛ من قادتنا البلاء ومن زعمائنا.

مِن الذين كانوا منقسمين على أنفسهم في فلسطين يوم كان زعماء اليهود متحدين، من الذين كانوا يبتغون لذائذ الزعامة

وقصورها وبذخها وولائمها ورحلاتها يوم كان زعماء اليهود لا ينفقون قرشاً في غير السلاح والعتاد، من الذين كانوا يملؤون الدنيا كلاماً فيكشفون أسرارهم للقريب والبعيد يوم كان زعماء اليهود يستعدون صامتين، من الذين عملوا لأطماعهم وشهوات نفوسهم يوم كان زعماء اليهود لا يعملون إلا لقضيتهم وحدها، من الذين كانوا لعبة في أيدي أميركا وإنكلترا يوم كان زعماء اليهود يلعبون بإنكلترا وأميركا.

فهل اعتبر هؤلاء الآن؟ هل علموا أنهم ضلّوا إذ عصوا «دريد» العصر، فارس الخوري، حين أمرهم أمره بمنعرج اللوى؟ وأن مدافع المبطل تضيع معها خطب المحق فلا تُسمَع؟ وأن الدنيا لمن غلب؟ هل اعتبروا الآن وفهموا؟

فماذا ينتظرون؟ أليست فلسطين لنا؟ أليست ديارنا؟ أليس الصهيونيون لصوصاً غاصبين؟ فإلى متى يبيت صاحب البيت في الشارع والمسدس في يده واللص ينام في البيت على السرير؟ أتريدون أن نصير معرّةَ تاريخ العرب وأن يلعننا الأحفاد؟

* * *

قاوموا هذه الأفلام

ما كنت أدري قبل اليوم مبلغ ما تصنع هذه الأفلام بنفوس الشبان، وكنت إنْ أنا رأيتها (ونادرٌ أن أراها) أنظر إليها بعين رجل جاز الأربعين من سنين وبلغ ذروة العمر ثم هبط الجبل من الوجه الآخر، فلم يبقَ له من ميول الشباب إلا ما يبقى من زاد المسافر في آخر السفر، وخَبَت في أضلاعه تلك النار فلم تخلّف إلا جمرات توشك أن تصير رماداً.

فكنت أنكر منها أنها فقدت سَنَا الفن فاستبدلت به بريق الخلاعة، وأضاعت عقدة القصة وقوة الإخراج، فوضعت مكانها هذا الغناء المخنث الذي يُسمع في كل موقف ورقص البطن الذي يظهر في كل مشهد، وهذا التهريج الذي لا تخلو منه رواية ولو كانت -في زعم مخرجها- ملحمةً (دراما) لا يصلح لها إلا حوافز البطولة، أو مأساةً (تراجيديا) لا يفيد فيها إلا دوافع الألم.

ولكني عرفت اليوم أن هذه الأفلام ليست كفراً بالفن وحده ولا إلحاداً في الذوق فقط، ولكنها مدمرة للأخلاق، مفسدة للشباب، مضيعة للرجولة.

عرفت ذلك من الحديث الذي كان يتهامس به تلميذان قعدا إلى جواري في الترام، تلميذان لا أحسبهما فارقا المدرسة

الابتدائية ولا أراهما بلغا مبلغ الرجال، كانت تمر على لسانَيهما ألفاظٌ أرتجف أنا الرجل الكهل عند سماعها، تومئ إلى معاني خبيثة ما كنت أظن البغايا القارحات يعرفنَها، لا، ولا الفسّاق العتاق من روّاد الحانات وقطّان المواخير! ويصرحان خلال ذلك بأسماء فلانة وفلانة من الممثلات، ويعرّضان تعريضات نجسة مخيفة ببنات يذكران أسماءهن، مقرونةً بضحكات ذات دلالات وآهات وإشارات بالأيدي، قدّرت أنهنّ من بنات الجيران أو قريبات الأسرة.

فجعلت أفكر في هذين الولدين: كيف ينصرفان إلى درس أو يُصغيان إلى مدرس ولهما من هذه الهواجس ما يملؤ حياتهما حتى ما يدع فيها فراغاً لعلم ولا لعمل؟ وماذا يكون منهما إذا كبرا غداً ودخلا مدخل البلوغ، وتفجرت في أعصابهما الشهوة التي أودعها الله أعصاب الشباب، ماذا يصنعان يومئذ؟ إنهما لن يكونا إلا عبدين من عبيد إبليس، لن يكونا إلا لصَّين من لصوص الأعراض، لن يكونا إلا مصيبة على البلد ووبالاً على أهله.

لا؛ لا تحسبوا أني أبالغ، فإن هذه هي النتيجة الحتمية للمقدمات التي دل عليها ذلكم الحديث. ولقد أشرت إليه الإشارة التي تحتملها صحيفةٌ سيّارة تدخل كل بيت ويقرؤها كل شاب وتراها كل فتاة، ولو أني استطعت أن أنقل الحديث بنَصه لقفَّتْ من هوله شعور القراء، ولعلموا أن عرض هذه الأفلام على الفتيان والفتيات جريمة وطنية قبل أن يكون جريمة دينية أو خلقية، لأننا نريد شباباً أقوياء يحمون الحمى ويذودون عن البلاد، تفيض قلوبهم رجولة وتلتهب دماؤهم حماسة في الخير، لا مخنَّثين قد

ضاعت عقولهم بين الأفخاذ والبطون!

إن هذه الأفلام تفسد كل ما تصنع المساجد في تربية القلوب والمدارس في تنمية العقول والثكنات في تقوية الرجولات، ولو كانت من عمل إسرائيل لتقتل بها روح الجهاد في هذا الشعب لما كانت شرّاً مما هي الآن. فكافحوها كما تكافحون الكوليرا والجراد وإسرائيل.

* * *

نحن والسيدات

يا سيداتي ويا آنساتي القارئات: اسمعنَ هذه القصة، فإني جعلت هذه الكلمة لكنّ وحدَكن.

ركبت الترام منذ أيام فلم أجد فيه إلا مقعداً واحداً خالياً أمام فتاة. لا أريد أن أصف وجهها وما وضع الله فيه من مراهم الجمال وما وضعت هي عليه من مراهم وأصباغ لستر هذا الجمال، ولا أصوّر شعرها ولا... لأني إنما أنشأت هذه الكلمة لأتكلم عن رجليها. فقد لفَّت الآنسة اللطيفة رجلاً على رجل ومدت ساقها حتى لامست المقعد الذي جئت أقعد عليه، فتوقفت لحظة لعلها تنتبه فتتعدل، فما أظهرت أنها أحست بي، فلممت ثيابي وجمعت نفسي حتى دخلت فقعدت، فجاء حذاؤها على ثوبي، فتململتُ وتحركت، فما حفلتني ولا أبهت لي، فدعوت الجابي (الكمساري) وقلت له: قل للآنسة تنزل رجلها.

فنظرت إليّ نظر سيد المزرعة ووارثها إلى الفلاح وقالت:أنا حرة. فقلت: أنت حرة في بيتك يا آنسة. قالت: إذا لم يعجبك فخذ لك (تاكسي). فقلت: يا آنسة، إن للترام آداباً. فشمّخت بأنفها وصعّرت خدها وقالت: أنت تعلمني الأدب؟ قلت: نعم، هذه صناعتي مع الأسف.

فصرّت وجهها وقلبته حتى صار الناظر إليها يحسبها شربت كوباً من زيت الخروع، وقالت بلهجة عريف (شاويش) رُفِّعَ إلى الرتبة حديثاً: بَسْ! اعمل معروف! وتلفتت نحو الشارع فكأن المسألة قد انتهت.

فأخرجت ساعتي وقلت لها: معك دقيقة واحدة يا آنسة. إمّا أن تنزلي رجلك وإما أن أعمل ما أراه لازماً. ففكرَتْ لحظة، ووقف الترام، فنزلت وأنزلت معها رجلها.

* * *

فيا سيداتي ويا آنساتي: هل سمعتنّ القصة؟ فما قولُكنّ؟

أمّا أنا فلم أطلب إليها أن تنزل، وإنما طلبت منها (وأطلب من المرأة) أن تحترمني لتضطرني إلى احترامها، وأن تظهر لي لطفها (ولا أقول ضعفها) لئلا أبدي لها قوتي وبطشي فأثير شكواها، وأن لا تزيد في استغلال رعايتي إياها لئلا أدع رعايتها. أفليس هذا الطلب حقاً؟

وأن تُفهِمْنَني كيف تطلبنَ المساواة بنا ثم تتعالين علينا؟ ولماذا أنزل للمرأة في الترام عن مقعدي ولا تنزل لي عن مقعدها؟ ولماذا تضع حذاءها على ثيابي ولا أضع حذائي على ثيابها؟ وأين -بعد ذلك- تكون هذه «المساواة» بيني وبينها؟

يا سيدات ويا آنسات: بعضَ هذا الدلال، ولكُنّ الشكر!

* * *

الأذان

كنت سائراً في العُقَيبة مفكراً، قد تراخت مفاصلي واسترخت أعضادي، وتيقظ خيالي وانطلق وحده يسبح في بحار الأحلام، أحلام اليقظة التي تعتري الأدباء والفنانين كما تعتري إخوانَهم المجانين، فإذا بضجّة مروعة أرعبتني حتى لقد أحسست أن يداً رفعتني إلى السقف ورمت بي، وإذا أنا أسمع أصواتاً لا يَبين منها كلام ولا يُفهَم لها معنى، تشبه أن تكون: "لاهو كبور... روكبر كبر... شوهد ولا لالواء"، تخرج من حلوق عشرة رجال جهيرة أصواتهم متينة حناجرهم، يضاعفها أضعافاً هذا المكبّر الهائل المنصوب في رأس المنارة!

وإذا هذا الكلام هو الأذان في بعض مآذن الشام! وإذا النشيد السماوي الذي لم يقرع سمعَ الزمان ولا رَنّ في أرجاء الأرض نشيدٌ أروع منه روعة ولا أجل جلالاً، ولا أعظم في النفس أثراً ولا أبقى على الدهر خلوداً، قد استحال إلى هذه الضجة المبهَمة المرعبة التي لا يدري سامعها -إذا هو لم يعرفها من قبل- من أي لسان هي من ألسنة الجنّ أو الإنس! كما استحالت شعائرُ كثيرةٌ من شعائر ديننا إلى مظاهر مشوهة ممسوخة قد أضعنا -بجهلنا- حقائقها، وسلبناها روحها، وجهلنا منها معانيها.

«الله أكبر»، التي جعلها الله شعارنا في أذاننا وفي صلاتنا،

نهتف بها إذا أحرمنا بالصلاة، ونرددها إذا ركعنا أو نهضنا وإذا سجدنا أو رفعنا، لنوحي بها إلى أنفسنا المعنى الأكبر لهذه الحياة الدنيا، وهو الاتصال بالله، ونعيدها كلما خطر على أذهاننا خاطر دنيوي لنذكّر نفوسنا بأن الله أكبر منه. «الله أكبر» هذه تغدو على ألسنة مؤذنينا صراخاً كصراخ المحموم لا معنى له ولا روح فيه!

وهذا الأذان، الذي هو تلخيصٌ لمبادئ الدين وإجمالٌ لدستوره، يُعلَن خمسَ مرات كل يوم من فوق المنائر، كما يكرَّر البلاغ العسكري أيام الحرب في كل إذاعة ليحفظه الناس ويَعوه ولا يبقى لهم عذر إذا جهلوه أو أهملوه. الأذان الذي يدلّ على أن ديننا سهلٌ تُختصَر مبادئه في كلمات: الوحدانية والرسالة والعبادة (حيّ على الصلاة) والسعي لكل خير ينفع الفرد والأمة (حيّ على الفلاح)، وعلى أنه علني واضح لا خبايا فيه ولا خفايا ينادى به على رؤوس الناس.

أيجوز أن يفقد هذا الأذان روعته وجماله وهذه المعاني السامية فيه من أجل عادات لم يعد إليها حاجة ولا لها نفع؟

لقد كان أذان الجماعة أيام لا سبيل إلى النداء إلا بالحناجر، فما باله اليوم وقد كانت المكبرات، ولِمَ لا يذاع فيها الأذان (فقط، بلا زيادات ولا غناء ليلة الإثنين والجمعة) بصوت عذب نقيّ واضح لا صخب فيه ولا ضجيج، وننقذ الناس من هذا الذي يؤذي الناس، ولا يرضاه الله، ولا يقرّه الدين؟

* * *

الأمة ترفض فساد الإعلام

قرأت في «نصر» اليوم أن الطلاب رفعوا كتاباً إلى رئيس الحكومة يَشْكون فيه من خنوثة الإذاعة السورية وفراغها، ومن دعارة الأفلام المصرية وسخافتها، ففرحت واستبشرت، لأن في ذلك علامة على أن الطلاب قد بلغوا سن الرشد وعرفوا طريق الخير، ولم تعد تغريهم مغريات النفوس الضعيفة: أفلام الرقص الخليع وأغاني الحب الرخيص.

وأنا أؤكد أن الأمة كلها مع الطلاب، تشكو من فساد الإذاعة مثلَ الذي يشكون. وقد كانت تأمُل الإصلاح بتبدل المدير وتغير المجلس، فبقي كل شيء على حاله، لم يتبدل إلا الموازنة، فقد صارت مئة ألف ليرة في الشهر! أي أن هذه الأغاني الرخوة المائعة، وهذه الأسطوانة المكررة المعادة التي تفسد أذواق الشباب ورجولتهم، تكلف الأمة ثلاثة آلاف وثلاثمئة ليرة كل ليلة!

إن الأمة كلها، برجالها ونسائها وكبارها وصغارها وحضرها وبدوها، قد علمت أننا على وشك حرب مع اليهود، وأن أبناءنا في الجبهة فاتحون صدورهم لتلقي الرصاص، وأن الوقت وقتُ جِدٍّ واستعداد. ذلك لم يعد خافياً على أحد إلا على الإذاعة، فهي لا تحس شيئاً منه، ولا تعلم أن البرقيات تنثال انثيالاً على رجال الأمر وعلى الصحف تطلب إعلان النفير وتعميم التدريب

حتى تكون البلد كلها ثكنة عسكرية، ولا تزال سادرة في خنوثتها ولهوها. فهل سمعتم أن في الدنيا قوماً يطرقهم اللص المسلح ليزهق أرواحهم وينهب أموالهم، ثم يعكفون على الرقص والغناء؟

أنقوّي العزائم ونشحذ الهمم ونعد الرجال ليوم الكريهة بـ«انزلي، ما بنزل إلا بحلق الماس» و«لهاليبو يا ولد»، وهذا الهذيان الذي لا يصدر في مثل هذه الأيام إلا عن غفلة أو حماقة أو عداء مبيَّت لهذا الوطن؟ أين الإذاعة التي تنفخ الحماسة في الصدور وتصبّ القوة في الأعصاب، وتعلم هذه الأمة كيف تحفظ مالها وتصلح حالها وتهذب أخلاقها وتستكمل رجولتها؟

* * *

وهذه الأفلام المصرية، لماذا لا يصدر قانون يحرّم عرضها ويحاربها كما يحارَب الجراد والكوليرا واليهود؟ وإذا كان الجراد يأكل الزرع والكوليرا تضني الجسم فإن هذه الأفلام تأكل الرجولة وتنهك الأخلاق.

إننا في يوم شديد. إننا على أبواب حرب. إن العدو قريب منا متربص بنا، وإن كل أغنية رخوة في الإذاعة وكل فلم داعر في السينما إضعاف للوطن وتقوية للعدو، وطعنة من وراء للجيش الذي يرابط على الحدود يقف في وجه اليهود.

* * *

الزواج، مرة أخرى

كنت أكتب كلمة اليوم حين جاءتني الجريدة الصباحية، فوضعت قلمي وأخذت الجريدة، فوجدت فيها مقالة طويلة عريضة ووجدت صاحبها يقول (بهذا النص): يا أيها الآباء، لا نريد التزوج من بناتكم!

- لماذا؟

قال: لأن الآباء يطلبون مهراً وجهازاً وهدايا.

هذه الأغنية التي صارت مثل أغنية الشيطان، هذا الكلام الفارغ المردد الذي لا معنى له ولا حقيقة فيه، لأنه إذا كان في الآباء حمقى يظنون حين يأتيهم الخاطب أنه قد جاءهم المشتري، فتغلب عليهم خلائق التجار ويحسبونها صفقة بيع وشراء، فإن في الآباء من لا يطلب إلا الزوج الصالح الكسوب الذي يسعد بالمرأة وتسعد به المرأة. ولو أن كل شاب خطب بنتاً من طبقته وصاهر ناساً من أمثاله، وطلب من يعدله في المال ويقاربه في المعيشة ويوافقه في فهم الحياة، لما كان لهذه الشكوى أثر.

لا تريدون التزوج ببناتنا، أنتم أحرار، ولكنا نحن أحرار، ونحن لا نريد أن تفسدوا بناتنا ولا أن تغروهن بالخطيئة ولا أن تخالطوهنّ ولا أن تكلموهن. فإذا قبلتم فإن الله الذي أغناكم عنا

يغنينا عنكم، أمّا إذا كنتم لا تريدون الزواج ببناتنا وتريدون أن تتصلوا ببناتنا من غير زواج فأنتم إذن... أنتم أعداء لهذا الوطن عاملون على خرابه، وإن مكانكم السجن!

أليس هذا الكلام -على قسوته- حقاً؟ هل في الدنيا عاقل يخالف فيه؟ هل يرضى رجل شريف أن يعطيكم بنته بغير زواج؟

لا. إن القضية ليست قضية مقالة تُنشر ليفرح صاحبها برؤية اسمه الكريم منشوراً في الجريدة، وليست قضية رأي (لي رأيي ولك رأيك)، ولكنها قضية حياة أو موت لهذه الأمة، إي والله، ولأمجادها وشرفها ومفاخرها. وإذا كان يحرم -في الشرع والقانون- أن يكتب إنسان في صحيفة مقالاً في الدعوة إلى السرقة أو إلى القتل، فإنه يحرم كذلك في القانون والشرع أن يكتب في الدعوة إلى الزنا وفي التنفير من الزواج، ويجب وجوباً اعتبار هذه الكتابة جرماً وسَوق صاحبها إلى النيابة. ونحن الآباء على حق حين ندافع عن عفاف بناتنا أن تودي به هذه الدعوات الآثمة، ولا يستطيع أحد أن ينكر عليها هذا الحق.

إن الذي يلهي الشباب عن الزواج هو هذا الاختلاط، فإذا شئتم أن يَشفى المريض فاقطعوا أسباب المرض وامنعوا دواعي الداء، وإلا لم ينفع علاج. ماذا ينفعكم أن توقَد المدفأة والشباك مفتوح، تدخل منه العواصف والأمطار؟

* * *

نريد شباباً أعزّة

رأيت جنازة أمامها تلاميذ صغار، بعضهم يحمل أكاليل الزهر وبعضهم يقرع طبولاً معلقة بالأعناق، كل واحد منها أكبر من حاملها، أو ينفخ في أبواق ضخمة يعجز الرجل القوي عن النفخ فيها إلا أن يبذل جهده ويرهق نفسه ويهلك رئته. فسألت، فإذا هؤلاء تلاميذ مدرسة خيرية، وإذا هم أيتام تُخْرجهم المدرسة كلما مات ميت، وتنزع عنهم أسمالهم البالية لتلبسهم هذا الألبسة، وتجمع من ورائهم المال لمشروعها الخيري.

فتألمت -والله- لحالهم، وعجبت كيف يكون الشر سبيلاً إلى الخير، وكيف ينقلب الإصلاح إلى فساد، وكيف نعبث بجلال الموت بهذه الألاعيب: بالآس والزهر والطبل والزمر، وروعةُ الموكب في الصمت، وجلالُ الموت (كما قال شوقي) بالموت.

إن البِرّ باليتامى أن نمسح عن قلوبهم أثر الأحزان ونُنسيهم آلام اليُتْم ومذلة فقد الأب، وننشئهم على العزة والمسرة والكرامة والأمل، لا أن نريهم دائماً صور المآتم وأشباح الجنائز، فنذكرهم بمصابهم ويتمهم، وأن نكسر نفوسهم ونجعلهم «كلاليب جنازة» وأن نفهمهم أن هذا هو عملهم الأول وأن الدرس عمل ثان،

لذلك نعطل الدروس إن جاءت الجنازة ونعلمهم الرياء، فنلبسهم هذه الحلل يوم الخروج ليحسب الناس أن هذا هو لباسهم، وما لباسهم إلا الخرق والمزق وبالي الأسمال، وأن نشحذ عليهم كما تشحذ «عجوز القنوات» على الأولاد الذين تستأجرهم وتُضجعهم أمامها على الأرض!

إن هذه الجمعية الخيرية عزيزة عليّ، ولم أكن لأعلن نقدها لو كان أفاد معها النقد السري، وإني سأخشن لها القول إذا لم ينفع معها هذا الكلام اللين. لأنّ الوطن يريد شباباً أعزة كراماً، ملء نفوسهم الأمل وقِيد أبصارهم الحياة، لا يريد شباباً أذلة شحاذين يلحقون الجنائز ويعيشون بالموت!



متى نثق بأنفسنا؟

من أمد قريب زارني رجل كنت أعرفه مدير مدرسة أهلية، ومعه شاب غريب قابلني بأدب وتواضع وقال لي إنه الملحق الثقافي في المفوضية الإنكليزية، ليأخذ مني تصريحاً بأن الشيوعية مخالفة للإسلام. فأفهمته بأن الشيوعية والديموقراطية، والروس والإنكليز والأميركان كلهم عدو للإسلام. وانصرف غير مسرور.

وكلمني بعد ذلك بيوم رجلٌ كنت أعرفه في العراق معلمَ رسم، فقال بأن الملحق الصحافي الروسي يريد هو الآخر أن يزورني، فأخبرته أنه لا شأن لي به ولا بالآخرين وأنهم كلهم عدو. وانصرف غير مسرور.

وجعلت أفكر، أفكر في هذه الحال التي لا يمكن أن تصل إلى أسوأ منها أمّةٌ ذات كرامة واستقلال. غدونا مثل الشحاذين الذين يمدون أيدهم ليتلقفوا كل ما يلقى فيها. والحكومة غافلة، والعلماء نائمون.

الحكومة لا تفتح عينيها لترى ما يصنع هؤلاء الناس وكيف يتصلون برجال منا: يزورني أحدهم أول مرة فيكون التعارف، ثم يدعوني فتكون المودة، ثم يتصل الود فتكون الصداقة، ثم أصير جاسوساً وأنا لا أشعر!

وإلا فما هو الجاسوس؟ وماذا يصنع أكثر من هذا؟

وهؤلاء الوسطاء: أليسوا سوريين؟ ألا يُعَدّ عملهم هذا خيانة للوطن؟ ألا تمتد إليهم يد القانون؟

لقد تخلصت أنا من الرجلين لأني قد تعودت بأن أقول ما يقال ولو خالفت هذه الآداب المخنثة المائعة التي يسمونها آداب المجاملة، وعرف الناس ذلك عني فصاروا يقبلونه مني. ولكن ما كل واحد يستطيع الخلاص منهم. فأين الحكومة؟

والعلماء لا يشعرون أن عليهم واجباً ثقيلاً، هو أن يُفهموا الشباب أن النظام الشيوعي والنظام الرأسمالي ليسا هما كل شيء، ولا يجب حتماً أن نتبع واحداً منهما ونكون مطايا لأصحابه، وأن لنا نظاماً مستقلاً، نظاماً كاملاً شاملاً يحل هذه المشكلات كلها على طريقته، وهو الإسلام.

لقد قام رجل مسلم فصرح بهذه الحقيقة وسط الكونغرس الأميركي، هو لياقت علي خان، قبل أن يقوم العلماء المسلمون فيصرحوا بها في جامع بني أمية. فأين العلماء؟

ومتى نشعر بكرامتنا، فلا يطمع فينا كل راغب ولا يستامُنا كل طالب؟ ومتى نعرف ثرواتنا، فلا نمد أيدينا لنشحذ أبداً؟ نشحذ القوانين وعندنا أعظم تشريع في الدنيا، ونشحذ المبادئ الاجتماعية والأساليب الأدبية كما نشحذ الموضات وأدوات الزينة؟

متى نكون رجالاً نقبل من الغرب النافع ونرفض الضار؟ ومتى نرى الحق حقاً ولو كان من مصنوعات الشرق، ونرى

الباطل باطلاً ولو كان عليه دمغة الغرب؟

متى نعرف قيمة أنفسنا فلا نذوب ونمّحي إذا وقفنا أمام المسيو، ولا تنعقد ألسنتنا ونخرس إذا قال المستر، بل نواجههم مواجهة الرجال ونأخذ منهم ونردّ عليهم، ونعلم أن المنبع الذي غرفنا منه حضارتنا ومجدنا وأَفَضْنا منه على الغرب لا يزال متدفقاً جارياً، وأنا نستطيع أن نغرف منه وأن نفيض على العالم مرة أخرى؟

إننا لا نحتاج إلا إلى شيء من الثقة بأنفسنا والإيمان بكفاياتنا، وبأن لنا ثروة من العلم والتشريع والحضارة والخير والعدالة الاجتماعية لا نحتاج معها إلى «شحاذة» القوانين والمبادئ، ثروة هي الإسلام.

* * *

الموضة

كنت أعددت لهذا العدد كلمةً غيرَ هذه وحملتها إلى الجريدة، فلقيني عند باب العمارة صديق لي من الموظفين له مرتب جيد وزوجة متعلمة بنت أكابر، فقال لي: أستحلفك بالله أن تسمع ما أقول لك وتنشره غداً.

قلت: إني هيأت كلمة الغد، وهي معي، فانتظر يوماً آخر.

قال: لا والله؛ لا تكتب إلا عني.

قلت: أتريد أن أعدك من غير أن أعرف الموضوع؟ لعله سخيف.

قال: إنك تكتب أشياء كثيرة لا تخلو من سخف، فأحسب هذه منها.

قلت: طيب، إنّا لله، تفضل.

قال: اشتريت لزوجتي الشتاءَ الماضي ثوباً للسهرة من الجوخ الغالي، غرمت في ثمنه وخياطته ثلث راتبي بالضبط، واضطرب ميزان مصروفي وقاسيت الضيق أشهراً، حتى إذا أوشكت أن أسد النقص وأدفع العجز في الموازنة تغيرت «الموضة» وجاء زي التطويل والتعريض، فقامت تطلب ثوباً جديداً، ودأبت تلحّ عليّ

وتثقب أذني وتأخذ بخناقي حتى ذهبت فاشتريته لها، وغرمت هذه المرة نصف الراتب. فلم ينقضِ إلا زمن يسير حتى تغيرت «الموضة» وصار الزي أن يكون الثوب إلى نصف الساق، لا يصعد إلى الركبة كما كان أولاً ولا ينزل إلى الكعب كما صار ثانياً، فعادت إلى الطلب!

فماذا أصنع؟ ومن أين أشتري لها ثوباً جديداً؟ وإذا أنا استدنت واشتريته وأكلت الخبز والجبن شهرين لوفائي الدَّين، فمن يضمن لي ألا تتغير «الموضة» مرة رابعة وخامسة وعاشرة، ما دامت الأزياء في باريس ونيويورك تلعب بنا كما تريد وتأخذ من أموالنا وتمتص دماءنا؟ ومَن يخلّصني منها ومن امرأتي المحترمة التي حيرتني: إن رددت طلبها نغصت حياتي، وإن أجبتها خربت بيتي؟

ماذا تعمل أنت؟

قلت: أما أنا فقد عافاني الله مما ابتلاك به، ولكني أسأل لك القراء!

* * *

تشابه أسماء

كثيراً ما يحمل شخصان اسماً واحداً فيُظَنّان شخصاً واحداً، وتكون من ذلك قصصٌ طريفة وأخبار. منها ما وقع من أسبوعين حين جاء الناس يعزّونني بالصديق الحبيب أنور العطار -متّعه الله بالعافية- لأن سَمِيَّه توفي رحمه الله، ومنها أن الطالب محمد البزم دُعي مرة إلى جلسة المَجْمَع مكان الأستاذ محمد البزم، ومنها أن الأستاذ الشيخ صبحي الصبّاغ تلقى مرة إنذاراً شديداً موجهاً إلى رجل في الحي اسمه كاسمه.

ومنها، بل من أعجبها، أني عرفت من أيام أن قاضي دمشق يحمل اسماً مثل اسمي، وأن الناس يظنّون أني وإياه شخص واحد، ويحسبون أن علي الطنطاوي القاضي هو علي الطنطاوي الذي يكتب هذه الكلمات.

ولا يزالون لذلك ينقدون ما أكتب ويعترضون سبيلي ويضايقونني، فإن أشرت إلى الحب قالوا: وهل يكتب القاضي في الحب؟ وإن قسوت في نقد قالوا: وهل يسبّ القضاة الناس؟! ولا يزالون يلقاني الواحد منهم في الطريق أو يجاورني في الترام فيحدثني حديث المحكمة ويكلمني في قضاياها، يظن أني القاضي فيستغل لطفي ورقّتي، مع أني سمعت أن القاضي الذي

يحمل اسمي رجل جافّ الوجه والعياذ بالله، جافي الطبع ماضي اللسان، لا يقبل شفاعة ولا وساطة ولا سبيل إلى التفاهم معه[1].

وقد خدع هذا التشابه في الاسم صديقي القديم الأستاذ وديع الصيداوي، فجعله يكتب في عنوان هذه الكلمات «بقلم الأستاذ الشيخ فلان»، وخدع من يرد عليّ، فلا يزالون يكتبون «فضيلة الشيخ» و«قال فضيلة الأستاذ»... مع أني أديب من عباد الله الأدباء المساكين أقول ويُقال لي، وأردّ ويُرَدّ عليّ، وأمدح وأُمدَح وأهجو وأُهجَى. وإني في هذه المحنة من أكثر من عشرين سنة، سمعت فيها من مدحي حتى لا يطربني مدح، وقرأت فيها من شتمي حتى لا يهزّني شتم.

لذلك أرجو من إخواننا الكُتّاب الذين يتفضلون بمناقشتي، ومن الشبان الذين يريدون أن يتعلموا الكتابة فيّ (كما يتعلم الحلاقون الحلاقةَ برؤوس اليتامى) أن يكتبوا بحرّية، وأن يدَعوا معي هذا «الأدب» الذي لم أتعوّد عليه. وأرجو من القراء أن يعلموا أني رجل أديب أكتب ما يكتب الأدباء ويقول ما يقولون، وأني أمدح وأهجو وأصف وأصوّر العواطف، وأنه لا صلة بيني وبين ذلك القاضي إلا أن المصادَفة جعلته يحمل اسماً مثل اسمي!

* * *

(١) أدرك القارئ حتماً أن هذه المقالة من الأدب الساخر، وأن الكاتب والقاضي هو نفسه الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله. وكان في القضاء صارماً حازماً كما وصف نفسه هنا، وله في هذا الباب غرائب ذكر بعضَها في الذكريات، وأكثرها في الجزء الرابع (مجاهد).

موازين الحق

في سيرة عمر بن عبد العزيز أن عمر كان ينهى سليمان بن عبد الملك عن قتل الحرورية (أي الخوارج)، ويقول: ضعهم في الحبس حتى يُحْدثوا توبة. فأُتي سليمان (وهو الخليفة) بحروري مستقتل، فقال له سليمان: إيه؟ فقال: نزع الله لحييك يا فاسق يا ابن الفاسق. فقال سليمان: عليّ بعمر بن عبد العزيز. فلما أتاه عاود سليمان الحروري فقال: ما تقول؟ قال: وماذا أقول يا فاسق يا ابن الفاسق؟ فالتفت سليمان إلى عمر وقال: يا أبا حفص، ماذا ترى عليه؟ فسكت عمر، فقال: عزمت عليك لتخبرني. قال عمر: أرى عليه أن تشتمه كما شتمك.

هذا وسليمان أمير المؤمنين والحاكم المطلق فيما ندعوه اليوم بجمهورية سوريا ولبنان والأردن وفلسطين والعراق وإيران والأفغان وأرمينيا والباكستان ومصر والسودان وبرقة[1]، وتونس والجزائر ومراكش وإسبانيا والبرتغال والسعودية واليمن... وبلاد أخرى لعلي نسيتها! كان له وحده الأمر والنهي فيها والعطاء والمنع، وكان سيد العالم وأعظم ملوك الأرض، يشتمه ثائر وقح أقبح الشتم، فلا يرى عمر عقوبةً له إلا أن يرد الخليفة الشتيمة

---

(١) هي ليبيا (مجاهد).

عليه، وحكومتنا (حفظ الله حكومتنا) إذا كتبَت جريدةٌ تنكر الله باسم الكلام على «الوجودية»[1] أو تفسد أخلاق الناشئة باسم التقدمية، أو تسفّه عقائد الأمة وتسخر من دينها باسم تلخيصها كتاباً سخيفاً لمؤلف جاهل، لم تقل لها شيئاً، بل إنها تأتي بمَن كتب ينكر الله فتجعله مفتشاً وموجهاً. وإذا كتب عنها أحدٌ من الصحفيين كلمة أمسكت بتلابيبه واستاقته إلى القاضي!

ولو أخذت بحكم عمر لزلزت الأرض بمن يعدو على الدين أو يسيء إلى الخلق أو يؤذي الوطن، ولوكلت بمَن يسبها رجالاً من ذوي الأقلام الحادة والألسنة الطويلة، فوضعتهم في دائرة المطبوعات وسلطتهم عليهم، يناوشونهم ويقرعون حججهم بأقوى منها ويضربون شتائمهم بمثلها، واستراحت وأراحت القضاء.

* * *

(١) الوجودية حماقة جديدة خجل أصحابُها أن يُقال عنهم «بهائم» لأنهم يعيشون كالبهائم بلا عبادة ولا خلق، فأحبوا أن يقال عنهم «وجوديون». هذه هي الحكاية كلها!

كفانا غفلة

إذا فاجأك رجل فأعطاك صرّة فيها ألف ليرة ذهبية ثم مضى لم يسألك بدلاً عنها ولا عوضاً منها، لم يسألك ولا الشكرَ عليها، كيف يكون شكرك له ومحبتك إياه؟ خبرني، ألا تحسّ أنه صار أحب إليك من أخيك وأمك وأبيك؟ وإذا أعطى إنسان ولدك الصغير علبة فيها من بديع الطُّرَف وغريب اللُطَف ما لا يجرؤ على أن يحلم بمثله، ألا تكون هذه العلبة أحسن عنده من الصرة عندك؟

فكيف جرى -إذن- توزيع هذه العلب الأميركية على تلاميذ المدارس؟ كيف سمحت الحكومة بهذه الدعاية المكشوفة للأميركان بعدما صرحت الأمور وهتكت الستر، وظهر أن أميركا هي التي رمتنا بشر الدواهي التي عرفها تاريخنا الحديث: بإسرائيل؟ وهل صرنا يُضحَك علينا بعلب اللعب تعطى لصبياننا ويلقَّنون معها حب أميركا والتسبيح بحمدها، هم وأهلوهم في دورهم، كما يُضحك على زنوج أفريقيا بالخرز والأمشاط والمصابيح الكهربائية، وتؤخَذ -عوضاً عنها- بلادهم وحرياتهم وكرامة نفوسهم؟

وكيف قبلت إحدى جمعياتنا الوطنية أن تكون هي واسطة هذه الدعاية؟ أما كان خيراً لو رَدَّتْ هذه التوافه وأرَتْ أصحابها

أننا أمة يقظة أبية لا تجوز عليهم الأضاحيك؟ أو لو يُنفق ثمنها على إطعام اللاجئين الذين تؤخذ الدنيا باسمهم ولا ينالون منها إلا الفتات، وتقام الحفلات والولائم بأموالهم و يبقون يسألون على الباب؟

وكيف نوزع الأفلام الأمريكية على مدارسنا؟ وكيف يُدعى مديرو المدارس الرسمية بكتاب رسمي من الوزارة إلى المكتب الثقافي البريطاني ليروا فلماً اختاره لهم المكتب؟ فلماً علمياً (بالطبع) ليس فيه شيء ولا يُراد من إنفاق الأموال على عرضه إلا منفعتنا نحن فقط!

إلى متى نبقى مغفلين تلعب بنا دعايات الأميركان والإنكليز والروس؟ متى ننتبه؟ متى نعي؟

* * *

الشفاعة للمجرم جريمة

لا تدخل مجلساً ولا تتحدث إلى أحد في شؤون البلد، إلا سمعت منه الشكوى المُرّة من بعض الموظفين الأشرار الذين يبيعون المصلحة العامة والأمانة والواجب بما يملؤ جيوبهم أو يُرضي شهواتهم، ويعجبون من بقاء هؤلاء الأشرار في مناصبهم وثباتهم على كراسيهم، ويحمّلون الرؤساء تبعة بقائهم.

مع أن الذي يُبقيهم ويدافع عنهم هم هؤلاء الناس الذين يشكون منهم. وكلما قام في دائرةٍ رئيسٌ مصلح حازم، فطرد واحداً من هؤلاء المفسدين أو كفَّ يده، سلّط هذا الموظف أصدقاءه واستعان هؤلاء بأصدقائهم، حتى يتوصلوا إلى إخوان الرئيس وإلى من يعز عليه وإلى أصحاب المعالي وإلى وجوه الناس، فيصوروا لهم هذا المفسد المطرود على صورة الشهيد المظلوم، ويلبسوه ثوب التقى ويحيطوا هامته بهالة التقديس، ولو كان اللص الذي يسرق في المحكمة أو الفاجر الذي يفسق في الجامع.

ولا يزال هذا الجيش من الأصدقاء والكبراء والوجهاء يلاحق هذا الرئيس المصلح في مكتبه وفي داره، ويقابله بالكلام ويراسله بالكتب ويبعث إليه بالبطاقات، وهو يجاوب هذا ويكلم

ذاك ويقنع الثالث ويشرح الأمر للرابع، حتى تتحطم أعصابه وتَهِن قواه. وهو إن تراجع خان المصلحة، وإن ثبت عادى هؤلاء الوسطاء جميعاً، يقولون: خْطَيّة[1].. حرام، له عيال.. قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق...

والناس الذين يؤذيهم هذا الشرير، أليسوا «خطيّة»؟ أليس ظلمهم حراماً؟ وكيف نصلح إذن؟ كيف نطهّر الدوائر؟ وهل في الدنيا مجرم ليس له عيال؟ أفنجوّع عيال الناس ليُشبع بالسرقة عياله؟ أنخرب بيوت الناس ليعمر بالإجرام بيته؟

يا ناس، حرام عليكم؛ إنّ هذه الشفقة عاطفة مخنَّثة آثمة. إن الذي يتشفع للمجرم مجرم آخر. إن كلمة «خطية، حرام» هي التي أدالت دولة آل عثمان.

* * *

(١) كلمة من عامية الشام (يلفظونها بسكون أولها) بمعنى مسكين (مجاهد).

حاربوا الرذيلة (١)

يظهر أن الأستاذ علي الطنطاوي من يوم صار قاضياً ممتازاً آثرَ وقار ذي السن ومجاملة ذي المناصب على ما تعوده من قولة الحق والصدع به. وإلا فكيف قرأ هذا المقال الذي نشره «ف س» عمّا في حي السبكي واستطاع أن يملك أعصابه فلا يحركها ما فيه، وإنه ليحرك الحجر؟

إنني أقسم بربّ العزة أن هذا الأمر لو كان قبل عشرين سنة لرَجَّ البلد من أرجائها رجّاً ولأقام ثورة ولأسقط حكومة، فماذا جرى لنا؟ هل بلغنا من المذلة ومن فقد المروءة ومن ضياع النخوة أن نرى المواخير وسط منازلنا، والزنا على مرأى من بناتنا، والمومسات يقمنَ بيننا، وأبوابنا يقرعها -ضالين- السكارى، وبناتنا يعرض لهنّ -مخطئين- الزناة، ولا نصنع شيئاً؟!

أبلغ بنا الأمر أن نُحكم بقانون يعاقب بالسجن من يسرق عشر ليرات، ولا يرى على من يسرق العرض من عقاب؟ حتى الذي يزني ببنته أو أمه يعاقب بحبس شهرين؟!

لا، إننا لا نطلب أن نغسل النجس بالنجس ونطفئ النار بالنار ونحارب الشر بالشر، فنقر الزنا (وهو رأس الآثام) ونفتح له داراً. لا، إن ذلك لا يرضاه الله ولا الخلق ولا العقل، وإذا نحن

فتحنا هذه الدار للشباب وحشدنا لهم فيها الآثمات ليستغنوا بها عن الزواج، فماذا نصنع بالبنات الشريفات في البيوت؟ أنتركهنّ للأمراض والوساوس العصبية ونجعلهن عانسات مدى الحياة؟

أهذه هي «التقدمية» التي صدعتم بها رؤوسنا؟ أهذه المساواة بين الجنسين؟ أهذه هي العدالة الاجتماعية؟

إنّ أَولى الناس بمحاربة هذه الفكرة المجرمة الجمعيات النسائية.

إننا نطلب تعديل قانون العقوبات الذي يبيح الزنا، ونطلب -قبل ذلك- إغلاق هذه الدار وأمثالها حالاً. وأنا واثق من أن مدير الشرطة العام رجل شهم شريف، يغار على نساء الناس كما يغار على نسائه ويحب لأهل البلد ما يحب لنفسه، وأنها لا تأتي على هذه المقالة أربع وعشرون ساعة حتى يكون هذا البيت قد أغلق. وسترون صدق ما أقول.

* * *

حاربوا الرذيلة (٢)

في كل يوم شكوى جديدة من انتشار البغاء وكثرة المواخير وبيوت الخنا، ومع كل شكوى دعوة إلى إعادة فتح ذلك (المحل)، كأن المسألة ليست مسألة فضيلة ورذيلة، ولا قضية أمة يحييها الزواج الذي يقيم البيوت على تقوى وينشئ الأولاد على صحة وطهر، ليكونوا لهذه الأمة عماداً لها في سلمها وجنوداً لها في حربها، ويقتلها الزنا ويخرب بيوتها ويضيع عليها بنيها ويذهب بسوادها ويبث فيها الأمراض، أمراض الجسم وأمراض الروح، وإنما هي قضية «محل» يُفتح ويغلق!

يقولون: ماذا يصنع الشباب؟

يتزوجون. هذا هو الجواب الطبيعي، أما هذا «المحل» فلماذا لا تفتحون للصوص الأموال «محلاً عمومياً» تسيّبون فيه البضاعة التي يتهاون أصحابها بحفظها وتقولون لهم: تعالوا اسرقوا من هنا، ولكن لا تسرقوا البيوت؟

لماذا؟ ألأن الأموال أثمن من الأعراض، ولأن الذي يأخذ حذاء آخر وحماره يكون سارقاً مجرماً، والذي يسرق من بنت المحل أثمن ما تعتز به البنات، ويتركها من بعده محرومة من دفء البيت وحنان الأسرة وجمال الأمومة وفتون الحب، ويصيّرها متعة

لكل مستمتع، تشقى بهم ويسعدون بها، وتألم ويتلذذون وتُجبَر ويختارون وتعطي ويأخذون... الذي يعمل هذا كله لا يكون سارقاً ولا شيء عليه؟

أهذه هي الحضارة؟ لعنة الله على هذه الحضارة!

إن إعادة «المحل» شر، وما نحن فيه شرٌّ من إعادة المحل، وما نحن فيه -إن استمر- صيّرَ البلد كلها «محلاً عمومياً». نعم، هذا هو الواقع. فلا تقبلوا بالواقع وتفزعوا من ذكره، فتكونوا كالنعامة التي تخبئ رأسها في الرمل تظن أنها إن لم تَرَ الصياد فإن الصياد لا يراها. لا تتجاهلوا الخطر وهو مُحْدق بكم، والنار وهي ماشية إليكم، ولا تناموا عل فوهة البركان وهو يضطرم ويتلظى من تحتكم.

ماذا تنتظرون؟ وقد كانت بين شبابكم وبناتكم حُجُب فأزحتم تلك الحجب، وكان بينهما من خوف الله وخوف العار وخوف المرض سدود فهدمتم السدود: تركتم الدين فنسوا خوف الله، وأخذتم حضارة الغرب فذهب خوف العار، وجاء البنسلين فراح خوف المرض، فماذا بقي؟ وهل تريدون أن تجمعوا النار والبارود ولا يكون انفجار؟

حتّامَ الغفلة؟ انتبهوا يا ناس! واعلموا أنها لا تنفع إعادة تلك «المحلات». كلا، ولا تفيد الخطب ولا المقالات، ولا ينفع إلا الزواج. الزواج هو وحده العلاج.

على كل قارئ أن يحمل هذا العدد من الجريدة إلى صديقه وجاره ويقرأ عليه هذه الكلمة إن كان لا يقرأ، وعلى كل قارئ أن

يجعل هذه القضية قضيته وأن يعالجها بنفسه وألا يتكل فيها على غيره. أليس لكم بنات؟ إذن فادفعوا هذا الخطر عن بناتكم. ولا تتهاونوا بالأمر، فإنه النار ماشية إليكم، بل إنه أفظع من النار، لأن ما تذهب به النار يعوَّض أو يجدَّد، والعرض الذي يذهب لا يعوض أبداً ولا يجدد.

فلا تضيعوا اليوم فرصة للإصلاح ستندمون عليها حين لا ينفع الندم وتقولون: ليت أنّا فعلنا! يوم لا تفيد «ليت»، ولا تعيد البيت الذي تقوّض ولا الخلق الذي ضاع!

* * *

علاج للرذيلة

قال لي صديق: أرأيت إلى هذه البيوت الآثمة التي يجري فيها الفحش السري خلال بيوت الأشراف، والتي طالما شكوتم منها فلم يسمع منكم أحد؟

قلت: نعم، فما عندك؟

قال: لقد كان في حيِّنا واحدٌ من هذه الدوِر، ملَّتْ ألسنتُنا من الشكوى منه وكلّت أرجلنا من التردد من أجله على الوزارات، حتى كدنا نيأس ونقعد عن إنكاره، فيلعننا الله كما لعن بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم، أو نغضب فنبطش ونضرب، فأنقذنا منه الشيخ «فلان» على أيسر حال.

قلت: وكيف كان ذلك؟

قال: خبّرناه بحال تلك الدار، فأمر بكرسي فنُصب له أمامها ساعة يؤمّها قاصدوها من الفجّار (وأنت تعلم هيئة الشيخ وهيبته وسنّه ووقاره). ورآه قوم من الوجوه ومن العلماء فسلّموا عليه، فدعاهم وأقام لهم كراسي فقعدوا معه. فكان الشاب الذي يريد الدخول يرى القوم، فيستحي ويعود، ومن اقتحم ولم يُبالِ حيّاه الشيخ أطيب تحية، ودعاه فوعظه ألطف وعظ ونصحه أرقّ

نصيحة، وبيّن له قبح الفاحشة وما توعّد الله به أهلَها. وما يزال به حتى يستلَّ شهوته من قلبه، ويملأه إيماناً بالله وخشيةً منه.

وأقام على ذلك الحال ثلاث ليال، ضَجّ فيها أهل المنزل ورأوا أنها انقطعت أرزاقهم. فأمر الشيخ لهم بعطيّة وهدية، وأحسن إليهم وعطف عليهم، فكان من ذلك أن تابت صاحبة المنزل وأقلعت، وتزوج بناتَها اللائي كُنّ عندها شبابٌ اختارهم الشيخ، أو سافرنَ إلى أهليهن بعدما ملأ الشيخ بالمال أيديهن.

قلت: إنك تمزح أو تتخيل.

قال: لا. أحلف لك، لا أقصّ عليك إلا ما كان.

قلت: فمن أين أتى الشيخ بالمال؟

قال: منه ومن كرام الحي وأغنيائه، فتحوا له صناديقهم وقالوا له: "اغترف منها ما شئت"، فالناس لا يضنّون بالمال للخير، بشرط أن يبلغ محله ويؤتي ثمرته.

* * *

الاستعداد للجهاد

أحلف لقد خجلت ووددت لو اختبأت في بيتي شهراً، مما لقيت من الثناء على هاتين الخطبتين والإعجاب بهما والشكر عليهما، من أصدقاء ومن خصوم، وممّن أعرف وممن ليس بيني وبينه معرفة، ومن متعلمين ومن عوام، ومن رجال ومن نساء.

ولست أقول هذا لأني زُهيت بهذا الظفر واغتررت بهذا التشجيع. لا والله، ولقد خطبت في مواقف أخطر من هذا الموقف ولقيت إكراماً أكثر من هذا الإكرام، وعانقت أعواد المنابر أكثر من خمس وعشرين سنة في الشام ومصر والعراق. ولكن أقوله لأدلّ أولي الأمر على أن الناس ما أعجبوا بخطبتيّ هاتين لبلاغتهما ولا لسحر بيانهما ولا لروعة إلقائهما، بل لأنهما ترجمتا عمّا في أفئدة الناس جميعاً وعبّرتا عمّا في قلوبهم.

أفئدة الناس تغلي من الحماسة وتضطرم بالرجولة وتشتاق إلى الجهاد. الناس الذين كانوا يجزعون من الجندية أكثرَ من جزعهم من الموت، وكانوا يخافون «أبا لبادة» أكثر من خوفهم عزرائيل، وكانوا ينادون حينما يطلع من أول السوق: «عباية» ليحذر الفُرّار ويختبئوا حتى لا يداهمهم فيقول لهم كلمته التي كانت تقطع قلوب الرجال: «نَزْدِهْ وثيقة»؟[1]... هؤلاء الناس قد

(١) في الذكريات: كان الضابط الذي يتعقب الفُرّار يلبس لبّادة، لذلك=

تبدلوا خلال ثلث قرن حتى صاروا يمطرون الحكومة والصحف بالبرقيات والكتب، يطلبون ويلحّون في الطلب، يريدون أن يلبسوا بزة الجند ويحملوا السلاح.

الدماء تشتعل في العروق حماسةً ونجدةً وكرهاً باليهود وحباً للثأر، والحكومة لا تبالي فلا تطبق نظام الفتوة، وقد طبقوه في العراق -لما كنا مدرسين فيها- فصارت المدارس ثكنات، وإن بقيت بالعلم مدارس. شدّت الجنديةُ أعصابَ الطلاب وقوَّتْ خلائقهم، وردَّتْ الدماء إلى وجوههم والعزم إلى قلوبهم وقضت على التفاوت بينهم، فلم يبقَ غني يأتي المدرسة بأغلى الحلل وفقير بالرث المهلهل، ولكنهم جميعاً جنود بلباس الجنود.

ونحن -المدرّسين- قد لبسنا يومئذ ثياب الضباط ووضعنا الأشرطة على الأكتاف. ولا أكتم القراء أنّا كنا نجهل (أنا وأنور العطار) كيف نمشي وكيف نرد تحيات الجنود في الطرقات، ولكني مع ذلك لم أكن أستطيع أن أمشي منحنياً، لأن النطاق يشد بجلدته صدري وظهري، ولا أقدر أن أسير متخاذلاً، لأن الحذاء الطويل (الجزمة) يقيم رجلي، ولو لم أستفد إلا هذا لكفاني[1].

= يدعونه «أبو لبادة»، وإذا رأوه نادوا «عباية» ليهرب من ليس معه وثيقة إجازة من الجندية. وكان كلما أبصر شاباً أمسك به أعوانه وقال له: نَرْدِه وثيقة؟ أي أين وثيقتك؟ فإن لم يجدها جرّه إلى السُّويقات (الذكريات ١/٥٧) (مجاهد).

(١) انظر مقالة «يوم الفتوّة في بغداد» في كتاب «بغداد». وفي الجزء الرابع من الذكريات (في الحلقتين ١١١-١١٢) تفصيل لما أوجزه هنا، ولا سيما في الثانية «كيف صرت ضابطاً» (مجاهد).

فلماذا لا تطبّق الحكومة نظام الفتوّة في المدارس؟ ولماذا لا تفتح مراكز التدريب في كل حي كما كانت الحال أيام الاستقلال في سنة ١٩١٨، يوم كانت البلد من الحماسة شعلةَ نار؟ ولماذا يذهب التلاميذ الآن إلى الرحلات بالسيارات، من الباب إلى الباب، فلا يمشون مشية الجند وينشدون أقوى الأناشيد وتخفق فوق رؤوسهم الأعلام؟ لقد كنا نمشي في أسواق دمشق وضواحيها ننشد:

نحن لا نرضى الحماية لا ولا نرضى الوصايـة

فيردّدها معنا البائع والشاري والواقف والماشي، حتى الأطفال. ولماذا لا تُنشر في الناس الكراسات وفي الصحف المقالات وفي المذياع الإذاعات تعلمهم كيف يتّقون الهلاك إن كانت غارة؟ أنا لا أدري إن كانت غارة ماذا أصنع: هل أبقى في البيت أم أخرج إلى الشارع؟ وهل أقوم أم أنبطح على الأرض؟ فمن أين أتعلم ذلك: من القانون المدني أم من كتاب البيان والتبيين؟!

* * *

أيها الحاكمون: إن عندكم شعباً يريد أن يعمل، يريد أن يجاهد، فلا تصبّوا على جمرة حماسته كأس ماء، فإنكم لا تجدون كل يوم مثل هذه الحماسة.

متى كنتم تجدون طلاباً يطلبون أن تخرس هذه الأفواه التي تغني في الإذاعة الأغاني الرخوة المائعة الفاسقة لتنطلق من الحناجر أناشيدُ الجهاد والجلاء؟ متى كنتم تجدون طلاباً يطلبون

أن تُقطع الأيدي التي تعرض هذه الأفلام الداعرة الفاجرة، وأن نستبدل بهزّ البطون هَزَّ الأعلام، وبتحريك الأفخاذ تحريك البنادق؟ متى كنتم تجدون طلاباً يتركون لذائذ الشباب ومغريات الشباب ليصيروا جنوداً للوطن يشتغلون بصناعة الموت؟

يا أيها الحاكمون: أنتم وحدكم الآن المسؤولون.

* * *

مكافأة البطولة

جاءتني رسالة من أخي شاعر الشام أنور العطار وهو مريض في داره، لم يمنعه مرضه من التنبيه إلى مكرمة والتذكير بواجب.

يقول إنه شاهد في الأسبوع الماضي فلم «النافذة» فكان أعلقَ مشاهده بالذاكرة وأمسَّها بالنفس مشهدُ الطفل وقد انهار البناء به ولبث معلقاً على سارية متكئة على جدار تهتز في الفضاء، فما كان من رجال الإنقاذ إلا أن أخذوا بأطراف بساط وكلموا الطفل بالمكبر يستدرجونه ليلقي بنفسه عليه حتى نجا، والنَّظَّارة[1] ممسكون قلوبَهم بأيديهم مشدوهون من هول المنظر.

ويقول إن هذا المنظر -على هوله- لا يُعَدّ شيئاً إذا قيس بمشهد الطفل الذي روت «الأيام» أنه كان في جماعة العمال لمّا انهار بناء مسعود فبقي معلقاً من يده، وكان من المستحيل إنقاذه بالسلالم لأن أدنى حركة تهوي به وبالركن الذي يعتمد عليه، وكان مشهد الطفل يفتت الأكباد وكان صراخه يقطع القلوب، فما كان من رجال الإطفاء إلا أن تبايعوا على الموت، وانتدب نفسَه

(١) بتشديد الظاء وفتحها وفتح النون قبلها، كذا تُلفظ. وهي كلمة قديمة معناها "القوم ينظرون إلى الشيء" (مجاهد).

بطلٌ منهم فعرضها للهلاك ليخلص الطفل من الهلاك، وتدلى بحبل من شاهق حتى أنقذ الغلام.

حقيقة أرْبَتْ -في روعتها- على زخرف الفلم وواقع أزرى بالخيال، وبطولة إنسانية يهون معها كثير من البطولات التي دانت التاريخ.

ويعجب الأخ من المحافظة لأنها لم تشأ أن تعلّم الناس تقدير البطولة بإعلان اسم هذا البطل المجهول، ولم تلقّنهم تمجيدها بمكافأته مكافأة توازي عمله. وبِمَ -لعمري- يكافأ مَن عرّض نفسه للموت في سبيل الواجب وفي سبيل الإنسانية؟ وهل نستكثر عليه أن نجود له بدرجة أو علاوة أو وسام، وقد جاد لنا بنفسه التي لا يملك غيرها؟ ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

* * *

إن مكافأة المحسن واجبة وجوب معاقبة المسيء، وإن «مصلحة الإطفاء» قد أثبتت في كل موقف أنها من خير مصالح الدولة وأنه لا يعدل صلاحها إلا فساد المحافظة الممتازة تشكو -معتذرة عن ضعف مراقبة الأبنية- بقلة المهندسين، وتدفع أمس أربعة عشر ألف ليرة من أموال البائس والفقير من المكلفين لشراء سيارة جديدة... لأن السيارة الفخمة التي شريت من سنتين لم تعد تليق بالمقام!

وإذا كانت الحكومة عاجزة عن مكافأة هذا البطل لأن رواتب الموظفين الكبار (وتوابع الرواتب من هواتف وسيارات وتعويضات ورحلات وحفلات) تستنفد أموال الخزينة فإنني

أقترح على «الأيام» أن تفتح باباً للتبرعات لتجمع مبلغاً من المال يقدم هدية لهذا البطل الذي لا أعرف إلى الآن من يكون، ولكني أعرف أنه من العار على دمشق أن تقعد عن تكريم البطولة وتقدير التضحية ومكافأة الإحسان.

* * *

فصل مفقود
من كتاب «كليلة ودمنة»

كان عند الرافعي رحمه الله نسخة من كتاب كليلة ودمنة ليس لها في الدنيا ثانية، وقد وقعت لي أمس ورقةٌ منها صغيرة فيها هذه الأسطر أنقلها بالحرف الواحد[1]:

قال كليلة: أفلا تضرب -يا دِمْنة- مَثَل الأيام التي تختلّ فيها الموازين وتفسد المقاييس وتضيع الحدود، حتى ينزل العالي ويصعد الواطي[2]؟

قال دمنة: إنّ مثل ذلك مثل إناء فيه زيت وزئبق وماء، إذا نظرت إليه رأيت كل واحد من الثلاثة قائماً مقامَه، نازلاً منزلته، لا يرتفع الزئبق من القعر ولا يهبط الزيت عن الصدر. فإنْ هو اضطربَ الإناء أو انقلب تداخلَتْ بالاضطراب الحدودُ وتعادلت بالانقلاب المنازل، فاختلط الخفيفُ بالثقيل والرفيعُ بالوضيع، وصار أسفلَ مَنْ حَقُّه العلوّ، وأعلى مَنْ محله السُّفْل.

---

(١) لا يقعَنّ في وهم قارئ من القراء أن هذا قولُ جِدّ، إنما هو قولُ هَزْل، ولم تكن هذه النسخة قَطّ، لكن جدي رحمه الله ابتدعها من خياله ليُجري الحديث على لسانَي كليلة ودمنة! (مجاهد).

(٢) الواطي من الفصيح على التسهيل.

ولكن هذه الحال لا تدوم، ولا بد أن يسكن المضطرب ويستقيم المنقلب، ويعود كلٌّ إلى المكان الذي خُلق له.

(طبق الأصل)

* * *

لا نريد تماثيل

قرأت أن التمثال الذي صُنع في أميركا ليوسف العظمة قد وصل وأنه سيُنصَب في إحدى ساحات دمشق.

فذكرت مصر والتماثيل الضخمة القائمة في ميادينها: تمثال النهضة، وتمثال إبراهيم وسعد ومصطفى كامل وأحمد ماهر، وما أنفق على نحت هذه الحجارة وتسويتها بشراً سويّاً من ملايين الجنيهات التي يحتاج إلى بعضها هؤلاء «البشر» ليعيشوا مثل عيش البشر، فيجدوا الطعام الذي يشبع البطن والكساء الذي يدفع البرد والدواء الذي يمنع المرض، وليستعيدوا «اعتبارهم الإنساني» ويشعروا بأنهم آدميون وليسوا قططاً جائعة تحوم على المائدة الشهية التي يتمتع بها الأغنياء.

وكددت ذهني، فلم أذكر أني رفعت رأسي مرةً واحدةً لأنظر إلى جمال واحد من هذه التماثيل ولا إلى فنّه ولا إلى ملامح صاحبه، لأنها قد استأثرت بنظري هذه الهياكل البشرية التي نصبها الظلم الاجتماعي تماثيلَ حيّةً للجوع والجهل والبؤس والحرمان.

وعجبت من هذه العقول التي تحسب تخليد العظماء إنما يكون بهذا الأثر الذي يُنصَب ليكون حظنا منه النظر، لا بالآثار

الباقيات التي تمكث في الأرض وتنفع الناس.

وخفت أن يسري هذا الداء إلينا، فنقيم التماثيل قبل أن نفتح المدارس وننشئ المشافي ونوسع الطرق وننظف الأرض، وأن ننسى أن الضروريات قبل الكماليات، وأنّ مَن كان يمشي بلا بنطلون لا يتخذ ربطة عنق من الحرير، وأن الجائع الذي لا يملك إلا فرنكاً لا يشتري به كفّ شكلاطة، وإنما يشتري به رغيف خبز. وأن تخليد العظماء يكون بإنشاء المشافي بأسمائهم والمدارس والملاجئ، قبل إقامة التماثيل التي لا تشفي المريض ولا تعلم الجاهل ولا تؤوي المشرد المسكين. وأنه ليس في الدنيا تمثال خلّد اسمَ صاحبه كما خلد الوقفُ اسم نوبل والمعهد اسم باستور، والأمويُّ اسمَ الوليد والمستشفى اسمَ نور الدين والتكية اسم سليمان.

أفهذه الآثار التي تنفع البشر خيرٌ، أم نحتُ تمثال من الحجر؟

* * *

ثورة دجلة

أقمت في بغداد سنين أرى كل يوم وجه دجلة الباسم، في الصباح وأنا غادٍ إلى المدرسة وفي المساء وأنا رائح من النزهة، وأجوز الجسر، جسر بغداد الذي كان يوماً سرّة الأرض وكبد الدنيا، وأركب الزوارق، أمشي مع النهر الذي ساير الزمان ووعى سَيْرَ الدهور، فلا أنكر من دجلة شيئاً، وأعجب مما تطلع به الجرائد علينا كل غداة تحذّر وتنذر وتدعو إلى «تقوية السدود»، وأرى ذلك من تهويلات الصحف.

وهذه السدود ليست إلا أكواماً من التراب على الشاطئين، تمنع الماء أن يطغى على الجانبين ويغمر بغداد، وهي منخفضة عن وجه الماء.

... حتى كانت ليلة الذعر التي مَرّ عليها أربع عشرة سنة ولا أزال -كلما تذكرتها- أرتجف من ذكراها[1]. ليلة بتنا على شفا القبر، نرقب الموت في كل لحظة، قد لبسنا ثيابنا وحملنا ما خَفّ وغلا بأيدينا وقعدنا متحفزين: أُذُناً إلى الرادّ نسمع الإذاعة (الماء يرتفع، بقي دون الخطر خمسة سنتيمات) وأذناً إلى الطريق نصغي نرقب صفارة الإنذار.

---

(١) كان ذلك سنة ١٩٣٦، ولقد شهدتُ فيما بعد (في سنة ١٩٥٣) أكبر فيضان وآخرَه. وقد أمنت بغداد الآن من خطر الفيضان.

وكنت يومئذ أسكن في الأعظمية في دارٍ واحدةٍ مع الإخوان أنور العطار وكامل عيّاد وحيدر الركابي وصالح عقل، ولقد متنا ألف مرة من خوف الموت وارتقابه في هذه الليلة التي لم تغمض فيها في بغداد كلها عين، وتجرّعنا غصص الرعب ألف مرة قبل أن يطلع الصبح وتعلن الإذاعة أن الجند والناس -الذين سيقوا جميعاً من الطرقات والبيوت إلى العمل- قد استطاعوا كسر النهر من الشمال وإنقاذ بغداد[1].

وعادت الجرائد تنذر وتحذّر وتدعو وتنادي. وفهمت لماذا تدعو الجرائد، وظننت أنه لن يمرّ شهرٌ حتى تكون الحكومة قد تيقظت واعتبرت وأنشأت لدجلة سدوداً فنية تقيها الغرق، لا أكواماً من التراب.

ومرت أربع عشرة سنة، وحسبت كل شيء قد كان، وإذا أنا أقرأ أمس خبر فواجع الماء في بغداد. فهل اعتبرت الآن حكومة بغداد وتيقظت؟ لا أظن! لأن هذه هي طبيعة حكوماتنا جميعاً؛ لا تفيق إلا بعد خراب البصرة كلها، وبعد غرق بغداد، وبعد ذهاب ما تبقى من فلسطين إلى أيدي اليهود.

يومئذ تفيق، لا لتعمل وتستعد وتتدارك ما فات، بل لتجتمع اجتماعات جديدة، تُلقَى فيها الخطب وتُساق التهم وتتبادل الشتائم، ثم تؤجل لاجتماع آخر في يوم آخر يبحث فيه المسؤولون عمّا كان، ثم لا يُعرف مَن المسؤول!

---

(١) انظر الحلقة ٩٦ في الجزء الثالث من الذكريات، «الليلة التي ثار فيها دجلة» (مجاهد).

فيا بغداد، يا بلدي الحبيب بعد بلدي دمشق، يا أيتها المدينة التي خلّفت فيها قطعاً من قلبي وعمراً من حياتي: لك الله. لك الله يا بغداد!

يا بغداد، إنه إن بقي «هؤلاء»[1] يسيّرون سفينة العرب في لُجّ الحياة، وإن لم يتداركنا الله بأيدٍ جديدة توجه هذه السفينة، فلن تغرق بغداد وحدها بالماء، بل ستغرق دنيا العرب كلها بالإفلاس والأمراض والفوضى، وبإسرائيل، وبالذين رمونا بإسرائيل.

* * *

---

(١) المقصود نوري وعبد الإله.

البطل

لا أزال أسمع ممّن يحسن الظن بي قولُهم أني أجيد الوصف وأن لي قدماً في هذا الباب من أبواب الإنشاء، وكنت -لطول ما أسمع ذلك منهم- أكاد أصدق قولهم، حتى كشف الله لي اليوم عن الحقيقة، فعلمت أن ذلك المقال مجاملة وإيناس، وأني في الوصف من أعجز الناس.

علمت ذلك لمّا رأيت هذه الصورة التي يُعلَن بها عن فلم «البطل»، ولمّا حاولت أن أصفها لمن لم يرَها وأن أبيّن عن مبلغ ما عراني من الاشمئزاز والقرف لمّا رأيتها. صورة هذا المهرج إسماعيل ياسين وهو مغمض العينين محني الرأس، مفتوح الفم ممدود الشفتين كأنه مجذوم مائل الشدق أو مجذوب سائل الريق، وفي يديه الشيء الذي جذب لبه وأخذ قلبه: حذاء امرأة!

فإذا كان هذا هو الإعلان فكيف يكون الفلم، وإن كان هذا هو العنوان فكيف يكون المكتوب؟ أيّ إهانة للذوق وطعنة للرجولة وإفساد لقلوب الشباب! وإذا كان هذا كله من اجل الحذاء، فماذا يصنع إذا رأى ما في الحذاء وما فوق الحذاء؟ ويسمّونه فلم «البطل»، احتقاراً للبطولة وسخرية بها وتهويناً لشأنها!

لا ؛ إن هذا كثير كثير.

إنه سيجعل شبابنا يظنون أن البطل هو الذي يفتح فاه مثل المجاذيب فناءً في حذاء امرأة، على حين أن وراء النهر بنات من بنات اليهود يحملنَ الرشاشات ويَصْلينَ حر القتال.

إن هذا الفلم وأمثاله جريمة على الوطن، فحاربوها كما تحارَب الجرائم. ولست أكره أفلام المهازل (الكوميديا) ولا أنكر على الشعب أن يضحك، ولكني أريد أن نضحك ونحن رجال أولو عزة وكرامة، لا أن نضيع كرامة أنفسنا وعزة رجولتنا من أجل ضحك ساعة.

* * *

جريدة «الأيام»

لقد جددت لي «اليوم» شبابي وأعادت لي مواضي أيامي ورجَعَتْني مسيرةَ عشرين سنة في طريق الزمان، حتى كأني أرى مولد جريدتَي «الأيام» و«الإنشاء» وأشهد ذلك العهد سقى الله لياليه، عهد الشباب، عهد النضال، العهد الذي كان -على رغم الانتداب- عهدَ وثبة وطنية عزيزة المثيل.

وكأن التاريخ يعود واقعاً والماضي يصير حاضراً، فقد كان مولد جريدة «الأيام» حدثاً في تاريخ الصحافة في بلاد الشام، وكان لها هزّة في قلوب الحاكمين والمحكومين على السواء؛ هزة فرح في قلوب، وجزع في قلوب. وكان الناس يرقبون صدورها ويزدحمون على بابها كل يوم ازدحامَهم على الأفران أيام الحرب، وبيعت أعدادٌ منها بأضعاف أضعاف ثمنها، ورأت من العزّ ما لا أظن جريدة رأت مثله.

وما ذلك لمجرد أنها جريدة الكتلة الوطنية (والكتلة يومئذ قائدة الجهاد وزعيمة الوطن) ولا لأنها حشدت لها قُواها ومالَها، ولا لأنها أول جريدة صدرت بالصفحات الكثيرة والمظهر الفخم، بل لأن الناس رأوا فيها شيئاً جديداً لم يروه من قبلها؛ رأوا فيها رجولة الرجل الذي كان يقوم عليها. الرجل حقاً، القويّ الأمين ذي العزم المتين والقلم المبين، عارف النكدي.

كانت الصحف تهجم على الحكومات المحلية، فهجم هو على الدولة المنتدِبة. وكانت تنقد رئيس الوزراء، فنقد هو المفوض السامي. وجعل الجريدة مدرسة للرجولة وللجرأة، وعلّم قراءها أننا إن كنّا أضعف من المستعمرين لا نملك دباباتهم ولا مدافعهم فإننا أقوى بإيماننا وأشرف بماضينا، وأنّا المُحِقّون وأنهم الغاصبون المبطلون، وأن الباطل قد يغلب الحق حيناً والمستعمر قد يسطو بالشعب زمناً، ولكن ذلك لا يمكن أن يدوم.

وكانت -فوق ذلك- مدرسة للبيان العربي والأسلوب المشرق والبلاغة التي تهز حبات القلب وتثير سواكن النفس، حتى تجعل البَكِيّ فَرِحاً والعييّ فصيحاً والجبان جريئاً، والشعب الأعزل جيشاً يهزأ بالحديد والنار.

ولقد كانت للناس ثقة بها لم يكن مثلها لجريدة، وكان من المظاهر الكثيرة لهذه الثقة أنها لمّا دعت الناس إلى مساعدة أطفال الصحراء (أبناء الثوار الذين كانوا في وادي السرحان مع سلطان) أقبل الناس على البذل إقبالاً لا شبيه له، وكانت هي محلاً لهذه الثقة، فنشرت أسماء المتبرعين ومقدار ما دفعوا ووجوه إنفاق المبلغ ووثائق وصوله، فلم يَضِعْ قرشٌ واحد ولم يُسرَق[1].

لقد كان لي شرف العمل في «الأيام»، وأنا أشهد أن دارها كانت كعبة الوطنية وقبلة رجالها، وكانت «مقر أركان حرب» الجهاد الوطني، وفيها كانت اجتماعات قادة الأمة وفيها كانت مجالس الشباب، وكان فيها بهو للجنة الطلبة المركزية التي

---

(١) راجع الحلقة ٤٤ من الذكريات، «أطفال الصحراء» (٢/٦٧) (مجاهد).

تمثل طلاب دمشق جميعاً، وكان كاتب هذا المقال هو رئيسها وكان أول داع لتأليف لجان للطلاب عقب عودته من مصر سنة ١٩٢٨[١]. ومضى وقت طويل ولجان دمشق كلها يديرها رجلان: الدكتور صبري القباني وكاتب هذه السطور، وكان الأول طالباً في كلية الطب والثاني طالباً في كلية الحقوق.

لقد سايرت هذه الجريدةُ الأمةَ في جهادها ورافقتها في نكباتها وأعيادها، وكانت معها في بيض أيامها وسوادها، حتى غدت مجلّداتها تاريخاً لنهضتها.

إن الأمة تريد جرائد محترمة رزينة ذات مبدأ تصدر عنه وغاية تسعى إليها، تعيش لقرائها فقط وتعيش على قرائها فقط. وإنّا لنرجو أن تكون «اليوم» كما تريد الأمة أن تكون الجرائد، فتصل مجدها الطريف بمجدها التليد، وتبني مستقبلها العظيم على أركان ماضيها العظيم[٢].

* * *

(١) راجع الحلقة ٤٠ من الذكريات في الجزء الثاني، «في اللجنة العليا لطلاب سوريا» (مجاهد).

(٢) في الجزء الثاني من الذكريات (ص٤٩-٦٥) قصة جريدة «الأيام» وتفاصيل كثيرة عنها وعن رئيس تحريرها عارف النكدي (مجاهد).

حتى لا نكون مغفّلين

قرأت من أسبوع أن ستين ألفاً في بومباي خرجوا بمظاهرة هائلة يحيّون «آغا خان» ويهتفون له، فلم ينظر إليهم وإنما قابلتهم امرأته الفرنسية. فقلت في نفسي: ما أعجبَ أمرَ العقيدة! هذه الآلاف المؤلفة من البشر تتجه إلى آغا خان وتقبل عليه وتُؤثره على الأهل والولد، وتقدم له الخمس من المال وتدفع إليه وزنه فضة وذهباً، وتكاد تعبده من دون الله، وهو مُعْرِض عنها، لا يقيم بين ظهرانيها ولا يلتفت إليها؛ همّه لذاته ولعبه وجياده. فما لها وله؟ وما تعلقها به وإقبالها عليه؟

ثم قلت: لماذا ألوم الإسماعيليين وحدهم، وكلنا في هذا إسماعيليون؟

أمَا خاننا رجالٌ ووالَوا عدونا وكانوا مع المستعمر علينا، فلما ذهب المستعمر رجعوا يكذبون، يَلْبسون مسوح العابد بعد مئزر الجلاد، فصدقنا توبتهم ونسينا حوبتهم؟ أما سرق أموالنا رجالٌ فصيّروها ضيعاً لهم وقصوراً، وجعلوها كنزاً لهم ولأولادهم واطمأنوا عليها، ثم جاؤونا متظاهرين بالورع مدّعين الأمانة، فأكبرنا أمانتهم وضربنا بهم في الورع الأمثال؟

أما جرّبنا رجالاً فوجدناهم شرّ حاكمين وأفسدَهم حكماً

وأرقَّهم ديناً وأوسعهم ذمة، فنبذناهم، وطال عليهم الأمد فنسينا فسادهم، ورجعنا نصفّق لهم وننحني لهم لنرفعهم على رؤوسنا مرة أخرى؟

أما يضحك علينا رجالٌ كلما أذن مؤذّن الانتخاب ويعِدوننا نعيم الجنة في الحياة، ويحلفون لنا -ليخدعونا- أنهم يُجرون بردى لبناً وعسلاً ويفرشون الطرق بسطاً ويلبسون الفقراء حريراً، فإذا انتخبناهم كانت مواعيدهم كمواعيد عرقوب؟! ثم تتجدد الانتخابات فيعودون إلى الضحك على ذقوننا ونعود إلى انتخابهم؟

فمتى نصير أمة متيقظة عاقلة لا نائمة ولا مغفَّلة، نتخذ لكل رجل من رجال السياسة دفتراً كدفتر التاجر، فيه «من» و«إلى»، نقيّد له فيه ما له ونسجّل له ما عليه، لنرى كم أعطى الأمة وكم أخذ منها؟ ماذا كان يملك من قبل وما يملك الآن؟ كيف كان يعيش هو وأهله وكيف يعيش اليوم؟ هل صدق الوطنية أم اتخذها تجارة رابحة؟

متى نفرق بين الصالح والطالح، وبين الخيّر والشرير، ولا نكون مغفلين ننسى مواضي الرجال ونُخدَع مثل الأطفال؟

* * *

أبو حية النميري والموظفون

كان لأبي حيّة النميري غنم، فكان يطعم السمينة ويغذوها ويختصها بأحسن الكلأ وأطيب الشعير ويهمل الهزيلة، فقيل له في ذلك، فقال: أُكرم ما أكرم الله وأُهين ما أهان الله!

ومِلاكات الموظفين على طريقة أبي حية! فالموظف الكبير صاحب الراتب الضخم والعلاوات الكبيرة له تعويض التمثيل وله سيارة وله سائقها وله التقدم وقلة العمل والحرية والوجاهة، والموظف الصغير يرتقب سنتين أو ثلاثاً أو أكثر من ذلك لينال علاوة القِدَم وفرق الدرجة خمس ليرات فقط، وقد لا يصل إليها.

وإخواننا موظفو الخارجية لهم التكرمة والرعاية والقصر الفخم والأثاث الغالي، وعلى أبوابهم الحُجّاب والأعوان يمسكون عليهم الأبواب أن يزعجهم مراجع أو يعكر صفوَهم صاحبُ معاملة، حتى الحافلات منعوها أن تقف أمام البناء أو تدنو من هذا الحِمى الأقدس، وهم يسيحون في البلدان على حساب السلطان، ويُنقَل أحدهم من باريس إلى واشنطن ويُنقَل غيرهم من الدير إلى حوران، ويأتي مِلاكهم بعد ذلك فينص في المادة (٦٥) على ما يلي:

تتألف مخصصات موظفي السلك الخارجي من:

(١) الراتب. (٢) نفقات السفر وتعويض الانتقال. (٣) بدل الاغتراب. (٤) بدل التمثيل والإنابة. (٥) التعويض العائلي. (٦) بدل الملابس. (٧) مخصصات السكنى والأثاث. (٨) مخصصات التداوي. (٩) مخصصات نقل الجثمان ودفنه!

ومخصصات غيرهم من الموظفين تتألف من: (١) الراتب. (٢) الراتب. (٣) الراتب. (٤) الراتب، ولا شيء إلا الراتب! ولو كان الراتب لا يكفي ثمن الخبز، ولو كانوا مرهَقين بالأعمال التي تكسر الظهور وتُعمي العيون، ولو لم يذوقوا معشار هذه الرعاية التي يلقاها موظفو الخارجية!

أمّا بدل الملابس فليس لهم، لأن المفروض أن يجيئوا إلى دوائرهم بالقميص واللباس! ولا مخصصات سكنى وأثاث، لأنهم ينامون في الشوارع على التراب! ولا مخصصات تداوي، لأنهم -من عناية الحكومة بهم- لا يمكن أن يمرضوا! ولا مخصصات دفن، لأنهم يُلقَون -إن ماتوا من الغيظ- على سفوح قاسيون لتأكل أجسادهم الطيور!

أفليست هذه هي طريقة أبي حيّة؟ ولكن أبا حية النميري -يا سادتي- كان معدوداً مع الحمقى!

* * *

المحتويات

إلى القرّاء الكرام

لقد بذلتُ في تصحيح هذا الكتاب غايةَ ما استطعت من الجهد، لكنّي لا آمَنُ أن يكون فيه خطأ سهوتُ عنه، لأن الكمال ليس لأحد من البشر، إنما هو من صفات خالق البشر. فأرجو أن يَمُنّ عليّ قارئه (وقارئ سائر كتب جدّي التي صحّحتُها وأعدت إخراجها من قريب) فينبّهني إلى أي خطأ سهوت عنه لكي أتداركه في الطبعات الآتيات، وأنا أشكره وأدعو له اللهَ بأن يجزل له الأجر والثواب.

مجاهد مأمون ديرانية
mujahed@al-ajyal.com

من آثار المؤلف

١ - أبو بكر الصديق	١٩٣٥
٢ - قصص من التاريخ	١٩٥٧
٣ - رجال من التاريخ	١٩٥٨
٤ - صور وخواطر	١٩٥٨
٥ - قصص من الحياة	١٩٥٩
٦ - في سبيل الإصلاح	١٩٥٩
٧ - دمشق	١٩٥٩
٨ - أخبار عمر	١٩٥٩
٩ - مقالات في كلمات	١٩٥٩
١٠- من نفحات الحرم	١٩٦٠
١١- سلسلة حكايات من التاريخ (١ - ٧)	١٩٦٠
١٢- هتاف المجد	١٩٦٠
١٣- من حديث النفس	١٩٦٠
١٤- الجامع الأموي	١٩٦٠
١٥- في أندونيسيا	١٩٦٠
١٦- فصول إسلامية	١٩٦٠
١٧- صيد الخاطر لابن الجوزي (تحقيق وتعليق)	١٩٦٠
١٨- فِكَر ومباحث	١٩٦٠

١٩- مع الناس	١٩٦٠
٢٠- بغداد: مشاهدات وذكريات	١٩٦٠
٢١- سلسلة أعلام التاريخ (١- ٥)	١٩٦٠
٢٢- تعريف عام بدين الإسلام	١٩٧٠
٢٣- فتاوى علي الطنطاوي	١٩٨٥
٢٤- ذكريات علي الطنطاوي (١- ٨)	١٩٨٥- ١٩٨٩
٢٥- فتاوى علي الطنطاوي (الجزء الثاني)	٢٠٠١
٢٦- فصول اجتماعية	٢٠٠٢
٢٧- سيّد رجال التاريخ (محمد)	٢٠٠٢
٢٨- نور وهداية	٢٠٠٦
٢٩- فصول في الثقافة والأدب	٢٠٠٧
٣٠- فصول في الدعوة والإصلاح	٢٠٠٨
٣١- البواكير	٢٠٠٩
٣٢- ذكريات علي الطنطاوي: الفهارس والصُّوَر	٢٠١١
٣٢- كلمات صغيرة	٢٠١٥

* * *